

قال تعالى

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩]

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[القصص: ٨٣]

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

[آل عمران: ٨]

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا
الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدَى
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَلْعَبُدُونَ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بَصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ أَنْتُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٦ - ٧٣]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

للتواصل مع المؤلف:

٩٩٦١٩٢٧٠ الكويت



للشؤون والنشر والاعلام

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية

هاتف: ٢٤٨١٩٠٣٧ - ٢٤٨٤٤٧٤٣ - فاكس: ٢٤٨٣٨٤٩٥

الكويت - الخالدية - ص.ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١

فرع القاهرة: الأزهر - شارع البيطار - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢٢٤٩٩٨٣٥٦ - ٠٠٢٠١٢٦٣٠٤٠٧٥

Website: www.gheras.com - E-Mail: info@gheras.com

نَقْلُ الْحِطِّيِّ مَعَ زَبَدِ الْهُدَى

تَأْلِيفُ
«أَبِي يُسُفَّ» سَعِيدُ بْنُ عَمَّارٍ السَّعْدِيُّ



لِلنَّشْرِ وَالنَّوْجِ وَالْإِعْلَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين
والآخرين محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه وأمّهات المؤمنين ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فهذه الطبعة الثانية لهذا السفر المبارك الذي بين يديك
الكريمتين أرجو أن يكون مقبولا عند الله تعالى، وذلك بعد أن نفذت
طبعته الأولى، وأحسبها أنها لاقت - ولله تعالى الحمد - شيئاً من
القبول فأحببت أن ألحق بها رسالة ثامنة سبق وأن طبعت منفردة وهي
[زاد الركب السعيد] فهي رسالة كأنها خلاصة وزبدة لما تقدمها من
الرسائل في ذلك المجموع لما اشتملت عليه من أبواب وفصول نرى أن
فيها ثمرات يانعة يستحب بل يجب تحصيلها، والله تعالى الموفق إلى
سبيل الرشاد والهادي إلى طريقة المستقيم وصلى الله وسلم على محمد
وآله وأصحابه أجمعين.

المؤلف

أبو مصعب

سعيد السعيد

٣٠ ربيع الآخر ١٤٣٥ هـ

٢٠١٤/٤/١ م

مقدمة الطبعة الأولى

[نقل الخطي^(١) مع بدور الهدى]

الحمد لله حمد الشاكرين، وأثنى عليه بما هو أهله، وأصلي وأسلم على أفضل خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

أما بعد فإنني بعد التوكل على الله تعالى عزمت على جمع [عدد من رسائل في مجلد واحد] كي يتم حفظها من عادات الأيام والليالي، ويزيد في عمرها والانتفاع بها والله تعالى المستعان وأسميتها: (نقل الخطي مع بدور الهدى).

وإن هذه الرسائل تدور حول الدعوة وتوريثها وصفات أهلها والقُدوة المثلّي، والأسلوب الذي يجب أن يُسلك في تبليغها، والحرص على الدين والتمسك به والذود عن حياضه النقية.

فهذه المعاني السامية وغيرها توجد في هذا المجلد الذي بين يديك

(١) الخطوة: بالضم ما بين القدمين وجمع القلة (خُطَوَات) بضم الطاء وفتحها وسكونها والكثير (خُطَى)، «مختار الصحاح» ص ١٨١ .

وفي المصباح المنير: ١٧٤/١ :

الخطوة: بالضم ما بين الرّجلين، وجمع المفتوح (خُطَوَات) على لفظه مثل شهوة وشهوات وجمع المضموم (خُطَى) وخُطَوَات مثل عُرف وعُرفَات .

الكريمتين وهو يحتوي على الرسائل التالية :

(أ) دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام .

(ب) آباء وأبناء في القرآن الكريم .

(ج) الحنان في سيرة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم .

(د) الدعوة فيها الرفق والحزم .

(هـ) الخطاب الكريم للبشير النذير .

(و) من صفات أولياء الرحمن .

(ز) نظرات في سورة الكهف .

ومن المعلوم أن المرء الموفق يحتاج إلى اقتفاء خطى أولئك الركب المبارك الذي سار بالدعوة إلى الله تعالى سيراً حثيثاً . وأصلي وأسلم على محمد وآله وأصحابه وأزواجه .

المؤلف

سعيد بن عماش السعيد

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ترجمة المؤلف]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين .
هو الشيخ سعيد بن عماش بن خلف بن الطريف السعدي .
ولد سنة (١٩٤٩م - ١٣٧٠هـ) حيث تواتر الخبر بذلك من أقاربه ، وفي
سنة ١٩٦٠ دخل المدرسة الابتدائية في قرية الجهراء ثم المتوسطة حتى
١٩٦٨م وبعد ذلك ألحقه والده رحمه الله تعالى . بمعهد المعلمين في
مدينة الكويت ، وكان من المتفوقين وتخرج سنة ١٩٧٢ مدرساً في المرحلة
الابتدائية (مدرسة المعتصم) التي عمل فيها ست سنوات .
ثم استكمل دراسته بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٩هـ
وتخرج سنة (١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ) ثم عاد إلى الكويت وأعيد تعيينه
مدرساً في المرحلة الثانوية ثم وكيلاً في مدراسها ثم مديراً حتى سنة
٢٠٠١م حين طلب الإحالة على التقاعد بعد خدمة ثمانية وعشرين عاماً .



شيوخه

أولاً: في الكويت:

- تأثر بالشيخ/ساير العتيبي (أبو عبد الله) إمام جامع القرية صاحب السنة من الطراز الأول وخاصة في شهر رمضان المبارك.
- سمع من الفاضل/سعد بن مغير العاصي السعيد أبي عقيل الأصول الثلاثة وحفظها منه وكان رحمه الله حريصاً عليه.
- كان للأخوين الشيخ/حمد بن صالح الأمير أبي صالح شيخ الدعوة السلفية والشيخ الدكتور/فلاح بن ثاني السعيد دور بارز في سلوك طريق الدعوة الصحيحة فجزاهما الله الخير كله وجعل ذلك في ميزان حسناتهما يوم الدين^(١).
- سمع وحضر دروس الشيخ /حسن أيوب المصري في مسجد العثمان وغيره
- سمع وحضر دروس الشيخ/عبد الرحمن بن عبد الصمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .
- سمع وحضر دروس الشيخ/عبد الرحمن عبد الخالق اليوسف .
- سمع وحضر دروس الشيخ/عبد الله بن خلف السبت .

(١) ومن كان له دور في الدعوة إلى الله تعالى في أيامها الأولى، وجُهد نسأل الله تعالى أن يكون مشكوراً وأن يثبتهم على ذلك الأخ عبد الكريم بن فرحان الشمري (أبو خالد) والأخ سعد بن محمد البناق، والأخ محمد بن سيف بن ضريس العجمي والأخ علي بن دخيل بن شافي (أبو عبد الرحمن) وعبد العزيز بن صالح الهدة (مجاهد الدعوة). وكذلك الأخ سعود بن سليمان الخالدي، وجابر بن جعيث الشمري والأخ حمود الحيص، والأخ فيصل بن محمد البناق والأخ عبد الله بن تركي الظاهر. نذكر دورهم ومواقفهم الثابتة على المنهج في أيامه الأولى ونسأله تعالى الثبات لنا ولهم.

ثانياً: في المملكة العربية السعودية:

- حضر وسمع محاضرات متنوعة بين يدي الشيخ/ عبد العزيز بن باز في المدينة والطائف.
- حضر وسمع محاضرات في المدينة المنورة والقصيم للشيخ/ محمد صالح العثيمين.
- تشرف بمجالسة الشيخ/ حماد الأنصاري رحمه الله تعالى في المدينة المنورة شيخ الحديث الشريف المشهور.

ثالثاً: من شيوخه المشهورين كذلك:

- الشيخ/ محمد بن أمان الجامي عميد كلية الحديث الشريف رحمه الله تعالى
- الشيخ الدكتور/ ربيع بن هادي المدخلي أستاذ الدراسات العليا: سمع منه قراءات في كتب السنن لمدة فصلين^(١) مع آخرين.
- الشيخ/ عمر بن محمد فلاته أمين عام الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، دراسة كتاب تدريب الراوي فصل كامل.
- الشيخ/ الدكتور صالح بن سعد السحيمي، دراسة الطحاوية فصلين مع آخرين.
- الشيخ/ عبد العزيز الشبل والد الدكتور علي الشبل الحالي (دراسة في الفقه).
- الشيخ/ عبد القادر السندي، دراسة في الجرح والتعديل فصل.
- الشيخ/ سعدي الهاشمي العراقي دراسة الأسانيد والرجال فصل.
- الشيخ/ علي القاري دراسة في علم الفرائض فصل.
- الشيخ/ عبد الرزاق المصري دراسة في علم الأصول فصل.

(١) يعني فصلين دراسيين.

- الشيخ / علي سنان رحمه الله تعالى دراسة الواسطية فصل .
- الشيخ / سعيد العواجي دراسة في مصطلح الحديث الشريف فصل
- الشيخ / محمد عطية سالم رحمه الله تعالى قراءة في الموطأ (تلميذ الشيخ الكبير الشنقيطي) مؤلف أضواء البيان.
- الشيخ / عبد القوي الهندي ، علم التجويد .
- الشيخ / عبد اللطيف عبد الموجود في علم الأسانيد فصل .
- الشيخ الدكتور / عبد الفتاح العشماوي دراسة في التفسير .
- الأستاذ والمعلم الذي لا يمكن أن ينسى اسمه الذي علمه في الصف الأول الابتدائي [عدنان هاشم محروس الفلسطيني رحمه الله رحمة واسعة]

[والحمد لله رب العالمين]

وصلّى الله وسلم على سيد الأولين والآخرين وآله وأصحابه ومن سار
على دربهم إلى يوم الدين .

* * *

الأماكن التي عمل فيها

- ١- عمل في حقل الدعوة إلى الله تعالى - نسأل الله تعالى - القبول له منذ سنة ١٩٧٦م وله تلاميذ كثيرون، أصبح بعضهم يحمل الشهادات العالمية والمناصب القيادية في المجتمع.
- ٢- عمل مشرفاً لدار القرآن الكريم في المحافظة من سنة (١٩٨٤ - ١٩٩٠) في الفترة المسائية حيث الدراسة مسائية.
- ٣- وعمل عضواً في صندوق إعانة المرضى متطوعاً، مرشداً وواعظاً.
- ٤- وما زال يعمل مأذوناً شرعياً متطوعاً منذ سنة ١٩٨٤، عَقَدَ ما يقارب أربعة آلاف وخمسمائة عقد زواج.
- ٥- كَتَبَ وَأَلَفَ عدداً من الكتب والرسائل في الدعوة إلى الله تعالى منها:
 - (أ) دعوة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَام.
 - (ب) الدعوة فيها الرفق والحزم.
 - (ج) من صفات أولياء الرحمن.
 - (د) الحنان في سيرة سيد الأنام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 - (هـ) آباء وأبناء في القرآن الكريم.
 - (و) نظرات في سورة الكهف.
 - (ز) هدية للمتزوجين.
 - (ح) الخطاب الكريم للبشير النذير.

فهرس مجمل لمجلد نقل الخطى مع بدور الهدى

- ١- الرسالة الأولى: دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.
[من صفحة ١٥ - إلى صفحة ١١٤]
 - ٢- الرسالة الثانية: آباء وأبناء في القرآن الكريم.
[من صفحة ١١٧ - إلى صفحة ١٨٣]
 - ٣- الرسالة الثالثة: نظرات في سورة الكهف.
[من صفحة ١٨٧ - إلى صفحة ٢٧١]
 - ٤- الرسالة الرابعة: الحنان في سيرة سيد الأنام.
[من صفحة ٢٧٥ - إلى صفحة ٣٢٤]
 - ٥- الرسالة الخامسة: خطاب الكريم للبشير النذير.
[من صفحة ٣٢٥ - إلى صفحة ٤٥٤]
 - ٦- الرسالة السادسة: الدعوة فيها الرفق والحزم.
[من صفحة ٤٥٧ - إلى صفحة ٥١٧]
 - ٧- الرسالة السابعة: من صفات أولياء الرحمن.
[من صفحة ٥٢١ - إلى صفحة ٥٧٨]
 - ٨- الرسالة الثامنة: زاد الركب السعيد.
[من صفحة ٥٧٩ - إلى صفحة ٦٨٠]
- * أهم المصادر والمراجع [من ٦٨١ - إلى ٦٨٧]
- * فهرس الموضوعات [من ٦٨٩ - إلى ٧٠٢]

الرسالة الأولى

«دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام»

جمع وإعداد: أبي مصعب
سعيد بن عماش السعدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي سهل لعباده طريق الهداية، وجعل اتباع رسله منجاة من المهانة، وأصلي وأسلم على محمد وآله، ومن سار على دربهم إلى يوم القيامة.

أما بعد... فإن دعوة إبراهيم ﷺ تستحق كل دراسة وعناية لما فيها من العظات لأهل العقول الراجحة، حيث ظهر فيها جلياً عقله ورجحانه، وذلك بعد أن وفقه الله لطريق الهداية.

وإن دعوته ﷺ مرت بمراحل رأيت من الفائدة دراستها والاستفادة من حسن بيانه في عرضها، راجياً من الله حسن ثوابه.

فأول تلك المراحل، أن الله تعالى آتاه رشده وهو في ريعان شبابه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الآية [الأنبياء: ٥١]، وأن الله تعالى اتخذهُ خليلاً، وهي - ولا شك - منقبة ليس بعدها علو مكانة قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومرّ بمرحلة البراهين الكونية التي ملأت فؤاده الشريف، فاستنار بقوة برهانه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وكذلك نرى مرحلة الدعوة والتكليف وكيف عرضها على أبيه وقومه والدولة كلها، فكانت الحرب الضروس التي قامت مع الكل؛ لأنه دعاهم إلى توحيد ربّه وحذرهم نيرانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
[العنكبوت: ١٦] .

وقد ظهر في طريقه ﷺ معوقات وابتلاءات بالإضافة إلى ما سبق، حيث إن الله ابتلاه بأن يذبح ابنه ووحيدَه الذي جاءه على الكبر، فكان جَلَدًا وصبوراً وحكيماً، فخفف الله عنه؛ قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، عندما رأى صدقه في اتباع أمر مولاه جل جلاله.

هذا، وقد أيدَه الله تعالى بمعجزات باهرات دمغت الباطل ومزقته ومن ذلك سلامته من النار التي وضع فيها فكانت برداً وسلاماً عليه، وتحديه للطاغية الذي ادعى الربوبية، وقد أخزاه الله على يده بقوة إيمانه وبرهانه. ثم إن الله تعالى خصه بهبات عظيمة جليلة؛ تعويضاً له عما لاقاه في سبيله، وتكريماً له، وليبيان علو مقامه بين خلقه من إنسه وجانه.

وقد مرَّ ﷺ بكل الصعاب والمواقف التي ذكرنا طرفاً منها في هذه الرسالة من أجل قضية واحدة، هي قضية التوحيد «إفراد الله بالعبادة لا شريك له في الأرض والسماء، ويصرف مخلوقاته كيف يشاء». وإن من المعجز أن جميع الآيات التي حكى الله خطاب إبراهيم ﷺ فيها في كتابنا لا تحتاج إلى إيضاح وتفسير من البشر؛ لوضوحها حيث يفهم المقصود للوهلة الأولى، فأغنى الله بكتابه الناس عن الناس في فهم مراده تعالى على لسان أبي الأنبياء ﷺ وبما أن التوحيد رأس مال المسلم، فقد اعتنى به إبراهيم الخليل ﷺ عناية فائقة، واقتفى محمد ﷺ أثر الخليل ﷺ في ذلك قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وانطلاقاً من هذا الأمر بينت في رسالتي هذه أمرين:

الأمر الأول: صراع إبراهيم ﷺ مع قومه، وبراءته من الشرك وكيف حارب ذلك.

الأمر الثاني: نلاحظ تحذير الرسول ﷺ أمته من الوقوع في الشرك وضلالته.

وأنا أعلم - يقيناً أن مثلي لا يعطى هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظراً لقلّة البضاعة وسعة الموضوع وأهميته، ولكنني بذلت جهد المقل ودخلت هذا المحيط الواسع على استحياء أسأل المولى تعالى أن يجعله خالصاً نافعاً، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولاً وآخراً، وإن كانت الأخرى فأستغفر لذنبي وجرأتي والله المستعان^(١).

جهج وإعداد: أبي مصعب

سعيد بن عماش السعيد

(١) ومن باب ردّ المعروف لأهله أتقدم بالشكر للأخ الفاضل فالح بن جبر الفضلي على ملاحظاته القيمة فيما اطلع عليه من هذه الرسالة المتواضعة في المحيط النفيس.

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله ، نحمدهُ ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء : ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الاحزاب : ٧٠ : ٧١]

أما بعد

فقد لَقِيتُ هذه الرسالة بفضل الله تعالى ومنه ، شيئاً من القبول ، فنفدت طبعتها الأولى .

وها هي طبعتها الثانية وهي تتميز بزيادات أُخِذَتْ من رسالتي الأخرى المطبوعة [آباء وأبناء في القرآن] ، وخاصة ما كان يدور حول

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام من مواقف تربوية في سيرته العطرة،
رأيت إلحاقها بها وردّها إليها إتماماً للفائدة. فنسأل المولى تعالى أن
يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

المؤلف : أبو مصعب

سعيد بن عماش السعيد

إبراهيم عليه السلام

مولده ونسبه :

مولده بأرض الكلدانيين ، وهي أرض بابل وما ولاها ، ذكر ذلك أهل السير ومنهم ابن عساكر وابن كثير في البداية والنهاية عن ابن جرير أن مولده زمن النمرود بن كنعان^(١).

وهو إبراهيم بن آزر لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

قال ابن جرير^(٢) والصواب : أن اسمه آزر ، ولعل له اسمين علمين ، أو أحدهما لقب والآخر علم ، وهو يرد على من قال : إن اسم أبيه تارح . وعند أهل الكتاب تارخ ، وهو ما ذكره جمهور أهل النسب منهم ابن عباس رضي الله عنه ، ولكن المعول عليه ما فيه نص كريم كما في الآية السابقة والله أعلم .

وإبراهيم عليه السلام له منزلة كبيرة عند سائر الأمم ، ولدى أصحاب الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، وحتى مشركي العرب قد دخلوا في المنافسة حول الإشادة والتعلق بإبراهيم عليه السلام ، وكل أمة تدعي الانتساب إلى خليل الرحمن ، والاعتبار ليس بدعوى النسب ، بل العبرة بالانتساب إلى هذه الملة المستقيمة ومدى قرب المرء منها أو بعده عنها .

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١/١٧٣) .

(٢) جامع البيان (٧/١٥٩) .

ولذلك ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبرأه الله منهم، وبين أنه كان على دين الله الحنيف، بعيداً عن الشرك وأهله؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

مناقبه ﷺ

ذكر في القرآن مقروناً بالإجلال والإعظام تسعاً وستين مرة، منها خمس عشرة في البقرة، فهو من أولي العزم من الرسل المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] ، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد جاهد في سبيل الله، ووحدانته جهاداً عظيماً فدعا إلى إخلاص الدين لله تعالى والبراءة من الشرك والمشركين، ولقد وفى بجميع ما طلب منه من قبل مولاه حتى مدحه الله تعالى في كتابه:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] .

وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] .

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [التجم: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ومن الأحاديث الشريفة:

روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون، قال: «إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم»^(١).

وفي البخاري^(٢) أيضاً عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله! والله إن استقسما بالأزلام قط».

وإن مما يدل على مكانته عند الله أن النبي ﷺ التقاه في معراجهِ حيث وجده ﷺ في السماء السابعة، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه^(٣).

ومن حديث جندب البجلي وغيره عن رسول الله ﷺ قال:

(١) برقم (٤٣٤٨).

(٢) برقم (٣٣٥٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٢)، واللفظ لمسلم.

نقل الخطي مع بدور الهدى

سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»^(١).

وثبت في صحيح مسلم^(٢) من حديث أبي بن كعب أنه رضي الله عنه قال: «سأقوم مقاماً يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم». فهنا مدح إبراهيم مدحة عظيمة، ودل من كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده على الإطلاق. ولفظ مسلم: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم».

وروى الإمام أحمد^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «يحشر الناس عراة غرلاً، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام، ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]». وهو في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد رحمه الله^(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا خير البرية! فقال: «ذاك إبراهيم».

قوله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [التجم: ٣٧] قال أهل العلم: وفّى جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، فكان لا يشغله الجليل عن القيام بالأمر القليل.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(١) رواه مسلم (٥٣٢، ٢٣٨٣).

(٢) رواه مسلم (٨٢٠) من حديث أبي بن كعب.

(٣) رواه أحمد (٢٢٣/١، ٢٢٩) والبخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) رواه أحمد (١٧٨/٣، ١٨٤)، ومسلم (٢٣٦٩).

[البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة والسواك، والاستنشاق وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء^{(١)(٢)}.

ذكر صفة الخليل ﷺ :

روى البخاري^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم» يعني نفسه. اهـ من حديث طويل فيه ذكر بعض الرسل عليهم السلام.



(١) ابن جرير جامع البيان (١/ ٥٧٢) الحاكم (٢/ ٢٦٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

(٣) كتاب الأنبياء ٣٣٥٥، م/ كتاب الإيمان ١١٦٦.

لماذا النزاع ؟

قام نزاع بين إبراهيم عليه السلام وأقرب الناس إليه (أبيه) وكذلك خالف إبراهيم عليه السلام قومه من أجل قضية مهمة هي قضية التوحيد، عبادة الله وحده لا شريك له، ومعلوم أن الشرك هو أحد أنواع الكفر الخمسة التي هي (التكذيب - الشك - الشرك - النفاق - الإعراض مع التصديق). وإن كفر قوم إبراهيم هو من النوع الثالث (الشرك)؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، حيث كانت الأرض تموج به، فكان بعض القوم يصنعون الآلهة بأيديهم ثم يعبدونها. وفئة أخرى تعبد الكواكب والنجوم في هذه البيئة الفاسدة التي سيطر عليها تعدد الآلهة ونصب التماثيل وقد عرف إبراهيم عليه السلام - بصائب رأيه وتوفيق الله له - أن الله واحد لا شريك له، وعزم أن يقاوم هذا المنكر الشنيع، وأن يقف في وجه الباطل الذي استشرى في قومه، وهذا ما سوف نلاحظه في المواقف التالية:



حوار إبراهيم مع أبيه في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] .

قال الشوكاني: «﴿وَإِذْ قَالَ﴾» النصيب على تقدير: واذكر إذ قال إبراهيم، ويكون هذا المقدر معطوفاً على ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقيل: معطوفاً على ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ﴾.

أنها الفطرة تنطلق على لسان الخليل، تُنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها أبوه وقومه آلهة فالإله الحق الذي يُعبد والذي يجب أن يتوجه إليه العباد في السراء والضراء هو الذي يدفع الضر ويوجب الداعي، وهو الذي كَوَّنَ هذا المُلْكَ ودبره، وفي فطرة إبراهيم، لا يمكن أن يكون حجراً أو وثناً من الخشب .

قال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] الاستفهام للإنكار، أي تجعلها آلهة لك تعبدها، فإبراهيم ﷺ هاله هذا الموقف من أعز الناس عليه (والده) حين رآه بهذه الصورة السفلى، ولا شك أن المرء عندما يرى عزيزاً عليه بهذه الصورة، ينخلع قلبه تحسراً من هذا المنظر المخزي، فكيف بإبراهيم الذي جعله الله قدوة للعالمين، فطغت مشاعر الغيرة على العقيدة على مشاعر الأبوة وما تحتويه من حنان، وقال كلمة فصل: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام] .

قال الشيخ السعدي رحمه الله ﷺ حول الآيات الكريمة: واذكر قصة

إبراهيم عليه السلام، مثنياً عليه ومعظماً حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً﴾ [الأنعام] أي لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرْنُكَ وَقَوْمَكَ﴾ [الأنعام: ٧٤] حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

قال الطبري رحمه الله (١٥٨/٥) حول الآيات السابقة:

«إذ قال لأبيه مفارقاً لدينه وعائياً عبادته الأصنام، دون بارئه وخالقه: ﴿أَسْرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] وهذا خبر من الله تعالى ذكره من قبل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: أَسْرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً تعبدوها وتتخذوها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟!».

قال الشيخ ربيع المدخلي حفظه الله حول الآيات السابقة^(١):

«دعوة حارة قوية متدفقة إلى توحيد الله، وإخلاص الدين له ونبد الشرك ورفضه، تبدأ بالأسرة وتمتد إلى الأمة، تحارب الشرك بالأصنام، وتزلزل الشرك بالكواكب»، إلى أن قال: «فالتعبير بالأصنام تحقير لآلهتهم المزعومة المصطنعة، وتسفيه لأحلامهم، ورصده للكواكب المذكورة واحداً تلو الآخر وهي تغيب وتأفل عنهم ليأخذ من حالها البرهان الواضح على بطلان ما يزعمون من ألوهيتها، فمن يرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم وشؤون هذا الكون حين غيابها وأفولها؟! وإذن

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل» للشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله.

فعلیهم أن یرفضوا هذه الآلهة المزعومة الباطلة، ویکفروا بها، وینفضوا أیدیهم منها، ویتجهوا إلى إلههم الحق الذي فطر السموات والأرض، والذي لا یغیب ولا یحول، ویکلم جمیع أحوالهم، ویطلع على حركاتهم وسکناتهم ویرعاهم ویحفظهم ویدبر شؤونهم».

حجج قوية یستمدّها من الواقع الملموس والکون المنظور.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ۖ﴾.

قال السعدي رحمه الله حول الآيات الکريمة السابقة:

جمع الله له بین الصديقية والنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ [مریم: ٤٢] مهجناً له عبادة الأوثان، ﴿يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ﴾ [مریم: ٤٢] أي: لم تعبد أصناماً ناقصة في ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعاً ولا ضرراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جليّ على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح، عقلاً وشرعاً.

قال الشوكاني رحمه الله: «﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ [مریم: ٤٢] للإنكار والتوبيخ ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ [مریم: ٤٢] ما تقوله من الشاء عليه والدعاء له، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مریم: ٤٢] ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التي تفعلها مريداً الثواب، ويجوز أن یحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك أي: لا یسمع شيئاً من المسموعات ولا یبصر شيئاً من المبصرات ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْءٌ﴾ [مریم: ٤٢] من الأشياء فلا یجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً.

قلت: فما بال هؤلاء في عصر العلم الذي يدعونه يقفون طويلاً خاشعين متذللين أمام هذه التي تدعى المقامات والمراقد والأضرحة التي لا تنفع شيئاً، فما أشبه الليلة بالبارحة! ولا حول ولا قوة إلا بالله. وحول الآيات السابقة قال الشيخ ربيع حفظه الله^(١):

«دعوة حارة إلى التوحيد، قائمة على العلم والمنطق والعقل، وعلى الخلق القويم، وتهدي الضال إلى الصراط المستقيم، يقابلها تعصب أعمى يقوم على الهوس والجهل والعناد والمكابرة، وإلا فكيف يُعبد ويُخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً؟! إن علم التوحيد هو العلم الذي يعتز به جميع الأنبياء، وبه يصلون على الباطل والجهل والشرك، فالجهل بهذا العلم علم الأنبياء الهادي إلى الحق والمنقذ من الضلال والشرك هو الجهل المميت والسم القاتل الذي يقتل العقل والفكر».

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰأَبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦]، أي أترغب عنها إلى غيرها، ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، قال الحسن: يعني بالحجارة، وقال الضحاك: بالقول، أي لأشتمنك وقيل: لأظهرن أمرك.

قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] قال ابن عباس: أي اعتزلني سالم العرض لا يصيبك مني مَعَرَّةٌ، قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد.

قال الطبري: معناه أمانة مني لك، وقال آخرون: حلیم خاطب سفيهاً؛ كما قال ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].
 قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] الحفي المبالغ في البر والإلطف.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] أي أنتم وأصنامكم، والاعتزال يعني المفارقة، ولما كانت مفارقة الإنسان للمألوف يشق على النفس البشرية، فقد وهب الله له ذرية طيبة؛ تعويضاً عما فقدته من الأحبة والأنس؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

من أجل أي شيء كانت هذه الحروب والتنازع؟ إنه من أجل التوحيد؛ لأن أبا إبراهيم وقومه قدموا معبوداتهم وفضلوها على الإله الحق الذي يستحق العبادة والدعاء، وحده لا شريك له.



حوار إبراهيم مع أبيه وقومه

حيث التجأ أبوه إلى قومه ، فتجد إبراهيم عليه السلام ينقل المعركة إلى الكل ، ويخاطب الجميع ، ويطرح أسئلة لعلها تلفت أنظارهم إلى سفاهة عقولهم ، هذا ما جاء في الكتاب الكريم :

قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

أجابه القوم الخاسرون ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء : ٧١] .

أأصناماً ومستمرون عليها؟! أذهل إبراهيم هذا الجواب الأخرق ، فطرح سؤالاً آخر لعلهم يرجعون إلى عقولهم : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ، فعلم القوم أنها لا تسمع ولا تجلب الخير ، ولا تدفع الشر ، وكأنني بالخليل عليه السلام يقول :

إذن لماذا هذه العبادة والخضوع والتذلل؟! فكان جواب الهالكين المخزي : ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء : ٧٤] إذن أنتم لا عقول لكم تقلدون السابقين ، فسبحان الله !

قلت : واليوم يطوفون حول الأضرحة والقبور والقباب بغير عقل كأشياعهم الأولين ؛ تقليداً للآباء ، ويقول بعض السفهاء من الناس : اليوم لا يوجد شرك في الأمة ، ولا حاجة إلى دراسة التوحيد!! أين العقلاء المنصفون لفك هذا الخلط المزعج!!

سؤال ثانٍ يوجهه إبراهيم ﷺ :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ فَالْخَلِيلُ ﷺ غَيْرَ نوعية السؤال ، وسمى الأصنام تماثيل ؛ لعل هذا يحرك عقولهم ، لكنها متبلدة أعماها التقليد ، فكان جواب القوم مرة أخرى : ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء : ٥٣] .

سؤال ثالث يوجهه إبراهيم ﷺ لأبيه وقومه :

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الصافات : ٨٥] .

ففي هذه المرة لم ينتظر إبراهيم جواباً ؛ لأنه عرف أن عقولهم لا تأتي بخير ، فما كان منه إلا أن قال : ﴿أَفَكَا ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الإفك : الكذب ، كأنني به ﷺ يقول لهم : أنتم مجانبون للحقيقة ، تعرفون أن الأصنام والتماثيل ليست بآلهة ، ثم أرشدهم إلى الحق ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات : ٨٧] من باب النصيح لهم وطلب السعادة أن يتعلقوا برب الخلائق كلها ، رب العالمين .

سؤال رابع يطرحه الخليل ﷺ :

قال تعالى : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

قال إبراهيم ﷺ هذا الذي حكاه القرآن الكريم ، حيث أنكر عليهم بشدة : أين عقولكم ؟ تصنعون شيئاً ثم تعبدونه ، والذي يجب أن يعبد هو الصانع الحقيقي ، هو الله تعالى ؟ ! .

القوم يحاجونه ويخوفونه :

بدأ القوم يحاجون الخليل ﷺ ويخوفونه ، فقد أصابهم عمى التلقيد .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله حول هذه الآيات :

قال تعالى : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي : أي فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى ، فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين فإنه هو بنفسه يدعو الناس إلى ما هو عليه .

قال تعالى : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام : ٨٠] فإنها لن تضرنني ، ولن تمنع عني من النفع شيئاً ، قال هذا لما خوفوه من ألهمهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه ، أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع .

قال تعالى : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام : ٨١]

هو يستغرب من انقلاب المفاهيم عند القوم ؛ فآلهمكم لا تخيفني لأنها عاجزة بنفسها فضلاً عن أن تضر الآخرين ، ولكن الغريب أنكم لا تخافون من فعلكم القبيح ، ألا وهو الإشراك بالله الذي أنتم تعرفون عظمته وقدرته .

قال الشيخ السعدي رحمه الله حول الآيات أيضاً :

«قال تعالى : ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ٨١]

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ [الأنعام : ٨٢]

أَيَّ يَخْلُطُوا ﴿إِيْمَانُهُمْ يَظْلِمُ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]
الآمن من المخاوف، والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط
المستقيم.

ولما حكم لإبراهيم ﷺ بما بينَ به من البراهين القاطعة، قال
تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] أي علا
بها عليهم وפלجهم بها.

إبراهيم يدعو إلى الحق المبين:

إن إبراهيم ﷺ لما رأى القوم قد ظهر تماديهم في الباطل، وأنهم
ولّوا مدبرين، قد استحکم حب الآلهة الباطلة في قلوبهم، رأى من
الواجب عليه أن يقول كلمة الحق لعلهم يرجعون، وهذا ما ذكره الله
تعالى في كتابه العزيز عن هذه المسألة؛ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى
ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
[الأنبياء: ٦٧].



المعجزات

الخليل يتحدى النمرود:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

في هذا السياق الكريم يذكر الله تعالى، مناظرة الخليل مع الملك الجبار المتمرد الذي ادعى الربوبية، وقد ذكر المفسرون أن هذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود، فبعد أن أصاب العجز والد إبراهيم وكذلك ظهوره على قومه بالحجة وخذله لهم، نشبت المعركة بينه وبين الملك بهيمته وسلطانه وأخذ يحاج الخليل؛ كما قال تعالى في السياق الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، فأراد الخليل أن يلفت نظر الطاغية إلى حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها، ألا وهي عملية الإيجاد من العدم ثم الإمامة، وعندئذ قال الكافر: هذه عملية سهلة، فكيف تحتاج عليّ يا إبراهيم ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ قال قتادة وغيره: يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإنه يأمر بقتل أحدهما ويعفو عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

ولما كانت دعوى الملك قد تروج على بعض الناس، انتقل الخليل عليه السلام إلى مستوى الحدث ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، فهذه الشمس مطيعة لربها وخالقها

ومسخرها، فهي تطلع من المشرق وتغرب في المغرب كل يوم، وإن زعمت أنك تحيي وتميت، فأت هذه الشمس من المغرب، بل إن معبودكم هذه الشمس هي مذلة لربي رب العالمين، حيث إنه تعالى يأمرها فتأتي وتغير مسارها المعتاد، فبهت الذي كفر، ولم يستطع جواباً، فأقام الله الحجة على لسان خليله، وظهر كذب وادعاء الملك الباطل، وخذل أمام قومه، وبطل طريقه ومسلكه، ولله الحمد.

فائدة وملاحظة مهمة:

أول ذكر للشمس في سورة البقرة آية رقم مائتين وثمان وخمسين، كان على لسان أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ في موضع التحدي والإعجاز. وما كان ذلك منه إلا لكي يلفت نظر قومه لعلهم يرجعون إلى المولى الحق.

تسخير الشمس:

في سبع آيات في القرآن الكريم جاء ذلك؛ قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ أَيْلًا وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

ومعنى مسخرة أي: مذلة، عاملة في طاعة، متحركة، فالشمس مسخرة بالمعنى المعروف للكلمة والمتبادر إلى الذهن من كلمة «سخر».

فكل ما سخره الله في الأرض ونص أنه مسخر فهو يتحرك ويجري (البحر - الفلك - السحاب - الرياح - الطير - البغال والحمير والخيول) والذي يذهل أنه لم يُنسب للأرض تسخير، وإنما جاء التسخير لمن هو فيها وجاء لها الإرساء والتثبيت.

من الذي يدور الشمس أم الأرض؟

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] .

هذا قول ربنا: الشمس تجري، ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] (يأتي)، ويقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] .

إنها تجري نحو مستقر لا نراه نحن، ومن أجل الوصول إليه، حتى إذا ما وصلت إليه استقرت فيه لمدة ثم تعاود جريها بعد ذلك بأمر ربها، فالمستقر يعني الاستقرار في مكان معين فترة زمنية لهدف معين بإذن ربها الذي أجراها، وهو بمثابة الاستراحة في الطريق.

وقيل: مستقرها: هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف ثم غاية انخفاضه في الشتاء، وقيل: إن المراد بمستقرها هو

منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، حيث تسكن.

ماذا تفعل الشمس في مستقرها؟

روى البخاري^(١) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: تدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يؤذن لها، ويقال: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨]

المعجزة الثانية سلامته من النار:

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]

بعد أن انقطع القوم ولم تبق لهم حجة يواجهون بها إبراهيم ﷺ، رجعوا إلى قوتهم المادية وسلطانهم، وأخذوا يفكرون كيف يتخلصون من هذا الفتى الذي عاب وسفه أحلامهم وكسر أصنامهم، فكان أشد شيء في نظرهم إحراقه بالنار؛ كي يكون رماداً تذروه الرياح، فأخذوا يجمعون الحطب من جميع الأماكن كي يكون أشد ضراوة، ووضع ذلك في مكان واحد، وأطلقوا فيه النار، فالتهمت وعلا شأنها جداً، ثم وضعوا إبراهيم في كفة منجنيق وربطوه وكتفوه، وهو يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

أخي، تخيل هذا المنظر الرهيب أمة كاملة تكيد لرجل واحد، فوالد لم يحن قلبه، وقومه الأقربون حانقون عليه، والملك الطاغية مبتهج

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٧٢/٣).

بهذه الفعلة الشنيعة، كل شيء ضده، وهو يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، أي كافينا ومتصرف فينا، يرى ويسمع ما يفعله هذا الجمع الظالم، قالها إبراهيم من قلبه: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فكان النصر من الله أسرع من البرق ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] لأذى إبراهيم بردها. فالحمد لله الذي خذل القوم الكافرين وفرق شملهم، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] وفي آية الصفات ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾.

وهذه العبارة «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها محمد ﷺ كما روى البخاري^(١) عن ابن عباس حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

المعجزة الثالثة إحياء الموتى بإذن الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] إن كل دعوات إبراهيم عليه السلام قد استجيبت، ومنها هذه الحادثة الباهرة، إجابة إلى ما سأل، حيث أمره مولاه أن يحضر أربعة من الطير، ثم أمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بفضه في بعض، ثم يقسم الحصيلة على الجبال من حوله، ففعل ما أمره به ربه، ثم أمره ربه أن يدعوهم بإذن خالقهن، فجعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل

(١) برقم (٤٥٦٣ - ٤٥٦٤).

ريشة كذلك حتى اجتمع البدن الممزق لكل منهن، وهو ينظر إلى قدرة المصور الباري، فالطير بعد اكتمال تصويرها، بإذن ربها، أخذت تسعى (تجري) ولا تطير نحو إبراهيم كي يشاهدها من قرب، بل ذكر أن الرؤوس كانت بيد إبراهيم فأخذ كل بدن يطلب رأسه، بقدرة العزيز الحكيم، فسبحان من إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون!!

قال تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ. ﴿٧٩﴾

ومن المعلوم أن إبراهيم ﷺ يعلم قدرة الباري المصور، ولكنه أحب أن يشاهد ذلك عياناً، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فاستجاب له ربه تكرامة ومكانة.

* * *

قومه يسعون في الكيد له

الصراع بين الحق والباطل قديم قَدَمَ الإنسانية نفسها، وهو من السنن الكونية في هذا الوجود لحكمة بالغة، ففي كل العصور نجده قائماً بين الحق والباطل، فالأنبياء والمرسلون كان لهم خصوم وأعداء من أقوامهم لم يفقهوا دعواتهم المباركة، فناهضوا تلك الدعوات وحاربوها، لكن الأنبياء والرسل عليهم السلام وقفوا في ثبات وقوة أمام تلك الجهالات العمياء مع قلة عددهم وعدتهم، حتى كان النصر المؤزر، وأبو الأنبياء ﷺ كان القدوة في ذلك، وقد حُفِظَ ذلك السجل الحافل في كتاب ربنا على مرّ العصور والأزمان دروساً للأجيال القادمة، ومن ذلك:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

هال القومَ منظرُ الأصنام وهي ثاوية على الأرض بعد ذلك الشموخ، فتساءل القوم: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا﴾.

فإبراهيم حيث رأى أن حبهام لها وتقديسهم لها، قد أبعدهم عن عبادة المعبود الحق، أراد أن يحطمها في نفوسهم أولاً قبل أجرامها،

حيث إنها لعجزها لم تستطع أن تدافع عن نفسها، فإن كانت بهذا العجز فكيف يرجى منها الخير ودفع الضر، فوصفه قومه بأنه ظالم معتدٍ يجب معاقبته، وتذكروا أنه هو الفتى الذي يقال له إبراهيم: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] لاحظ كلمة ﴿يُقَالُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] تحقيراً لشأنه وسخرية منه ﷺ.

ثم وجهوا سؤالاً استفزازياً في باطنه السخرية، ذكره الله في كتابه العزيز ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] أي دعواك هذه أحق هي أم عبث ومخالفة ولعب؟ والذي يؤسف له أن العمى قد أصاب بصائرهم قبل بصرهم، حيث استوى عندهم الحق والباطل، فأرادوا أن ينتقموا منه بأشد وسيلة في نظرهم، وأن يكون ذلك أمام الناس؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

حيث أراد القوم أن يظهروا قوتهم عند الآخرين، فقالوا: لا نعذب إبراهيم إلا أمام الناس لعلهم يشهدون.

إبراهيم ﷺ يغضب لله

إبراهيم ﷺ يغضب لله، ويزداد حنقاً على هذه الأصنام التي هي من الحجارة والخشب، اتخذها قومه وسيلة فأحبوها ودخلت شغاف قلوبهم مودتها؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فحذرهم من ذلك وقال: أنتم ضالون في فعلكم هذا، فالحب يكون لله وفي الله، ثم بين لهم أنها

أصنام وتماثيل ، لا تستحق كل هذه الهالة ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ، ثم بين عداوته لها بقوله : ﴿فَأَنبَأَهُمُ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] ثم عزم على تحطيمها بإجرامها كي تكون عبرة للمعتبر ، حيث إنها لا تدافع عن نفسها فضلاً عن أن تجلب الخير للآخرين ؛ قال تعالى : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] وقال تعالى : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣] وقال تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] . ثم إن الخليل من شدة غضبه قال ما ذكره الله تعالى : ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وهي من أقل التراكيب وأقواها ، وأخيراً قال كلمة مدوية : إن دعوكم أن هذه الأصنام آلهة من دون الله هو كذب وافتراء على الله ؛ قال تعالى : ﴿أَيْفَاكَآءِ إِلَهَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصفات: ٨٦] .

يتساءل المرء : لماذا عاب إبراهيم هذه الأصنام وحطمها وأبغضها؟ والإجابة أنه ﷺ عابها ؛ لأن القوم جعلوها آلهة من دون الله فأحبوها وقدسوها وقدموا لها القرابين ، ولجأوا إليها في الشدائد لدفع الضر ، ودعواهم لجلب النفع ، وقدموا لها النذور ، وطافوا حولها كما يطاف حول البيت العتيق ، والذي ينظر اليوم في حال بلاد الإسلام يجد من يطوف حول القبور والأضرحة ويوقد عليها السرج تعظيماً لشأنها ، بل يطلبون الولد والوظيفة ، ويقول بعض السفهاء : ليس في الأمة اليوم شيء من الشرك !

الفرار بالدين فهو أغلى ما يُملَك

إن إبراهيم هجر قومه في الله، وتركهم لما كانوا معاندين مصرين على عبادة الأصنام، فاتجه إلى الشام لعله يجد بيئة صالحة ينشر فيها دعوته، لكنه وجد أقواماً يعبدون الكواكب والنجوم بالإضافة إلى عبادة الأصنام، فدعاهم إبراهيم وجادلهم بحكمته المعهودة، وبين لهم فساد عقيدتهم، ولكنهم كانوا قوماً يجهلون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩] قال القرطبي: هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم ﷺ، وذلك حين خلصه الله من النار، أي فهاجر من بلد قومه ومولده إلى حيث يتمكن من عبادة ربه.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ثم إنه من شدة خوفه على ذريته أبعدهم عن ديار الشرك وأهله شفقة عليهم.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومن خلال النصوص السابقة يظهر المنهج الذي سار عليه الخليل، وأنه يكون واجباً أحياناً أن نبحث عن موطن ننشر فيه الدعوة

إلى الله ويقوى عودها، ويجتمع حولها الأعوان والأنصار، فإنه من السنن الماضية.

إن التوحيد الذي يمثله إبراهيم لا يمكن أن يتعايش مع الشرك وعبادة الأصنام والكواكب، بل الفرار بالذرية إلى مواطن الأمن من عذاب الله وديار الشرك ظاهر جلي في سيرة الخليل عليه السلام وهذا واضح أيضاً في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، حين عرض دعوته على قومه فكان من أكثرهم الصد والإعراض، بل آذوه هو وأصحابه، فأمر بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بالدين الغالي، وأشار على آخرين بالهجرة إلى المدينة للقصد ذاته، حتى كان نصر الله لدينه.



البيت العتيق

إن من أعظم الأعمال التي قام بها الخليل ﷺ بعد التوحيد هي العناية بالبيت العتيق وتطهيره من الشرك، تشعر ذلك من دعاء الخليل ﷺ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] .

ذلك البيت الذي جعله الله قبلة للمسلمين، وأودع في قلوب الناس من تعظيمه وإجلاله الشيء الكثير، ولقد أراده الله تعالى مثابة يثوب إليها الناس جميعاً (أي يرجعون) فلا يروعونهم أحد بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم في الأرض قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] .

وقد أخبرنا تعالى في كتابه العزيز كيف هيأ لل خليل ﷺ مكان البيت وأنه أول بيت وضع للناس في الأرض وأمره أن يقيم بناءه وأن يجعله معلماً واضحاً يقصده الناس ويأمنون بجواره قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] .

وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [٩٦] فيه ءَايَتٌ ﴿آل عمران: ٩٦ - ٩٧﴾ .

ثم إن الله تعالى كلف الخليل ﷺ بأمرين:

الأول: دعوة الناس لحج هذا البيت العتيق قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] .

الثاني: أمره أن يهبي هذا البيت لاستقبال تلك الأفئدة المشتاقة:

قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

كذلك بين تعالى في كتابه ما خص به إبراهيم البيت العتيق وأهله من الدعوات المباركة قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا آفَئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم ٣٧].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فكان كذلك والحمد لله.

وقد روى البخاري وغيره^(١): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال أربعون سنة...» الحديث.

وجاء في البخاري أيضاً من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف مجيء الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لزيارة إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا طرف منه: قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني؟ قال وأعينك قال فإن الله أمرني أن أبني بيتاً هاهنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه

(١) رواه البخاري (٣٣٦٦) كتاب الأنبياء.

له، فقام عليه وهو بيني وإسماعيل يناوله، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] «^(١).

* * *

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤) كتاب الأنبياء أيضاً.

الولاء والبراء

إن أصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنصرة والمعاونة والمحاربة ونحو ذلك، فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله.

فالولاء في اللغة: (الولاية) بالفتح والكسر النصره و«استولى عليه غلبَ عليه وتمكن منه»^(١).

الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصره والمحبة والاحترام.

تعريف البراء في اللغة: برئ إذا تخلص وبرئ إذ تنزه وتباعد وبرئ إذ أعذر وأنذر.

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والانداز^(٢).

كان نبي الله إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة وقدوة طيبة في ولاءه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين براءته ومعاداته لأعداء الله، وكان عليه السلام ومن معه على هذا المنهج ألا وهو البراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا

(١) المصباح المنير (٢/ ٦٧٢).

(٢) تهذيب لسان العرب لابن منظور.

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴿٤﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في القول المفيد على كتاب التوحيد^(١) ﴿براء﴾ على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ وهو التخلي أي أنني متخل غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرني.

قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ العبادة هنا التذلل والخضوع؛ لأن في قومه من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٧] جمع بين النفي والإثبات فالنفي «براءة مما تعبدون» والإثبات «إلا الذي فطرني فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله تعالى والإيمان بالله وحده» اهـ.

وهذا إمام الحنفاء قال لقومه أيضاً، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧] فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد العثيمين (١/١٤٥).

إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ ﴿١﴾ [المُمْتَحَنَةُ: ١] إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الثَّور: ٥٠] .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] .

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨] .

قال تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

فنفي سبحانه وتعالى الإيمان عمن هذا شأنه ولو كانت مودته ومحبته ومناصحته لأبيه واضحة وابنه فضلاً عن غيرهم .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هُود: ١١٣] .
قال ابن عباس ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ قال: لا تميلوا وقال عكرمة أن تطيعوهم أو تودوهم أو تصطنعوهم، ومعنى تصطنعوهم أي تولوهم الأعمال . كمن يولي الفساق والفجار، وقال الثوري: ومن لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً أو ناولهم قرطاساً دخل في هذا .

وقال العلماء أيضاً: «فالنهي متناول للانحطاط في هوتهم،

والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضى بأعمالهم والتشبه بهم والتزّي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، والتماس الاعذار لهم عند مخالفتهم الشرع، وهناك صور كثيرة جداً منهي عنها قد بسطها أهل العلم رحمهم الله، ذكرتُ هنا بعضها محذراً المسلمين من الوقوع فيها تحت دعوى الأخوة الإنسانية والانفتاح والتقدم وما إلى ذلك.

إذن فلا يكفي أن يكون المسلم موحداً مبتعداً عن الشرك بل لابد أن يتبرأ من أهل الشرك ويفاصلهم.

ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(١).

عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٢).

روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»^(٣).

ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر»^(٤).

(١) رواه مسلم كتاب البر (١٩٨٨/٤).

(٢) رواه أحمد (٢٨٦/٤) بسند حسن.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦٩/١) وقال الألباني: حديث حسن، انظر صحيح الجامع (٣٤٣/٢).

(٤) رواه أحمد (٣٥٧/٤ - ٣٥٨).

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] والآية بعدها.

إن رجالاً من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن بطانتهم لخوف الفتنة عليهم^(١).

وروي أن أبا موسى الأشعري مر على عمر رضي الله عنه بحساب فدفعه إلى عمر فأعجبه فقال لأبي موسى أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال إنه لا يدخل المسجد، فقال له أجنب هو؟ قال: إنه نصراني قال فانتهره وقال: لا تدنهم وقد أقصاهم الله ولا تكرمهم وقد أهانهم الله ولا تأمنهم وقد خونهم الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس للقلوب سرور ولا لذة تامه إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة (لا إله إلا الله) وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»^(٢).

ومن هنا كانت (لا إله إلا الله) ولاء وبراء، نفيًا وإثباتًا ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين.

(١) انظر الجامع الفريد رسائل أئمة الدعوة (ص ٣٣٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٢/٢٨) جمع عبد الرحمن ابن قاسم.

وبراء من كل طاغوت عُبدَ من دون الله .

قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً^(١):

الحب في الله والبغض في الله أصل عظيم من أصول الإيمان يجب على العبد مراعاته ولهذا جاء في الحديث «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» ولذلك أكثر الله من ذكره في القرآن، قال تعالى : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ [آل عمران: ٢٨] قال بعض المفسرين: نُهوا أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يُتصادق بها ويُتعاشر. قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ من دون المؤمنين يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكفار فلا يؤثرهم عليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي ومن يتول الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيتان» اهـ.

(١) انظر: الجامع الفريد/ رسائل أئمة الدعوة/ الرسالة الأولى (أوثق عرى الإيمان) (ص ٣٦٢).

ابتلاءات

عندما يمر الإنسان بمواقف الابتلاء تظهر شخصيته ومعدنه الأصلي، وهذه ثلاثة مواقع تكشف ذلك الجانب الشخصي الاجتماعي للخليل ﷺ، أحببت أن أفرداها مستقلة من أجل الاستفادة منها.

الموقف الأول

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «أَيُّ أَمْرِهِ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالْإِسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعاً وَقَدَرًا.

﴿وَوَصَّى﴾ [البقرة: ١٣٢] أَي وَصَى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ، وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

قلت: وهكذا يكون الآباء والأمهات الموفقون والموفقات في الحرص على الذرية والنصح لها وتربيتها تربية ربانية خالصة.

الموقف الثاني

جاء إبراهيم ﷺ بِأَمِّ إِسْمَاعِيلَ وَوَلَدَهَا حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ أَحَدٍ، وَوَضَعَ عِنْدَهَا تَمْرًا، وَسَقَاءَ فِيهِ مَاءً، ثُمَّ انْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ رَاجِعًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا

إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الخالي؟! لكنه لم يلتفت إليها حتى قالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت المؤمنة الواثقة بالله: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت. أين هذا من نساء اليوم حيث الاعتماد على الماديات الظاهرة؟!

وعندما وصل الخليل إلى الثنية حيث لا يراه إلا مولاه، تدفق الحنان في قلب الرجل الكبير كالسيل، فاستقبل بوجهه البيت العتيق، وشكا حاجته وفقره إلى ربه ودعاه أن يهبئ لهذه الذرية من يساعدها على رزقها ويجلب لها الأنس، وقد كان ذلك بفضلته تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الموقف الثالث

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠١].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما وصلت المفارقة بينه وبين قومه، سأل ربه أن يعطيه ولداً صالحاً يؤنس وحشته في ذلك المهجر، وخاصة أنه رجل كبير السن، فكانت الهبة الربانية العظيمة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] قال مجاهد: أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، فلما كان هذا رأى إبراهيم ﷺ في المنام أنه يؤمر بذبح ابنه وهو بكره ووحيد، فأجاب

ربه وامثل أمره، وسعى في التنفيذ.

ثم عرض الخليل عليه السلام الأمر على الولد البار تطيباً لخطره، ولم يشأ إبراهيم أن يكون الأمر قهراً وقسراً، ﴿قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فالخليل عليه السلام أخذ رأي الغلام وهو بين أمرين عظيمين: الأول الرغبة من إبراهيم في طاعة الله فيما أمر، والآخر الحنان الأبوي على هذا الغلام الذي لا يمكن أن تصفه الأقلام ولا تتحملة الجبال الرواسي، لكن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فكان جواب الغلام: ﴿يَتَأَبَّتْ أَعْلَمَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وكان جواب الغلام يلهب المشاعر والأحاسيس ﴿يَتَأَبَّتْ﴾ ينادي أباه بذلك الرباط، ويطلب منه أن يفعل ولا يتردد، ثم بشر والده أنه سوف يكون صبوراً بإذن الله، حقاً ربي قولك: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] قيل: أسلما أي استسلما لأمر الله، وعزما على ذلك، فعند ذلك نُودي ﴿أَن يَتَابَرَهِيْمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك لتنفيذ أمر ربك.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦] أي الاختبار الواضح البين، ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] أي جعلناه فداء ذبح ولده، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين رآه مربوطاً بجواره.



أدعية إبراهيم الخليل عليه السلام

الدعاء الأول والثاني :

قال تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] .

التعليق : الخليل يطلب من ربه أمرين .

أن تكون مكة آمنة - وقد كان والحمد لله - وأن يهيئ لهم العيشة الطيبة ، وحينما طلب من ربه تعالى الرزق من الثمرات لذريته لم يكن حصول الرزق لهم مقصوداً بذاته في نظره ، بل أن يكون ذلك الرزق عوناً لهم على أداء العبادات وإقامة الطاعات . وقيل : المقصود توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة هذا ما ذكره أهل العلم والله أعلم .

وأما قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] فقد بين أهل التفسير رحمهم الله فروقاً بين الدعاءين ومن تلك الفروق :

١- أن الدعاء المذكور في سورة البقرة كان قبل بناء الكعبة ، والدعاء الموجود في سورة إبراهيم عليه السلام وقع مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به .

٢- أن المدعو به في سورة البقرة البلدة مع الأمن ، أي : اجعل هذا المكان القفر بلداً آمناً .

والمدعو به في سورة إبراهيم عليه السلام هو الأمن فقط ؛ رغبة في استمراره ؛ لأنه المقصد الأصلي .

٣- ما ورد في سورة إبراهيم عليه السلام ليس فيه إلا دعاء الأمن لا طلب المبالغة منه ، وأما ما جاء في سورة البقرة ففيه طلب المبالغة من الأمن .

قال الرازي : (والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات ، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به .

هذا ، وقد استجاب الله تعالى دعوة خليفه عليه السلام هذه ؛ قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧] .

الدعاء الثالث :

﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

أي اجعل عملنا مقبولا عندك ولا ترده.

روى ابن كثير عن وهيب بن الورد أنه كان يقرأ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية ثم يبكي ويقول : «يا خليل ، ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك» .

أقول الله المستعان : كيف حالنا اليوم؟ إن الخوف ، واجب نسأل الله العافية قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] لماذا لأنه لم يكن خالصاً لوجه الله الكريم ، بعض الناس يعمل باسم الدين من أجل الناس وهذا فيه مقت وعمله مردود .

الدعاء الرابع والخامس والسادس والسابع :

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] .

أ - أي اجعلنا مؤمنين عاملين مخلصين .

ب - وأن تكون ذريتنا كذلك مؤمنة مخلصه كي تقرر عيوننا .

ج - أرنا مناسكنا، أي جميع ما يُتَوَصَّلُ به إليك من العبادات اجعلها واضحة في أبصارنا وبصائرنا .

د - وتب علينا، إبراهيم وابنه رسل وأنبياء معصومون من الخطايا، فكان الدعاء منصرفاً إلى الذرية، والله أعلم .

الدعاء الثامن :

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

ابعث أي أرسل في الأمة المسلمة رسلاً منهم يعرفون نسبهم، يدلونهم على الخير الذي في هذه الشريعة، من تعليم للكتاب العظيم والسنة المطهرة، واجعل في ذلك تطهيراً لأنفسهم من الشرك؛ قال القرطبي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] يطهرهم من مرض الشرك .

الدعاء التاسع :

﴿وَأَجِئْبَنِي وَبَيِّنْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

إمام الحنفاء يدعو الله أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، مع ما بلغ من

الإمامة ورغم صلاح أبنائه، حيث رأى سفاهة عقول قومه، وتعلقهم بالأصنام، فطلب من مولاه أن يحميه وذريته من تلك الآفات؛ قال الشيخ إبراهيم التيمي: «من يأمن البلاء بعد الخليل ﷺ حين قال ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟!» [إبراهيم: ٣٥] أي: كما عبدها أبي وقومي، قلت: فهو لم يفكر في المأكل والمسكن وإن كانا من ضروريات الحياة، إنما فكر فيما تكون خسارته خسارة الحياة كلها، خاف من فقدان الجنة ونعيمها الدائم بسبب الشرك؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]

الدعاء العاشر:

قال تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، قال ابن عباس: «ولو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والهند والترك واليهود، ولكن قال ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون. وقال في التيسير: «فاجعل قلوباً خيرة تميل إليهم ميل محبة وشوق».

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] بأن تسخر من عبادك من يجلبها لهم من كل ناحية، وقد كان كذلك بفضل الله تعالى.

الدعاء الحادي عشر:

قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ

دُعَاءُ ﴿[إبراهيم: ٤٠]﴾ أي من الثابتين على الصلاة، وذلك أن الصلاة هي شعار الإسلام الظاهر الذي يميز به بين الإيمان والكفر، وكذلك خص ذريته أن يكونوا مقيمي الصلاة، ثم يتضرع إلى مولاه أن يتقبل منه؛ فإن في الصلاة مظنة الإجابة.

الدعاء الثاني عشر:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١]

الخليل ﷺ طلب المغفرة لنفسه ولوالديه وللمؤمنين؛ إشفافاً على المطلوب لهم أن ينالهم ذل العذاب، قلب كبير عامر بالمحبة والشفقة، ولذلك تدفقت وظهرت في هذا الدعاء الشامل.

قال الشيخ محمد الداودي في كتاب دعوات الأنبياء:

«إن كان المراد بوالديه آدم وحواء فقد كفينا إطالة الحديث، وإن كان المراد أبويه على الحقيقة، فلم نعلم عن أمه إيماناً ولا كفراً، وأما أبوه فمقطوع بكفره، ومن هنا طلب إبراهيم المغفرة له مع اعترافه بضلاله ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّ لَإِيٍّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، ثم لم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا براً بوعده ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] ثم كانت الخاتمة ﴿وَمَا كَأَنَّ اسْتَغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

الدعاء الثالث عشر:

﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

لم يكن إبراهيم شاكاً في أن الله يحيى ويميت؛ بدليل قوله

للمرود: ﴿رَبِّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، ولكن أراد أن يعلم شيئاً جديداً يكون أمام عينه .

فمعنى قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي ليزداد سكوناً وطمأنينة .

الدعاء الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع عشر:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِِّّ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣] أي امنحني العلم الموصل إليك وميزانا أقيس به المعارف .

﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أي يوفقه الله لعمل يكون فيه من الصالحين .

﴿وَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: ٨٤] أن تكون لي مكانة خير في الأجيال المتأخرة .

﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥] دعاء أن يكون من أهلها .

﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِِّّ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] سأل المغفرة لأبيه؛ طمعاً منه في فضل الله مع اعترافه بضلال أبيه .

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بتعذيب أبي أمام تلك الخلائق أجمعين .

الدعاء العشرون:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصَّافَات: ١٠٠] أي هب لي بعض الصالحين، وأراد الولد الذي يحمل هم الدعوة، خاصة أنه كان قد كبرت سنه والقوم أخرجوه من ديارهم، فاستجاب الله دعاءه وبشره بأن يكون له ولد كثير الحلم، وهو إسماعيل ﷺ، وأي حلم بعد قوله: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصَّافَات: ١٠٢].



الهبات التي حصل عليها والمكافآت من ربه

إبراهيم عليه السلام دعا إلى التوحيد الذي وجده مفقوداً عند قومه، وجادل ونصح، وتحمل من أجل ذلك مشاق كبيرة، مرّ ذكر بعضها في سطور هذه الرسالة، ومن ذلك هجرته وتركه الأوطان حيث اتجه إلى الشام ثم الحجاز والعراق، يسير ويتنقل من أجل الله وفي الله، وبعد تلك الرحلات دعا ربه أن يرزقه ذرية طيبة تقرر عينه بها بعد هذا العمر الطويل، وقد استجاب له ربه في كل دعواته ومنها هذه.

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فنلاحظ أن إبراهيم عليه السلام بعد أن فارق أعز الناس - وهو الوالد - قد أبدله الله من ذلك خيراً بأن جعله أباً لأشرف الخلق وهم الأنبياء والرسل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذا، وقد جعل الله تعالى في ذرية خليله عليه السلام النبوة والكتاب؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «فَلَمْ يَأْتْ بَعْدَهُ نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَلَا نَزَلَ كِتَابٌ إِلَّا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ حَتَّى خَتَمُوا بِابْنِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَفَاخِرِ أَنْ تَكُونَ مُرَادَ الْهَدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ». كَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].



مواقف تربوية في حياة الخليل ﷺ

الموقف الأول

طلبه الذرية الصالحة

التي تحمل همّ هذا الدين إلى يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿[الصافات: ١٠٠ - ١٠١].

وقال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

إنه ﷺ طلب من ربه ﷻ عند هجرته من موطنه وقومه، أولاداً صالحين يعينونه على الدعوة والطاعة ويؤنسونه في الغربة قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿.

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يريد الولد، لأن لفظ الهبة غلب في الولد،

ووصف بأنه من الصالحين؛ لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً، فإن صلاح الأبناء قرة عين الوالدين. ولا خير في الأولاد إن لم يكونوا صالحين، فربما كان الولد مصدر شقاء وهمّ وحزن، نسأل الله من فضله العظيم، صلاحاً في النية والذرية.



الموقف الثاني الخوف من الشرك

نجد في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام أنه سأل ربه تعالى أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].
﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: أي اجعلني وإياهم جانباً بعيداً من عبادتها والإلمام بها؛ فما أشد خوف خليل الرحمن على نفسه وعلى أولاده من الوقوع في عبادة الأصنام لأن ذلك شرك بالله العظيم، مخرج من الملة، وله صور خبيثة: كالذبح، والنذر، والخوف، والتعلق بالأشجار والأحجار والشياطين، فخاف الخليل عليه السلام، وهو من هو في الإمامة وصلاح أبنائه.

قال القرطبي رحمه الله تعالى «ما أروع ما قاله الشيخ إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى: من يأمن البلاء بعد الخليل عليه السلام حين يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ كما عبدها قومه قال تعالى محذراً من الشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾».

وقال ابن كثير في تفسيره: «ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه وذريته»

قلت: وما أكثر صور الشرك اليوم التي تغافل عنها أولياء الأمور، ومنها تعليق التمايم والودع والذهاب إلى العرافين بل والذبح والنذر لغير الله وفي بعض الممارسات التي تؤدي إلى الخروج من الملة عياداً بالله العظيم» .



الموقف الثالث

أهمية الصلاة في منهج الخليل عليه السلام

ومما نجده في سيرة الخليل عليه السلام، أنه كان شديد الاهتمام بأن تكون ذريته من مقيمي الصلاة. إنه أسكن تلك الذرية المباركة عند البيت العتيق قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

إنه عليه السلام دعا ربه عز وجل أن يجعله ومن ذريته مقيمين للصلاة. وقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها» ابن كثير (٢/ ٢٩٥).

قلت: ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام أن الخليل عليه السلام، دعا مولاه واتخذ الأسباب. وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم أمر بأمر أهله بالصلاة قال عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وعلى هذا المنهج وجه الرسول صلى الله عليه وسلم الأمة إلى أهمية الصلاة فقال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) فعلى الآباء والأمهات، ومن له ولاية على

(١) (د/ ٤٩٥) وأخرجه أحمد (٢/ ١٨٧٥١٨٠).

صغير الاهتمام بهذا الجانب ، وأن يكون إبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم قدوة ومثالاً يحتذى ، فإن التربية عليها في الصغر يكون ذا فعالية عند البلوغ والكبر ، حيث تعظم في نفسه من اهتمام الأهل بها فالصغار يلحظون كثيراً ويفعلون ما نفعله تقليداً وهذا مُشاهد في الأسر التي تحافظ على الصلوات ، إنهم يحاكون .

فدعونا ننبث تلك البذرة الطيبة « الصلاة » في تلك القلوب الطاهرة الزكية إنها التربية الصالحة .



الموقف الرابع غبطة الخليل ﷺ بهذه الملة

نجد في سيرته ﷺ أنه دعا ربه ﷻ أن يجعله وذريته أمة مسلمة منقادة لله تعالى، نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره «ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه، المتضمن لانقياد الجوارح» قلت قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فهو المرضي عند رب العالمين، فمن الواجب توطئ أنفسنا وذريتنا على الانقياد والسمع والطاعة والفخر والاعتزاز به فما أعظمه من دعاء إن الإسلام نعمة جليلة القدر، قد امتن الله تعالى بها على الناس قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].



الموقف الخامس

الخليل عليه السلام يدعو الله أن يكون معلمهم منهم

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

يرجو أن تتزكى هذه الذرية وأن يكون منهم من يتعلم كتاب ربها كي ينفع الآخرين.

قال الشيخ السعدي رحمته الله في تفسير ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ لفظاً وحفظاً وتحقيقاً، وقال القرطبي رحمه الله تعالى «الحكمة» المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، قال قتادة رحمه الله تعالى: «الحكمة» السنة وبيان الشرائع.

«ويزكيهم قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (ويزكيهم) بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبرؤ من الأعمال الرديئة التي لا تتركو النفس معها».

وانظر إلى لطيفه ذكرها جمع من العلماء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ إن هذا الدعاء، يدل على النضج والكمال الذي وصلت إليه هذه الذرية المباركة وأنهم أهل لحمل رسالة ربهم تعالى وتكاليفه، وفي ذلك رفعة لشأنهم وعزتهم، وكونه منهم يكون أشفق عليهم وأرحم بهم.

قال تعالى: ﴿بَعَثْ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿التوبة: ١٢٨﴾.

وفي ذلك من الدروس أن يكون الخير الذي في أيدي الدعاة والمصلحين ألا يتعدى ذرايعهم وأهلهم قال ﷺ: «الأقربون أولى بالمعروف».

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].



الموقف السادس

وصية الخليل ﷺ لذريته

ومما يستفيده المرء من أنه ﷺ وصاهم بالثبات على الدين حتى الممات قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قلت: ومن المعلوم وعُرف في الطبع أنه لا تكون الوصية إلا بشيء ذي قيمة وله أثر في سلوك الفرد الموصى كي يزداد حرصه واهتمامه، وأي شيء أهم من الدين والملة؟، لذلك أطلقها الخليل ﷺ كي تدوي في الآفاق، (أُذُن وعِلينا البلاغ) فاستفاد منها أهل الغبراء قديماً وحديثاً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.



الموقف السابع أهمية البيئة الصالحة

إبراهيم عليه السلام اهتم باختيار البيئة الصالحة لتلك الذرية المباركة ، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

فهو عليه السلام يهوى المكان الصالح لتلك البذرة الصالحة ، فلا يسكنهم في مكان يكثر فيه الفساد ، بل بحث عن مكان يظهر فيه الخير وتفوز الفضيلة ، فلا يرون إلا خيراً ولا يسمعون إلا خيراً وهو بذلك يخط خطاً في مراعاة الأمور الدينية قبل الدنيوية ، ولكن بعض الناس لا يحفل بهذا المنهج الرباني ، ويعتمد على الوسائل المادية ، وقلما ينجو من السقوط في برائن المنكرات والفواحش بسبب تلك البيئات الفاسدة التي يرتع فيها المفسدون ، ويجدون بغيتهم ، فالناصح لنفسه وذريته يجب عليه الحرص على الأماكن الفاضلة كي تنمو الذرية بجو من الفضيلة ، فالعجب ممن يسكن أسرته في بعض الأماكن المشبوهة التي تحوم حولها الرذيلة ، ويتمنى النجاة والصلاح !!



الموقف الثامن

أكل الحلال ودوره البارز

على عِظَم منزلة إبراهيم ﷺ نلاحظ اهتمامه بالأُمور المعيشية التي تعين النشء على الكرامة والعفة، فها هو يدعو لهم قال تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قال العلامة الشوكاني، رحمه الله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أرزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك أو هم ومن يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه أو تُجَلَب إليه).

وفي قوله تعالى: ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ تعريف الاستغراق، أي جميع الثمرات، المعروفة، فهو يدعو لهم بالرفاهية التي تجعلهم يلتصقون بهذه الأرض المباركة مكة وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

- يقول الفخر الرازي ذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات وكذلك نلاحظ اهتمام الخليل ﷺ بالدعاء لابنه وأهله بالبركة فيما رزقوا.

- فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى: عن ابن عباس^(١) رضي الله عنهما قال في رواية طويلة - إن إبراهيم ﷺ جاء إلى بيت إسماعيل ﷺ بمكة. ولم يكن ابنه موجوداً، سأل زوجه عن عيشتهم وهيئتهم وكان مما سأل أن قال: «ما طعامكم؟» قالت: اللحم، قال:

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء: (٦٠ / ٣٩٧ / ٣٣٦٤).

فما شرابكم؟ قالت: (الماء)، قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء»،
وجاء في رواية أخرى أنَّ إبراهيم عليه السلام قال: «اللهم بارك لهم في طعامهم
وشرابهم»^(١).



(١) البخاري، كتاب الأنبياء: (٦٠ / ٣٩٧ / ٣٣٦٤).

المحور التاسع

الأمن ودوره في الحياة

نجد في سيرة إبراهيم الخليل ﷺ اهتمامه بالأمن، قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

بين الشوكاني رحمه الله تعالى حكمة الابتداء بطلب الأمن، بقوله: «وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا»^(١).

هذا وقد استجاب الله تعالى دعوة خليله ﷺ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ويتجلى هذا كذلك في قول الرسول ﷺ «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»، (ت ٢٤٤٩).

فعلى الوالدين الاهتمام بهذا الجانب، وخاصة في حماية الأسرة والأولاد من الخلافات بين الزوجين أمام الأولاد مما يؤثر على سلوكياتهم ويجعلهم ينجحون إلى الهروب من تلك المنازعات، ويصيبهم الخوف والهلع، وفي حالات يقعون بأيدي فاسدة تزيد في بعدهم عن جادة الصواب.

فحل الخلافات في حجرات مغلقة أحسن وأفضل وأسلم. لكي

(١) فتح القدير (٣/ ١٦٠).

يحصل الأمن والاطمئنان، فأحياناً الصغار لا يقدرّون الأمور التقدير الصحيح، فيصيب أنفسهم خدش، وما يخفونه أعظم مما يظهر فيما بعد على شكل سلوكيات عدوانية ضد كل شيء بل أحياناً متمردة يصعب على الوالدين توجيهها إلى الصواب.



الموقف العاشر

الخليل ﷺ يسن قانونا للبشرية في أهمية المشاورة

إنه لما أراد بناء الكعبة المشرفة أشرك معه ابنه إسماعيل ﷺ في ذلك البناء .

فقد روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ عَنْ ابن عباس رضي الله عنهما . في حديث طويل ثم لبث «أي إبراهيم ﷺ عنهم ما شاء الله تعالى : «أي عن إسماعيل ﷺ وزوجه» ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل ﷺ يبكي نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك» قال : «وتعينني» قال : (وأعينك) ^(١) .

قال : «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت - فجعل إسماعيل ﷺ يأتي بالحجارة ، وإبراهيم ﷺ يبني» . حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل ﷺ يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، قال : فجعلوا بينان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» ^(٢) .

(١) البخاري . كتاب الأنبياء . (٣٣٦٤) .

(٢) البخاري ، كتاب الأنبياء ٣٣٦٤ ، ٦ / ٣٩٧ : ٣٩٨

قلت: فما أجمل هذا المنظر الابن الثمرة يساعد الوالد في بناء البيت العتيق تقرباً لله تعالى .

فهل نحن دعونا أولادنا وأشر كناهم في مثل هذه الأعمال الفاضلة كي تتهذب أخلاقهم وسلوكياتهم عملاً وليس قولاً .

وكذلك قال تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] .

قال الحافظ ابن الجوزي «لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله تعالى لكن أراد أن ينتظر ما عنده من الرأي»^(١) .

«فحب الولد لم يمنع الخليل ﷺ من طاعة الله تعالى ، وخاصة عندما نضج الغلام وهو أحب ما يكون عند الوالد عادة» .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ .

«أي أدرك أن يسعى معه وبلغ سناً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه ، قد ذهبت مشقته ، وأقبلت منفعته» .

ورغم ذلك كله كان دور الخليل ﷺ الاستسلام الكامل لأمر مولاه وَعَلَيْكَ بِمَا تَأْوِيلُ وَلَا تَرَدُّدَ، وجاء بيان ذلك في قول الحق تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] ، قال أهل التفسير : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله ، أو سلماً الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه . ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شِقِّهِ فوق جبينه على الأرض .

(١) زاد المسير (٥٧/٧) .

قلت : «الله أكبر، موقف ما أشده وأصعبه على النفس، لكن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وإذا بالفرج يكون أسرع من البرق: ﴿أَنْ يَتَابَرَهُمْ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، فالتفت إبراهيم عليه السلام فإذا هو بكبش أبيض أعين كما روى في عدد من الآثار».



الموقف الحادي عشر المحبة ونشر الدعوة

الخليل عليه السلام يدعو الله أن تكون ذريته محبوبة لدى الناس قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره ﴿تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ تَحَنُّنٌ إِلَيْهِمْ وقال قتادة تنزع إليهم، وقال الفراء «تريدهم». (٤ / ٣٦٧).

وقد علم الخليل عليه السلام أنه لا تكون المحبة في قلوب الخلق لهم إلا بطاعة الله تعالى، حين تجلب تلك المحبة قلوب الخلائق وتربطها بتلك الشخص الطائعة التي تمشي على الأرض كما في حديث جبريل عليه السلام المعروف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١).

وهنا عبر لا يمكن أن تصورها المشاعر والأقلام من خوف سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام أن تكون ذريته مكروهة في الأرض مفسدة مؤذية للخلق. ومع الأسف أن بعض الناس لا يعير ذلك اهتماماً، بل العناية بالمأكل والمشرب، ومطالب الدنيا غايته السامية ومبلغ علمه، فضعف الجانب التربوي، وضاعت الغاية من الخلق عند كثير من الناس إلا من رحم ربك، فنسأل الله لنا ولكم ذرية طيبة.

(١) متفق عليه.

أدب الابن مع أبيه

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، مالا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت، أنا عالم وأنت جاهل»، أو ليس عندك من العلم شيء؟، وإنما أتى بصيغة أن عندي وعندك علماً، وإن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها».

قلت: أسلوب غاية في الأدب والاحترام لمكانة الأبوة، فياليت بعض شبابنا اليوم يعتني بهذا الأسلوب في دعوته لأقرب الناس إليه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]: «أي إن مت على ما أنت عليه، ويكون «أخاف» بمعنى أعلم، ويجوز أن يكون «أخاف» على بابها؛ فيكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥] أي قريناً في النار».

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فتدرج الخليل ﷺ بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن اتبعتني أهدك إلى الصراط المستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره

بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، فأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦] فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم على رغبته عنها، وهذا من الجهل اهـ.



ومما يستفاد من المواقف السابقة

- ١- تقديم أمر الله تعالى ومحبته على كل أمر، كان ذلك عند الخليل ﷺ والابن ﷺ على حد سواء.
- ٢- الرضى بما قسم الله تعالى في الأمور كلها مع ظاهر مشقتها.
- ٣- الهمة العالية عند الخليل ﷺ والعزيمة في الأمر.
- ٤- التربية العالية المثالية لإبراهيم الخليل ﷺ.
- ٥- المشاورة ودورها في إيضاح الصورة وانجلاء الغامض منها؛ كي يكون القرار صواباً، وهذا خلاف ماعليه بعض الآباء فإنهم لا يعرفون إلا إصدار الأوامر وإلقاء التعليمات مما يجعل الأبناء في حيرة من أمرهم فيصدر منهم ما لا تُحمد عقباه فيقع في بعض المخالفات مرة أخرى.



الجبار ينتصر لخليله ﷺ

يذكر الله تعالى السوء الذي أجمع عليه الخاسرون ويبين تدابيرهم
المخزية :

قال تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾
[الأنبياء : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٩٧]
وبعد قولهم ﴿قَالُوا﴾ [البقرة : ١١] جاءت الكلمة العليا ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي
بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ، إنهم أجمعوا على تلك الأفعال
لإظهار حبهم لها مع أنهم يرونها محطمة جذاذاً أمام أعينهم ، فهي لم تدفع
عن نفسها الضر الذي طرحها أرضاً ، عجباً ! ما هذا التعلق ؟ إنه التقليد للآباء
والأجداد في تقديس هذه المعبودات ، واليوم نجد هذا العمى قد أصاب
عقول من يطوف حول الأضرحة والمقامات ، ويطلب منها السعادات ،
وبعضهم من حملة الشهادات .

قال تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿تَعِبُوا الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

الوصية باتباع الخليل ﷺ

أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يتبع أباه إبراهيم ﷺ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].
وذلك لحسن صنع ذلك الأب القانت القدوة المائل عن الشرك
الشاكر المجتبي الصالح في الدارين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٠] شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

ومن الملاحظ، تمنى اليهود والنصارى قديماً وحديثاً بشتى الطرق
أن تتبع هذه الأمة سبيلهم، لكن الله جعلهم على ملة إبراهيم الخليل
ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَلَمْ نَأْخُذْ بِكُمُ الْيَهُودَ أَنْ يَتَّبِعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم بين الله تعالى في كتابه العزيز أنه أحسن دين، وأقومه من عدة
وجوه؛ وممدح من سلك سبيله قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

١ - إسلام الوجه لله بالإخلاص.

ثم إتقان وإحسان في تأدية ذلك، ثم اتباع ملة الخليل ﷺ بعيداً
عن الشرك.

وما دامت هذه صفته فلا يجانبه إلا من في عقله لوثة وسفه
وجنون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

[البقرة: ١٣٠] .

لماذا سفه نفسه؟ لأنه لم يتخذ محمداً ﷺ قدوة ومثالاً ، ومحمد ﷺ أمر أن يقتدي بإبراهيم ، فلا يسع المسلم الخروج عن ذلك .

ثم نلاحظ غبطة الرسول ﷺ واعتزازه بهذا المنهج ؛ قال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأَنْعَام: ١٦١] .

ثم بين تعالى بكتابه أن أوثق صلة إبراهيم من كان على دينه وكذلك أتباع محمد ﷺ ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨] .

نلاحظ في هذه الخطابات الدعوة إلى التوحيد ، وأن نسير على ما سار عليه إبراهيم ﷺ .

* * *

دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد

لقد بدأ رسول الله ﷺ، بهذا الأصل، فأول شيء طرق مسامع قومه هو التوحيد «قولوا لا إله إلا الله».

واستمر ﷺ داعياً إلى هذا المبدأ الأسمى والمطلب الأعلى طول حياته، حتى إن قومه استنكروا ذلك، وقال المستكبرون منهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَٰهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ﴾ ﴿١٢٠﴾ [ص: ٥].

وكان مقتضياً بذلك أثر الخليل ﷺ: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التحل: ١٢٣] وبالنظر إلى عدد من الآيات الكريمة يتبين أنه ﷺ كَلَّفَ تكليفاً خاصاً بهذه المهمة لأهميتها القصوى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ جَعَلَ الْإِلَٰهَ إِلَٰهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا﴾ [الزمر: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْمَزْتُهُ بِمَا يَكْفُرُونَ لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ فَلْتَهَيِّنَا إِلَيْكَ﴾. ﴿١٢٢﴾

وقال تعالى: ﴿هُرُّطِسْتَفِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةً وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿١٢٣﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

وكذلك أمر الناس بالتمسك بالتوحيد:

قال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةً وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ قُلْ إِنَّ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ قُلْ لِيَصْلَاحِي وَنُصِي وَمَحْيَا﴾
[البقرة: ١٦٣].

أما السنة ففيها الشيء الكثير الدال على افتتاح رسول الله ﷺ
دعوته بالتوحيد واختتامها بذلك، واستمراره فيما بين ذلك طوال
حياته ﷺ.

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث مُعَاذًا إِلَى
اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وفي رواية: «إِلَى أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ»^(١).

٢- وعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت وأنا في
الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم
يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يُخبر أخباراً، فقعدتُ على
راحلي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً، جراء عليه قومه
فتلطفت، حتى دخلت عليه، بمكة، فقلت له: ما أنت؟ فقال: «أنا
نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء
أرسلك؟.

قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوحِدَ اللَّهُ لَا
يُشْرِكُ بِهِ شَيْءٌ». فقلت: ومن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد». قال:
ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به... الحديث^(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد (٢٠٢/١)، (٢٩٠/٥) قال الشيخ ربيع حفظه الله إسناده صحيح إلا محمد
بن إسحاق وقد صرح بالتحديث فحديثه حسن.

وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان: ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم. ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة»^(١).



(١) البخاري/ كتاب بدء الوحي باب (٥٧) حديث (٦) وهو حديث طويل مشهور.

هل التوحيد يستحق كل هذا ؟

نعم، إن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل جهد؛ حيث إنه المنهج الذي اختاره الله، فلا يليق بمؤمن برسالة الإسلام أن يرغب عنه إلى منهج آخر يتخبط فيه كل يوم في وادٍ سحيق بعيداً عن المنهج الرباني القويم، وكما أنه دعوة الرسل ﷺ كما أخبر الله تعالى عنهم أنهم خاطبوا أممهم قائلين: ﴿إِنَّمَا هِيَ كَلِمَاتُ حَيْثُ عَاقَبَ لِلَّهِ رَبِّ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقد اقتفى محمد ﷺ أثر الخليل ﷺ وأمضى من عمره الشريف المبارك ثلاث عشرة سنة، وهو يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وتحقيق الإيمان به، فكان يقول لهم: اعبدوا الله واتركوا ما يعبد آباؤكم. فكان على هذه السيرة من الاجتهاد في أمر التوحيد، وكان يحذرهم مما عليه اليهود والنصارى من الغلو والابتداع الذي أوقعهم في الشرك والكفر، يحذر الأمة مما صنعوا خشية أن يضلوا ويهلكوا.

فعن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة، فإن عليكم من المشركين عينا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم». فقال قائلهم وهو أبو أمامة: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل، وعليكم إذا فعلنا ذلك. فقال: «أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأسألكم لي ولأصحابي

أن تؤوونا وتنصرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: «فلك ذلك»^(١).

وموضع الشاهد هو قوله ﷺ: «أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

فما هو التوحيد^(٢):

في اللغة: مشتق من وحد الشيء، إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحد يوحد، أي جعل الشيء واحداً.

وفي الشرع: إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ويفهم من هذا أنه لا خالق إلا هو، ولا رازق سواه.

ولا يُدعى سواه، ولا يخشى ويتقى إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يذبح ولا ينذر إلا له تعالى الله علواً كبيراً، ولا تُتخذ الملائكة أو النبيون أو الصالحون والأولياء والمشايخ وغيرهم أرباباً من دون الله، يُدْعَوْنَ في الشدائد والناثبات، أو يُتَّخَذُونَ وسائط بين العباد وبين الله عز وجل، مع العلم والاعتقاد أنهم جميعاً عبيد وليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون من قطمير.

هذا، ويقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام كلية:

أ - توحيد الألوهية: هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

(١) رواه أحمد (١١٩/٤)

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد ص ٧ .

ب - توحيد الربوبية: هو إفراد الله عز وجل بالخلق والملك والتدبير.

ج - توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله تعالى بما له من الأسماء والصفات، وهذا يتضمن:

١ - الإثبات: وذلك بأن نثبت لله تعالى جميع أسمائه وصفاته.

٢ - نفي المماثلة: وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وجميع هذه الأقسام موجودة في سورة الفاتحة.



خطورة الشرك

إن الشرك خطره عظيم فلننظر إلى الخطاب الشرعي الذي جاء في كتابنا محذراً منه ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ ﴾ [لقمان : ١٣] .

وقال تعالى في الحديث القدسي : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه»^(١) .

وقال ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هي قال : الإشراف بالله والسحر...»^(٢) .

فما هو الشرك وما صورته؟

الشرك لغة: الشَّرِكَةُ والمشاركة خلط المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أن يُوجد شيء لاثنين فصاعداً، عيناً كان ذلك الشيء أو معنى، كمشاركة الإنسان والفرس بالحيوانية^(٣) .

(١) مسلم وغيره .

(٢) متفق عليه .

(٣) مختصر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص ٢٥٧) .

والشرك مشتق من المشاركة والمقاسمة بين اثنين أو أكثر .
والله غني عن المشاركة لغناه المطلق ، حيث إن المشاركة تنمو
عن العجز والحاجة ؛ ولذلك كان نسب الشريك لله تعالى فيه منقصة
عظيمة وجريمة شنيعة .

وشرعاً: الشرك هو جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته ، وله
صور متعددة وحالات شتى ، فهناك من يشرك بالله وذلك كالدعاء أو
الذبح أو النذر لغير الله وكأن يدعى السيد الفلاني أو يذبح عند مقامه أو
ينذر عند القبة الفلانية ويطاف حولها لجلب نفع ودفع ضرر ، فهذه
الممارسات شرك أكبر يخرج صاحبه من الملة الإسلامية^(١) .

لماذا هو خطير؟

لأن هذا الشرك قد تجرأ على الله تعالى وساوى بينه وبين خلقه ؛
إذ كيف يصرف عبادته لمخلوق مثله ، وهي لا تحق إلا للخالق ، وكأنه
شبه الخالق بالمخلوق ، فقد ظلم وأفسد ، لوضعه الشيء في غير موضعه
وصرف العبادة لغير الله ، وهذا أعظم الظلم ؛ قال تعالى : ﴿أَعَهْدُ إِلَيْكُمْ
يَكْبَىٰ ۖ ءَادَمُ﴾ [لقمان : ١٣] .

إن الشرك أعظم الذنوب وأقبحها وأخطر وأبشع ما يرتكبه الإنسان
في حياته ، فلحربه أنزلت الكتب وأرسلت الرسل وعمل المخلصون من
الأتباع .

(١) العقيدة الصافية للفرقة الناجية لسيد سعيد عبد الغني تقديم الشيخ سعود إبراهيم
الشريم (ص ٤٠١) .

فمن مصائبه :

- ١- أن هذا المشرك حَرَمَ نفسه من مغفرة ربه ورحمته ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٤٨] .
- ٢- أن هذا المشرك بشركه حَرَمَ نفسه من أي أجر أو ثواب ، فلقد أحبط الشرك جميع عمله الصالح ؛ قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] .
- ٣- إن المشرك بشركه قد أحل دمه وماله ، فلا حرمة له في الإسلام ؛ قال تعالى : ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [التوبة: ٥] .
- ٤- إن المشرك حكم على نفسه بالخلود في النار ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] .

أنواع الشرك :

الشرك نوعان أولاً الشرك الأكبر المخرج من الملة وينقسم إلى أربعة أنواع :

- ١- شرك الدعاء : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّوْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ، فبعد أن ينجيهم ربهم يشركون به ويدعون غيره .

- ٢- شرك النية والإرادة والقصد : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ قُلْ إِنَّهِيَ دُنِي﴾ [هود: ١٥] قال ابن عباس : إن أهل الرياء يُعطون بحسناتهم

في الدنيا، وذلك أنهم لا يُظلمون نقيراً، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب في الآخرة.

٣- شرك الطاعة: قال تعالى: ﴿إِلَيْكَ أَنْتَ أَتَّبِعُ﴾ [التوبة: ٣١].

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿إِلَيْكَ أَنْتَ أَتَّبِعُ﴾ [التوبة: ٣١] قلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». فطاعة أي مخلوق وأخذ الأمر والنهي منه في معصية الله تعالى في الحلال والحرام وفي (افعل ولا تفعل)، هذه الطاعة شرك أكبر يخرج صاحبه من الملة.

٤- شرك المحبة: قال تعالى: ﴿قَالُوا النَّاسُ مِنْ يَنْحَرِقُوا أَلْعَهْدَ إِلَيْكُمْ يَكْبَتِي﴾ [البقرة: ١٦٥] قال ابن كثير رحمه الله: يذكر تعالى المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً، ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك له، فهو إله واحد.

ثانياً الشرك الأصغر:

والشرك الأصغر هو الذي لا يخرج صاحبه من الملة، ولكن ينقص من توحيده، فهو وسيلة للشرك الأكبر والعياذ بالله، وهو ينقسم إلى قسمين:

١- شرك ظاهر: وهذا الشرك يتمثل في الألفاظ والأفعال، فهو يختص بالأعمال والأقوال الظاهرية؛ كالحلف بغير الله تعالى، وقول

لولا الله وفلان، وغير ذلك.

٢- شرك خفي: وهو شرك في الإرادات والنيات؛ مثل الرياء والسمعة وغير ذلك، وفي هذا الباب تفصيل أرجو العودة إليه في مظانه وكشف أستاره.

* * *

ما ينافي التوحيد^(١)

إن التوحيد مفطور في نفوس البشر؛ قال تعالى: ﴿لِلَّهِ حُكْمٌ وَإِلَيْهِ تُجْزَىٰ﴾ وَمَا كَانَ الْمُفْسِدِينَ بُدِيلَ لِيَخْلِقَ اللَّهُ قُلَّ إِنِّي أُمِرْتُ أَجْعَلَ آلِهَةً إِلَّا هُوَ الْحَدُّ إِنَّا [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»^(٢).

لكن بعض الناس يقوم ببعض الممارسات التي تهدم هذا الركن المنيف بجهله وإعراضه عن العلم الشرعي، فيدخل ظلمات الشرك التي يزينها الشيطان للإنسان ومن ذلك:

١ - دعاء الأموات والطواف حول القبور:

قال تعالى: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا تُؤْفَ قُلَّ إِنِّي﴾ [فاطر: ٢٢].

والخطاب للرسول ﷺ، فالأموات في قبورهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم، ولو كان بأيديهم شيء لنفعوا أنفسهم، ولم يكونوا في التراب في القلوات، فدعاء الأموات والطواف حول القبور من تزيين الشيطان لبعض الناس؛ ليصدّهم عن شجرة التوحيد الوارفة، والطواف المشروع حول البيت العتيق الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

(١) هذا باب واسع دخله بعض الناس ذكرت طرفاً منه على وجه الإشارة والتحذير، ومنه ما ينقض التوحيد جملة وتفصيلاً نسأل الله العافية والثبات، ولمن أراد مزيداً فعليه بمراجعة كتب التوحيد وخاصة كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وشروحه.

(٢) متفق عليه.

٢- الذبح لغير الله :

فلا يجوز للإنسان أن يذبح لغير الله تعالى ؛ كأن يذبح للجن أو السيد ، أو الذبح للسيارة أو البيت الجديد وقاية لها من العين ، أو الذبح في شهر مخصوص كشهر رجب وغير ذلك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَحِمَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ فَلْتَعْبَدُونَنِي ﴾ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] .

وقال ﷺ : « لعن الله من ذبح لغير الله » . رواه مسلم .

٣- النذر والدعاء لغير الله :

النذر عبادة ذكرها تعالى في كتابه ، وأثنى على الموفي بنذره ؛ قال تعالى : ﴿ ١٢٠ ۝ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان : ٧] .

فإن نذر الإنسان طاعة لله وجب عليه تنفيذه ، فإن لم يستطع كفر عن نذره ، وإن نذر الإنسان أن يعصي الله فلا يعصه وليكفر أيضاً ؛ قال رسول الله : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . رواه البخاري ، وزاد الطحاوي : « ويكفر عن يمينه » .

وأما «الدعاء هو العبادة» :

فمقتضاه أنه لا يجوز أن يدعو الإنسان غير الله حتى ولو كان نبياً مرسلًا أو ملكاً مقرباً .

٤- التوسل بالمخلوق إلى الله تعالى :

معنى التوسل : هو التقرب إلى الشيء والتوصل إليه ، والتوسل نوعان :

١- توسل مشروع وجائز:

أ - يتوسل الإنسان إلى الله بأسمائه وصفاته مثلاً:

الكريم - العزيز - الرحمن - الحي القيوم - الخالق - الباري، المصور - السميع العليم ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

ب - بالأعمال الصالحة التي قدمها الإنسان. كحديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار.

ج - التوسل بدعاء الرجل الصالح.

٢- توسل غير مشروع: وهو التوسل بغير الأمور الثلاثة المذكورة؛ كمن يتوسل بجاه النبي مثلاً أو أحد من الخلق، فهذا لا يجوز.

٥- الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة بالمخلوق:

تعريفات:

الاستعانة: طلب العون والمؤازرة في الأمر.

الاستغاثة: كطلب الغوث وإزالة الشدة والكرب.

والاستعانة بالمخلوق على نوعين:

١- الاستعانة والاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، وهذا جائز.

كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿إِنِّي هَدَيْتِي رَجِّي إِلَى﴾ [القصص: ١٥].

٢- الاستعانة والاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله من تفريج الكروب ودفع الضر وجلب المصالح، فهذا شرك أكبر كالذي

يستعين بالأموات أو يستغيث بالأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا استعنت فاستعن بالله...»^(١) الحديث.

وأما الاستعاذة، فقد قال ابن كثير: هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من كل ذي شر، ويكون لدفع الشر ويكون لطلب الخير، فلا يجوز صرف هذين الأمرين لغير الله، كأن يستعيز بالنبي أو الصالحين.

٦- السحر:

١- فالسحر عبارة عما خفي ولطف سببه:

سمى سحراً؛ لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالآبصار، وهو: عزائم ورقى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخلات، وله حقيقة، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، وتأثيره بإذن الله الكوني القدرى - وهو عمل شيطاني - وكثير منه لا يتوصل إليه إلا بالشرك والتقرب إلى الأرواح الخبيثة بما تحب والتوصل إلى استخدامها بالإشراك بها - ولهذا قرنه الشارع بالشرك، حيث يقول النبي ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: وما هي؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر...»^(٢) الحديث، فهو داخل في الشرك من ناحيتين:

الناحية الأولى: ما فيه من استخدام الشياطين؛ والتعلق بهم والتقرب إليهم بما يحبونه ليقوموا بخدمة الساحر. فالسحر من تعليم الشياطين قال تعالى: ﴿قَالُوا النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ وَقَالُوا أَلَمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) صحيح رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الثانية: ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في ذلك. وهذا كفر وضلال؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِيضًا لِّي وَسْوَءٌ مِّمَّا قُلْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي نصيب، وإذا كان كذلك فلا شك أنه كفر وشرك يناقض العقيدة ويجب قتل متعاطيه. كما قتلهم جماعة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم، وقد تساهل الناس في شأن الساحر والسحر، وربما عدوا ذلك فناً من الفنون التي يفتخرون بها ويمنحون أصحابها الجوائز والتشجيع، ويقىمون النوادي والحفلات والمسابقات للسحرة ويحضرها آلاف المتفرجين والمشجعين، وهذا من الجهل بالدين والتهاون بشأن العقيدة والتمكين للعابثين بها.

علاج السحر:

السحر مرض من الأمراض الذي ابتلى الله به عباده، والمعلوم أن لكل مرض شفاء كما قال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل حيث خلق الداء خلق الدواء فتداؤوا»^(١).

ومن ذلك:

١ - استخراجة وإبطاله وحرقة ودفنه كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذلك فدل عليه فاستخرجه من بئر فكان في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر فلما استخرجه ذهب ما به حتى كأنما أنشط من عقال»^(٢).

(١) أحمد (٤٤٦/١)، صححه الألباني في غاية المرام (ص ١٧٨).

(٢) رواه أحمد وغيره إلى زيد بن أرقم (٤٤٦/١).

٢- ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله (١):

التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة: أن استخراج السحر كان بالقرآن كالمعوذتين، وأية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقية به فلا مانع من ذلك. وإن كان بسحر أو ألفاظ أعجمية أو بما لا يفهم معناه أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع وهذا واضح وهو الصواب إن شاء الله تعالى كما ترى.

٧- الذهاب للعرافين والكهنة والسادة:

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». رواه أبو داود.

ومن صفات هؤلاء العرافين:

- ١- أحياناً يطلب حيواناً بصفات معينة (أحمر مثلاً) ليذبحه، ولا يذكر اسم الله عليه يرميه في (خرابة) مكان مهجور.
- ٢- كتابة وتلاوة كلمات غير مفهومة وكلام لا يعرف معناه.
- ٣- إعطاء المريض حجاباً يحتوي على حروف وأرقام، وهي ما تسمى بالتميمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من علق تميمة فقد أشرك» (٢).

(١) أضواء البيان (٤/ ٤٦٥).

(٢) صحيح الجامع (٦٣٩٤).

٤- وهناك خرافات ينكرها العقل السليم فضلاً عن الدين يمارسها هؤلاء الدجالون.

وأما الرقية الشرعية البديلة فهذا ما كان يفعله ﷺ :

قال تعالى: ﴿نُفِثَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا أَنزَلْنَاهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَؤُوبِذَلِكَ أُمِرْتُ ثُمَّ أَوْحَيْنَا﴾ [الإسراء: ٨٢] .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨١﴾ .

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها «(١)» .

عن أبي سعيد بن المعلى الأنصاري المدني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قبل أن تخرج، فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؟ قال ﴿أَتَبِعَ مَلَأَكْرَهِيْمَ حَنِيفًا﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب... فلُدِغَ سيد ذلك الحي... فقال بعض الصحابة نعم والله إنني

(١) رواه البخاري.

لأرقي... فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ أَتَبَعَ مِائِرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي الفاتحة كلها، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به من قَلْبَةٍ^(١) ﴿^(٢)﴾.

* عن عثمان بن أبي العاص الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ وبي وجع قد كاد يهلكني، فقال لي: «امسح بيمينك سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر». قال: فقلت ذلك، فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي^(٣).

٨- الحلف بغير الله:

الحلف هو اليمين، وهو تأكيد الحكم بذكر معظم على وجه الخصوص والتعظيم، فلا يجوز الحلف بالنبي ﷺ مع عظيم مكانته. ومما يرتكبه بعض الناس جهلاً:

- أن يحلف برأس أبيه أو أمه أو أولاده أو تربة أبيه.
- الحلف بالنبي ﷺ مع عظيم مكانته.
- أن يحلف بالكعبة المشرفة، أما إن قال: ورب الكعبة، فهو صحيح.

قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك». صحيح رواه أحمد.

(١) متفق عليه وفيه قصة مشهورة.

(٢) قَلْبَةٍ: يعني علة.

(٣) أخرجه مسلم ومالك في الموطأ واللفظ له.

٩- الرقى والتمايم والتولة :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الرقى والتمايم والتولة شرك»^(١).

جاء في كتاب القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله :

قوله : [«إن الرقى» الرقى : جمع رقية ، وهذه ليست على عمومها ، بل هي عام أريد به خاص ، وهو الرقى بغير ما ورد به الشرع ، أما ما ورد به الشرع ، فليست من الشرك ، قال صلى الله عليه وسلم في الفاتحة : «وما يدريك أنها رقية»^(٢).

وهل المراد بالرقى ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة ، أو المراد ما كان فيه شرك ؟ لأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يناقض بعضه بعضاً ، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة .

وكذا الرقى المباحة : التي يُرقى بها الإنسان المريض كدعاء من عنده ليس فيه شرك ، جائزة .

قوله : «التمايم» فسرها المؤلف بقوله : «شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين» ، وهي من الشرك ، لأن الشارع لم يجعلها سبباً تُتقى به العين [هـ] .

وقال السيوطي : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع

(١) أحمد (٣٨١/١) وأبو داود كتاب الطب (٢١٢/٥).

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري رواه البخاري/ كتاب الإجارة باب ما يعطى في الرقية (١٣٦/٢)، ومسلم / كتاب السلام (١٧٢٧/٤).

ثلاثة شروط :

- ١- أن تكون بكلام الله أو أسمائه وصفاته .
 - ٢- أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه .
 - ٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .
- كذلك أخبر النبي ﷺ أن تعليق التميمة شرك وما يسمى في هذه الأيام (بالحجاب - الحرز - الجامعة - الودع) قال رسول الله ﷺ : «من علق تميمة فقد أشرك» . صحيح رواه أحمد .
- وأما التولة : فهي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحجب المرأة إلى زوجها والرجل إلى زوجته ، فهذا شرك بالله عز وجل ؛ لأن الذي يقرب القلوب هو الله ، والذي يباعد بينها هو الله تعالى .
- ١٠- الرياء :

عن أبي سعيد مرفوعاً : «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»؟ قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : «الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته ؛ لما يرى من نظر رجل»^(١) .

عن أبي هريرة مرفوعاً قال الله تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيри تركته وشركه»^(٢) .

من صورته الخبيثة :

(١) حسن رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم .

* أن يظهر أعماله طلباً للمدح ، أو بترك العمل الصالح من أجل الناس .

* انتهاك حرمة الله في الخلوة .

* أن يعمل الإنسان للناس وليس لله عز وجل .

* * *

الرسالة الثانية
«آباء وأبناء في القرآن الكريم»

تأليف / أبي مصعب
سعيد بن عماش السعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إِن الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ
يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم
بإحسان وسلم تسليماً...

وبعد:

فإنه ليسرني أن أقدم إلى إخواني وأخواتي موضوعاً شغل
المخلصين بل وأهم طوائف المجتمع كلها وانعكس أثره على الجميع
ألا وهو كيف اهتم القرآن الكريم بتربية الأبناء، فكان في ثناياه عطر فواح
جاء على لسان المجتبيين عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

- «أراد الله جل جلاله وتعالى سلطانه، بالغ الحكمة الرؤوف
الرحيم، صاحب المشيئة المطلقة، والقاهر فوق عباده، مالك الملك
في الدارين وما بينهما أن يجعل على هذه الأرض خليفة، يُسَلِّمَ زمام هذا
الكون بما فيه من العوالم والكائنات.

فسخر له أعظم المخلوقات، كالشمس والقمر والليل والنهار وأجرى الأنهار وأمسك البحار وأرسى الأرض بالجبال وجعل فيها أقواتها ذلك تقدير العزيز العليم».

وأراد بمشيئته تعالى أن يتكاثر هذا الخليفة وتكون له ذرية، بل وأخذ عليه العهد أن يعبد ولا يشرك به أحداً قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد هياً تعالى له الظروف حتى يصمد ويثبت أمام ما يتعرض له من ابتلاءات ومحن لأن مهمته عظيمة كبيرة، اعتذرت السموات والأرض والجبال عن تحمل تبعتها والتصدي لها وحملها هذا الخليفة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وكذلك من حكمته تعالى، أن اجتنب واختار من البشر من يحمل دينه وتوحيده إلى عباده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] وهؤلاء الفضلاء، قاموا بتبليغ رسالات ربهم خير قيام للعامة والخاصة لأولادهم وزوجاتهم وسائر قراباتهم، فهدى الله من يشاء من تلك الطوائف، وأعرض آخرون وسوف نرى بعض مواقف هؤلاء المجتبيين من الرسل والأنبياء مع أقرب الناس إليهم نسباً، وكيف حرصوا على هدايتهم، إن الرسل والأنبياء قدوة في كل شيء ومن هذا الباب حاولنا أن نكشف الستار الجميل لعلنا نستفيد مما ذكره رب العزة في كتابه من تلك الدعوات والخلجات النابضة في تلك القلوب الزكية الطاهرة.

فنداء نوح لابنه يهز الجنان والأركان، ودعوات إبراهيم عليه السلام الصادقات خوفاً على تلك الذرية، ودمعات يعقوب ولوعته ووصيته تحرق الفؤاد، وكذلك إسماعيل وإسحاق وداود وسليمان ولقمان ويحيى وزكريا ومريم وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأم موسى، خليجات أرسلها هؤلاء المقربون خلدها تعالى في كتابه العزيز دروساً للعالمين وسراجاً منيراً يهتدى بها في الظلمات.

وفي الختام ألحقت بهذا المبحث أقوالاً وتوجيهات تربوية مستقاة من مختصين في التربية . . . أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد خالصاً وفي ميزان الحسنات، آمين.

المؤلف

أبو مصعب

(١)

نوح عليه السلام وابنه

إن قصة نوح عليه السلام فيها الدروس والعبر من جميع نواحي الحياة، فيها الحكمة وفيها الصبر، حسن العرض للدعوة، الشفقة، الالتجاء لله تعالى بل كلها عظات وقد حظى أقرب الناس إليه بعناية خاصة وهو ابنه ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ نلاحظ هذا التلطف مع الولد العاق يتدفق من قلب العبد الشكور عليه السلام.

وقد وردت قصته عليه السلام في العديد من السور، وله سورة سميت باسمه في القرآن الكريم، ويعتبر نوح عليه السلام أول الرسل عليهم السلام وأول أولى العزم منهم، ويعتبر أطول الأنبياء عمراً في مسيرة الدعوة إلى الله، وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، أن مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بمائة وست وعشرين سنة، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما إنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقد بعثه الله تعالى رحمة للعباد، لما انحرف الناس عن الفطرة السوية وعبدوا الأصنام.

هذا وقد جاء عن جابر في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه تقرير أن نوحاً هو أول المرسلين، فقد ورد في الحديث أن الناس يأتون آدم عليه السلام ثم يأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن

فيه ، ألا ترى على ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك ﷻ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي ، وذكر تمام الحديث بطوله كما رواه البخاري في قصة نوح ﷺ .

والآن مع ما ذكره الله تعالى عن ذلك العبد الشكور مخلداً في الكتاب العزيز .

قال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢] .

* وصف للحالة مرعب مخيف ، السفينة تجري ، أين تجري يا إلهي تجري في الأمواج التي تتقاذفها وقد وصفت لعظمتها بأنها كالجبال الشامخات .

جاء في أضواء البيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآية أنَّ السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم أمواجه كالجبال ، وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع أخرى قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ [الحاقة : ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى ﴾ [القمر : ١١ . ١٢] .

إن الهول هنا هولان : هول في الطبيعة الصامته التي تفجرت بعنف ، وهول في النفس البشرية يلتقيان .

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه يصارع الأمواج فيثور في كيانه حنان الأبوة الملهوفة . . ويروح يهتف بالولد الشارد قال تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ

أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ [هود: ٤٢].

جاء في فتح القدير (٢ / ٦٥٤): هو: كنعان، قيل وكان كافراً، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وأجيب بأنه كان منافقاً فظن نوح أنه مؤمن، وقيل حملته شفقة الأبوة على ذلك؛ ولكن البنية العاقبة لا تهتم بصياح الأبوة المجروحة... ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾.

ثم ها هي ذي الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر وأن العذاب فريد من نوعه، ترسل النداء الأخير، ﴿قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] وفي لحظة يتغير المشهد، فيها هو ذا الموج يتلع كل شيء.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] سكن الهول واختفى كل شيء واستوت على الجودي، مرة أخرى تستيقظ في نفس نوح آلام الوالد المفجوع. وعظيم ظنه بربه ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود: ٤٥]، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] أطلقها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، وهذا منهج الرسل عليهم السلام في الالتجاء إلى الله، كما فعلى محمد ﷺ يوم بدر، وأيوب، وزكريا ويونس عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْتُ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾

[هود: ٤٢].

ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿فِي مَعْرِلٍ﴾ أي من دين أبيه،

وقيل: عن السفينة، وقيل إن نوحاً لم يعلم إن كان ابنه كافراً وأنه ظن أنه مؤمن، ولذلك قال له ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] اهـ.

قلت كذلك قول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فلو علم بكفره لم يقر به لنفسه ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ لأن رباط الدين أوثق وأعظم، وهذا ليس خفياً على نوح. وفيه سر آخر أن السرائر لا يعلمها إلا رب العالمين، فلا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصْنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

ذكر أهل التفسير: أي أرجع وأنضم إلى جبل يمنعني من الماء فلا أغرق، واعتقد أن الطوفان لن يبلغ إلى رؤوس الجبال، فقال له أبوه نوح عليه السلام إن هذا العذاب شديد فريد في نوعه قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] (جاء في بدائع التفسير (٢/ ٤٣٠).

على أصح الوجوه في الآية فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق فكأنه قيل لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه، فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ بقي الذهن طالباً للمعصوم، فكأنه قيل فمن الذي يُعصم؟

فأجيب بأنه لا يُعصم إلا من رحمه الله تعالى، ودل هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله تعالى، فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو. وعلى العاصم، وهو ذو الرحمة سبحانه وتعالى، وهذا من أبلغ الكلام وأفصح وأوجزه، ولا يُلتفت إلى ما قيل في الآية

بعد ذلك وقد قالوا فيها، ثلاثة أقوال أخرى اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وفي لحظه خاطفة، يتغير المشهد، فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء من غير رحمة، ويقطع الرجاء، وتختفي المعالم، وتلتهب اللوعة والجزع فتحل في قلب الوالد الملهوف، وإذا به ينادي ربه، ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥].

قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله.

أي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق، وسأل نوح ربه نجاة ولده لقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ومن معي من المؤمنين وإن وعدك الحق الذي لا خُلْفَ فيه أبداً، فأجابه تعالى بقول فصل لا مجاملة ولا مداراة فيه، قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، أي الذين وعدتك بإنجائهم لأنه على غير دينك وعلى خلاف منهجك ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وجاء الردُّ بالحقيقة الكبرى، الأهل عند الله وفي دينه - ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة والتوحيد وهي العروة الوثقى التي يتعلق بها الناجون وهذا الابن لم يكن مؤمناً، لعلم الله المطلق، فليس إذن من أهلك يا نوح. سمع نوح عليه السلام هذا الرد في قوته وتوكيده وهو يشبه العتب على نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وقد روى عن ابن عباس وعروة وعكرمة وغيرهم ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، أي ابنك عمل عملاً غير صالح فحذف المضاف كقول الشاعر.

ترتع ما رتعت حتى اذكر اذكرت فإنما هي أقبال وإدبار
أي ذات إقبال وإدبار، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي
أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فوعد الله قد تحقق ونجا
أهلك الذين هم أهلك على التحقيق أهل الدين والعقيدة.

﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾، أي: أنهاك ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فتسألني ما
ليس لك به علم، قال العبد الشكور نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ﴾ أي: يا ﴿رَبِّ
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أستجير وأتحصن بك، أن أسألك بعد الآن ﴿مَا لَيْسَ
لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي الذين
ظلموا أنفسهم فأدركت رحمة الله نوحاً، تُطمئن قلبه، وتباركه هو
والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم.

وسمع النداء المسلي الشافي بعد كل تلك الكروب التي صاحبت
ذلك الحدث العظيم «الطوفان» حيث كان ذلك مفزعاً له في جنانه
وأركانه فإذا به يسمع ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٣].

وكانت خاتمة المطاف، البشرى من الله لأوليائه وعبيده والتهديد
والعذاب الموعود للمخالفين، ثم يُسدل الستار على هذه القصة العظيمة
التي جاءت فصولها بصدق في كتاب ربنا دروساً للحاضرين والغائبين
والحمد لله رب العالمين.

جاء في سورة نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾

[نوح: ٢٨].

قال الإمام الطبري: كان اسم أبيه: لامك بن متوشلخ، واسم أمه: شمخا بنت أنوش.

قال عطاء لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آباءه كافر وكان بينه وبين آدم عليه السلام عشرة قرون، وقيل أراد بالوالدين آدم وحواء ﴿وَلَمَن دَخَلَ بَيْتَكَ﴾ [نوح: ٢٨]، أي منزلي وقيل مسجدي وقيل سفيتي، وقيل ديني، وعلى هذا يكون قوله ﴿مُؤْمِنًا﴾ احترازاً من المنافق أي دخولا مع تصديق القلب ثم عمم دعاء الخير للمؤمنين والمؤمنات.

وجاء في فتح القدير حول قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وكانا مؤمنين، وأبوه لامك بن متوشلخ وأمّه شمخا بنت أنوش، وقيل أراد آدم وحواء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَن دَخَلَ بَيْتَكَ﴾ [نوح: ٢٨]، قال الضحاك يعني مسجده وقيل منزله الذي هو ساكن فيه وقيل سفيته، وقيل: لمن دخل في دينه، ونصب ﴿مُؤْمِنًا﴾ على الحال أي لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بتلك الصفة كما مرته وولده الذي قال ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣]، ثم عمم الدعوة، فقال ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث، ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ [نوح: ٢٤]، أي لا تزد المتصفين

بالظلم إلا هلاكاً وخسرانا.

وجاء في تفسير السعدي حول قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، قال السعدي: خص المذكورين لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

ودعاء نوح عليه السلام ربه أن يغفر له، هو الأدب النبوي الكريم، أدب العبد الذي لا ينسى أنه بشر وأنه يخطئ وأنه يقصر مهما يطع ويعبد وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضلته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

ودعاؤه لوالديه . . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين كما نفهم من هذا الدعاء ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرقه مع المغرقين، [سورة هود].

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً، هو بر المؤمن بالمؤمن وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً، لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذي سيصيهم منه في السفينة، ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات، هو بر المؤمن

(١) رواه مسلم (٧٦/٢٨١٦).

بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان وشعوره بأصرة القربى على مدار الزمن واختلاف المكان، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان، السر الذي أودعه الله هذه العقيدة وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط الدين.



ومن أعظم ما يستفاد من هذه القصة

- (١) أن الهداية بيد الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده منفرداً بها سبحانه وتعالى .
- (٢) فنوح عليه السلام لم يهد ابنه وأقرب الناس إليه نسباً ، مع أنه بذل الأسباب في ذلك .
- (٣) إبراهيم عليه السلام ما استطاع إقناع والده ، ومات كافراً مع أنه بذل من الأسباب ما ينفطر القلب عند سماعه .
- (٤) ولوط عليه السلام لم يهد زوجته الغابرة وهي مع القوم المفسدين ،
لتبقى آية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
[القصص : ٥٦] .
- (٥) ومحمد ﷺ لم يستطيع هداية عمه أبي طالب مع أنه حرص على ذلك .

(٢)

إبراهيم عليه السلام

إن الحديث عن خليل الرحمن عليه السلام كآب عظيم، وأخذ العبر والدروس والتوجيهات من تلك الشخصية الفذة النادرة، وما صدر عنها من تلك الدعوات الحارة الممزوجة بالعطف والحنان، حين أطلقها من أجل تلك الذرية، فأصلحها الله بصدق مطلقها عليه السلام، فحقاً قولك رب ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وحين نرى تلك الخلجات في سيرته التربوية المباركة في أكثر من موضع فما بين تضرع ودعاء، ذلك منهج سار عليه إبراهيم الخليل طوال حياته، فياليت الأمة والجماعات والأفراد، تدرس ذلك وتسلكه ونستفيد منه.

وأول ذلك الغيث أن الله تعالى جعله إماماً وقدوة للعالمين، وما كان ذلك إلا بعد توفيق الله تعالى له، وأنه كان ذو قلب سليم اختاره الله واجتبه على العالمين، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠)
 شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].
 وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٤].

ونلاحظ، عددًا من المحاور التربوية ارتكزت عليها دعوته بعد اختيار الله تعالى له:

المحور الأول

طلبه المزيد من فضل الله ومن الذرية الصالحة
التي تحمل همّ هذا الدين إلى يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) [الصافات: ١٠٠ - ١٠١].

وقال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) [إبراهيم: ٣٩].

إنه عليه السلام طلب من ربه وعجل عند هجرته من موطنه وقومه، أولاداً صالحين يعينونه على الدعوة والطاعة ويؤنسونه في الغربة قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠).
قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يريد الولد، لأن لفظ الهبة غلب في الولد،

ووصف بأنه من الصالحين؛ لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً، فإن صلاح الأبناء قرة عين الوالدين. ولا خير في الأولاد إن لم يكونوا صالحين، فربما كان الولد مصدر شقاء وهم وحزن، نسأل الله من فضله العظيم، صلاحاً في النية والذرية.

المحور الرئيسي الثاني

الخوف من الشرك

تجد في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام أنه سأل ربه تعالى أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِّي فِيهِ مُنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: أي اجعلني وإياهم جانباً بعيداً من عبادتها والإلمام بها؛ فما أشد خوف خليل الرحمن على نفسه وعلى أولاده من الوقوع في عبادة الأصنام لأن ذلك شرك بالله العظيم، مخرج من الملة، وله صور خبيثة: كالذبح، والنذر، والخوف، والتعلق بالأشجار والأحجار والشياطين، فخاف الخليل عليه السلام، وهو من هو في الإمامة وصلاح أبنائه.

قال القرطبي رحمه الله تعالى «ما أروع ما قاله الشيخ إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى: من يأمن البلاء بعد الخليل عليه السلام حين يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ كما عبدها قومه قال تعالى محذراً من

الشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ .

وقال ابن كثير في تفسيره: «ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه وذريته»

قلت: وما أكثر صور الشرك اليوم التي تغافل عنها أولياء الأمور، ومنها تعليق التمايم والودع والذهاب إلى العرافين بل والذبح والنذر لغير الله وفي بعض الممارسات إلى الخروج من الملة عياداً بالله العظيم» .

المحور الثالث

أهمية الصلاة في منهج الخليل عليه السلام

ومما نجده في سيرة الخليل عليه السلام، أنه كان شديد الاهتمام بأن تكون ذريته من مقيمي الصلاة. إنه أسكن تلك الذرية المباركة عند البيت العتيق قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

إنه عليه السلام دعا ربه عز وجل أن يجعله ومن ذريته مقيمين للصلاة. وقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها» ابن كثير (٢/ ٢٩٥).

قلت ، ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام أن الخليل عليه السلام، دعا مولاه واتخذ الأسباب . وكذلك محمد ﷺ أمر بأمر أهله بالصلاة قال ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه : ١٣٢] .

وعلى هذا المنهج وجه الرسول ﷺ الأمة إلى أهمية الصلاة فقال : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) فعلى الآباء والأمهات ، ومن له ولاية على صغير الاهتمام بهذا الجانب ، وأن يكون إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ قدوة ومثالاً يحتذى ، فإن التربية عليها في الصغر يكون ذا فعالية عند البلوغ والكبر ، حيث تعظم في نفسه من اهتمام الأهل بها فالصغار يلحظون كثيراً ويفعلون ما نفعله تقليداً وهذا مُشاهد في الأسر التي تحافظ على الصلوات إنهم يحاكون .

فدعونا ننبت تلك البذرة الطيبة «الصلاة» في تلك القلوب الطاهرة الزكية التربية الصالحة .

(١) (د/ ٤٩٥) وأخرجه أحمد (٢/ ١٨٠١٨٧٥) .

المحور الرابع

غبطة الخليل عليه السلام بهذه الملة له ولذريته

نجد في سيرته عليه السلام أنه دعا ربه عز وجل أن يجعله وذريته أمة مسلمة منقادة لله تعالى، نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره «ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه، المتضمن لانقياد الجوارح» قلت قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فهو المرضي عند رب العالمين، فمن الواجب توطيئ أنفسنا وذريتنا على الانقياد والسمع والطاعة والفخر والاعتزاز به فما أعظمه من دعاء أن الإسلام نعمة جليلة القدر، قد امتن الله تعالى بها على الناس قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

المحور الخامس

الخليل ﷺ يدعو الله أن يكون معلمهم منهم

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

يرجو أن تتزكى هذه الذرية وأن يكون منهم من يتعلم كتاب ربها كي ينفع الآخرين.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ لفظاً وحفظاً وتحقيقاً، وقال القرطبي رحمه الله تعالى «الحكمة» المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، قال قتادة رحمه الله تعالى: «الحكمة» السنة وبيان الشرائع.

«ويزكيهم قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (ويزكيهم) بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبرؤ من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفس معها».

وانظر إلى لطيفه ذكرها جمع من العلماء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ إن هذا الدعاء، يدل على النضج والكمال الذي وصلت إليه هذه الذرية المباركة وأنهم أهل لحمل رسالة ربهم تعالى وتكاليفه، وفي ذلك رفعة لشأنهم وعزتهم، وكونه منهم يكون أشفق عليهم وأرحم بهم.

قال تعالى: ﴿بَعَثْ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي ذلك من الدروس أن يكون الخير الذي في أيدي الدعاة والمصلحين ألا يتعدى ذرايعهم وأهليهم قال ﷺ: «الأقربون أولى بالمعروف».

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

المحور السادس

وصية الخليل ﷺ لذريته

ومما يستفيدة المرء من أنه ﷺ وصاهم بالثبات على الدين حتى الممات قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قلت: ومن المعلوم وعُرف في الطبع أنه لا تكون الوصية إلا بشيء ذي قيمة وله أثر في سلوك الفرد الموصى كي يزداد حرصه واهتمامه، وأي شيء أهم من الدين والملة؟، لذلك أطلقها الخليل ﷺ كي تدوي في الآفاق، (إذن وعلينا البلاغ) فاستفاد منها أهل الغبراء قديماً وحديثاً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المحور السابع

أهمية البيئة الصالحة

إبراهيم عليه السلام اهتم باختيار البيئة الصالحة لتلك الذرية المباركة ، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

فهو عليه السلام يهوى المكان الصالح لتلك البذرة الصالحة ، فلا يسكنهم في مكان يكثر فيه الفساد بل بحث عن مكان يظهر فيه الخير وتفوز الفضيلة ، فلا يرون إلا خيراً ولا يسمعون إلا خيراً وهو بذلك يخط خطاً في مراعاة الأمور الدينية قبل الدنيوية ، ولكن بعض الناس لا يحفل بهذا المنهج الرباني ، ويعتمد على الوسائل المادية ، وقلما ينجو من السقوط في برائن المنكرات والفواحش بسبب تلك البيئات الفاسدة التي يرتع فيها المفسدون ، ويجدون بغيتهم ، فالناصح لنفسه وذريته يجب عليه الحرص على الأماكن الفاضلة كي تنمو الذرية بجو من الفضيلة ، فالعجب ممن يسكن أسرته في بعض الأماكن المشبوهة التي تحوم حولها الرذيلة ، ويتمنى النجاة والصلاح !!

المحور الثامن

أكل الحلال ودوره البارز

على عِظَم منزلة إبراهيم عليه السلام نلاحظ اهتمامه بالأمر المعيشية التي تعين النشء على الكرامة والعفة، فها هو يدعو لهم قال تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قال العلامة الشوكاني، رحمه الله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك أو هم ومن يسكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه أو تجلب إليه).

وفي قوله تعالى: ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ تعريف الاستغراق، أي جميع الثمرات، المعروفة، فهو يدعو لهم بالرفاهية التي تجعلهم يلتصقون بهذه الأرض المباركة مكة وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

- يقول الفخر الرازي ذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات وكذلك نلاحظ اهتمام الخليل عليه السلام بالدعاء لابنه وأهله بالبركة فيما رزقوا.

- فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى: عن ابن عباس^(١) رضي الله عنهما قال في رواية طويلة - إن إبراهيم عليه السلام جاء إلى بيت إسماعيل عليه السلام بمكة. ولم يكن ابنه موجوداً، سأل زوجه عن عيشتهم وهيئتهم وكان مما سأل أن قال: «ما طعامكم؟» قالت: اللحم، قال:

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء: (٦٠ / ٣٩٧ / ٣٣٦٤).

فما شرابكم؟ قالت: (الماء)، قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، وجاء في رواية أخرى أن إبراهيم عليه السلام قال: «اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم»^(١).

المحور التاسع

الأمن ودوره في الحياة

تجد في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام اهتمامه بالأمن، قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

بين الشوكاني رحمه الله تعالى حكمة الابتداء بطلب الأمن، بقوله: «وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا»^(٢).

هذا وقد استجاب الله تعالى دعوة خليله عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) ويتجلى هذا كذلك في قول الرسول ﷺ «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»، (ت ٢٤٤٩).

فعلى الوالدين الاهتمام بهذا الجانب، وخاصة في حماية الأسرة والأولاد من الخلافات بين الزوجين أمام الأولاد مما يؤثر على سلوكياتهم ويجعلهم ينجحون إلى الهروب من تلك المنازعات،

(١) البخاري، كتاب الأنبياء: (٦٠ / ٣٩٧ / ٣٣٦٤).

(٢) فتح القدير ٣ / ١٦٠.

ويعصبيهم بالخوف والهلع، وفي حالات يقعون بأيدي فاسدة تزيد في بعدهم عن جادة الصواب.

فحل الخلافات في حجرات مغلقة أحسن وأفضل وأسلم. لكي يحصل الأمن والاطمئنان، فأحياناً الصغار لا يقدرّون الأمور التقدير الصحيح، فيصيب أنفسهم خدش وما يخفونه أعظم مما يظهر فيما بعد على شكل سلوكيات عدوانية ضد كل شيء بل أحياناً متمردة يصعب على الوالدين توجيهها إلى الصواب.

المحور العاشر

الخليل عليه السلام يسن قانوناً للبشرية في أهمية المشاورة

إنه لما أراد بناء الكعبة المشرفة أشرك معه ابنه إسماعيل عليه السلام في ذلك البناء.

فقد روى الإمام البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما . في حديث طويل ثم لبث «أي إبراهيم عليه السلام عنهم ما شاء الله تعالى : «أي عن إسماعيل عليه السلام وزوجه» ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل عليه السلام يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال : فاصنع ما أمرك ربك» قال : «وتعينني» قال : (وأعينك)^(١) . قال : «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة

(١) البخاري . كتاب الأنبياء . (٣٣٦٤).

على ما حولها - قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت - فجعل إسماعيل عليه السلام يأتي بالحجارة، وإبراهيم عليه السلام يبني». حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فجعلوا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(١).

قلت: فما أجمل هذا المنظر الابن الثمرة يساعد الوالد في بناء البيت العتيق تقربا لله تعالى.

فهل نحن دعونا أولادنا وأشركتناهم في مثل هذه الأعمال الفاضلة كي تتهدب أخلاقهم وسلوكياتهم عملاً وليس قولاً.

وكذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال الحافظ ابن الجوزي «لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله تعالى لكن أراد أن ينتظر ما عنده من الرأي»^(٢).

«فحب الولد لم يمنع الخليل عليه السلام من طاعة الله تعالى، وخاصة عندما نضج الغلام وهو أحب ما يكون عند الوالد عادة».

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾.

(١) البخاري، كتاب الأنبياء ٣٣٦٤، ٦ / ٣٩٧. ٣٩٨

(٢) زاد المسير (٥٧/٧).

«أي أدرك أن يسعى معه وبلغ سنا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته» (٧٧٠).

ورغم ذلك كله كان دور الخليل عليه السلام الاستسلام الكامل لأمر مولاه عليه السلام بلا تأويل ولا تردد، وجاء بيان ذلك في قول الحق تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، قال أهل التفسير: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله، أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه فوق جبينه على الأرض.

قلت: «الله أكبر، موقف ما أشده وأصعبه على النفس، لكن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وإذا بالفرج يكون أسرع من البرق: ﴿أَن يَتَابَرِهِيْمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤. ١٠٥]، ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، فالتفت إبراهيم عليه السلام فإذا هو بكبش أبيض أعين كما روى في عدد من الآثار».

المحور الحادي عشر: المحبة ونشر الدعوة

الخليل ﷺ يدعو الله أن تكون ذريته محبوبة لدى الناس قال تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تحن إليهم وقال قتادة تنزع إليهم، وقال الفراء «تريدهم». (٤ / ٣٦٧).

وقد علم الخليل ﷺ أنه لا تكون المحبة في قلوب الخلق لهم إلا بطاعة الله تعالى، حين تجلب تلك المحبة قلوب الخلائق وتربطها بتلك الشخوص الطائعة التي تمشي على الأرض كما في حديث جبريل ﷺ المعروف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١).

وهنا عبر لا يمكن أن تصورها المشاعر والأفلام من خوف سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ أن تكون ذريته، مكروهة في الأرض مفسدة مؤذية للخلق. ومع الأسف أن بعض الناس لا يعير ذلك اهتماماً، بل العناية بالمأكل والمشرب، ومطالب الدنيا غايته السامية ومبلغ علمه، فضعف الجانب التربوي، وضاعت الغاية من الخلق عند كثير من الناس إلا من رحم ربك، فنسأل الله لنا ولكم ذرية طيبة.

(١) متفق عليه.

أدب الابن مع أبيه^(١)

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾

[مريم: ٤٣].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، مالا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت، أنا عالم وأنت جاهل»، أو ليس عندك من العلم شيء؟، وإنما أتى بصيغة أن عندي وعندك علماً، وإن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها».

قلت: أسلوب غاية في الأدب والاحترام لمكانة الأبوة، فياليت بعض شبابنا اليوم يعتني بهذا الأسلوب في دعوته لأقرب الناس إليه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]: «أي إن مت على ما أنت عليه، ويكون «أخاف» بمعنى أعلم، ويجوز أن يكون «أخاف» على بابها؛ فيكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥] أي قريباً في النار».

(١) انظر رسالتي المطبوعة دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن اتبعتني أهدك إلى الصراط المستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، فأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُنَّ﴾ [مريم: ٤٦] فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم على رغبته عنها، وهذا من الجهل» اهـ.

* * *

ومما يستفاد من المواقف السابقة

- ١- تقديم أمر الله تعالى ومحبته على كل أمر، كان ذلك عند الخليل عليه السلام والأبن عليه السلام على حد سواء.
- ٢- الرضى بما قسم الله تعالى في الأمور كلها مع ظاهر مشقتها.
- ٣- الهمة العالية عند الخليل عليه السلام والعزيمة في الامر.
- ٤- التربية العالية المثالية لإبراهيم الخليل عليه السلام.
- ٥- المشاورة ودورها في إيضاح الصورة وانجلاء الغامض منها؛ كي يكون القرار صوابا، وهذا خلاف ماعليه بعض الآباء فإنهم لا يعرفون إلا إصدار الأوامر وإلقاء التعليمات مما يجعل الأبناء في حيرة من أمرهم فيصدر منهم ما لا تُحمد عقباه فيقع في بعض المخالفات مرة أخرى.

(٣)، (٤)

يعقوب ويوسف عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].
 قال الشوكاني رحمه الله تعالى، ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ راجع إلى الملة،
 أي وصى أولاده بهذا الدين القيم والملة السمحة.
 ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوف على إبراهيم أي: وأوصى يعقوب بنيه، كما
 أوصى إبراهيم بنيه.

قلت: نلاحظ الموقف التربوي الذي يحمل بين طياته حسن
 الخطاب والتودد واللين الذي صدر من يعقوب عليه السلام وهو في حالة
 الموت، حيث استغل ذلك الموقف عندما لانت قلوب الأبناء، ومُلئت
 شفقة على الوالد الذي يصارع الموت، فالنفوس مستعدة لسماع
 النصيحة الأخيرة و إذا هو يطلقها بثبات وعزيمة وصدق حيث الآن لا
 مدارات ولا لين ﴿يَبْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
 مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ومما لا شك فيه أن يعقوب عليه السلام قد ناصح أولاده قبل ذلك وهم
 من الذرية المباركة الصالحة، وهذا الموقف يشد أذهاننا إلى هذه القضية
 فالاهتمام بالأبناء والتواصل معهم في التناصح والتوجيه المستمر حتى
 وإن كانوا كباراً في السن أمر لا غنى عنه.

● تصوير للموقف من جانب آخر:

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ذكر أهل التفسير رحمهم الله أن الخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه، وإنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما وصى فتدعون عن علم؟ أي لم تشهدوا، بل أنتم تفترون.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي بعد موتي، وحكي أن يعقوب عليه السلام حين خير كما تُخَيَّرُ الأنبياء، اختار الموت وقال: أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي فجمعهم وقال لهم هذا، فاهتدوا وقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾ فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى.

قلت: فزاد اطمئنانه وقرت عينه بهذا الجواب الكافي ويظهر لنا جلياً الحرص على الذرية كي تصبح صالحة تكمل المسير بعد الممات كما جاء في حديث الرسول ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

(١) رواه مسلم.

● مواقف تربوية :

- ١- أهمية الوصية في حياة المسلم وإنها من هَدْيِ الرسل والأنبياء عليهم السلام ومنهم محمد ﷺ.
- ٢- أهمية التودد واللين ، في عرض الموضوع . ﴿ يَا بَنِي إِدْرِيصَ أَخَفَ ﴾ .
- ٣- مراعاة الوقت المناسب في عرض النصيحة حتى في الأيام الأخيرة .
- ٤- ترتيب الأمور حسب الأهمية في التوجيه ونلاحظ ذلك في ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ حين قدم الجانب التعبدى على الجوانب الأخرى .
- ٥- على الأبناء النجباء طمأنة الوالدين في حالة سيرهم على الطريق المستقيم « نلاحظ ذلك في قول تلك الذرية المباركة » ﴿ تَعْبُدُوا إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ آبَائِكُمْ ﴾ ثبات على الجادة .
- ٦- عدم اليأس من رُوحِ الله في حالة الشدائد والكروب وإن كبرت في عيون الناس .
- ٧- بث روح التفاؤل في الأبناء وعدم اليأس والقنوط .
وإن هذا الكون فيه من المسرات ما يكون سببا في سعادة الدارين .
فإذا عرف الإنسان ربه واتقاه واقتدى بسيرة سيد الثقلين حصل له التوفيق والصلاح في كل شيء .

قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤٤﴾﴾

[يوسف: ٤ - ٥].

يعقوب عليه السلام كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.
 روى البخاري^(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

قال المفسرون: عندما رأى يوسف عليه السلام وهو صغير هذه الرؤيا، ذهل من ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه، فأولها أبوه أنه سينال منزلة عالية في الدنيا والآخرة، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه.

قلت: وهذا موقف تربوي يجب التنبه إليه ففي قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، توجس من الوالد الحنون وقد وقع ما كان يخافه قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

(١) رواه البخاري.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ٨٦ - ٨٧].

توجيه تربوي عملي سمعه الأبناء من الأب الحزين حين رفع شكواه إلى مولاه وكله ثقة به وعدم يأس من رحمته سمع ذلك أولئك الذين هم الفاعلون لذلك الفعل الشنيع الذي أزعج الشيخ الكبير، لكنه لم يصارحهم بذلك حفاظاً على ما تبقى وخوفاً من شتات الأسرة، وفي ذلك درس في عدم التسرع واتخاذ القرار في الحال.

فوائد في قصة يوسف

- ١- الابن النجيب يعرض على والده رؤيا أذهلته وكذلك يكون كل ابن بار قريب من والده يشاكيه في أموره كلها لأخذ الخبرة من تجاربه قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: ٤].
- ٢- تخوف الوالد وخبرته في الحياة ظهرت ﴿يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا﴾ [يوسف: ٥].
- ٣- لم يسلم أحدٌ من وسوسة الشيطان حتى الرسل عليهم السلام مع علو مكانتهم فحريٌّ بمن دونهم أخذ الحذر والحيلة.
- ٤- الأحكام السريعة لها مضرّة في بعض الأوقات فالترث يكون محمود العواقب، «لم يصارح الأبناء بالفعلة الشنيعة».
- ٥- لا يأمن من الفتنة أحد وإن كبر شأنه وظهر صلاحه.

٦- هُمُ الدين والدعوة إليه كان في دم وروح يوسف عليه السلام قال تعالى :
﴿يَصْحَجِي السَّجْنَءَ رَبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩)
[يوسف: ٣٩].

٧ - التسامح من الصفات الحميدة، فهذا هو يصفح عمن أساء إليه ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾.

٨- الله تعالى يصرف عن أوليائه وسوسة الشيطان ويجب دعاءهم
﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

٩- إن بعض القصور عالية البنيان تكون مظنة الفساد.

١٠- بعد انتهاء تلك الفصول في حياته علم أن البقاء لله وحده فأطلق
ذلك الدعاء العظيم المقرون بشكر النعمة والفضل قال تعالى :
﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) [يوسف: ١٠١].

(٥)

موسى عليه السلام وأمه

هو موسى بن عمران عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
 (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ
 هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ [مريم: ٥١ - ٥٣].

ذكره الله بالرسالة والنبوة والإخلاص والتقريب، ومنَّ عليه أن
 جعل أخاه هارون نبياً.

وقد ذكر عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم تقارب منه
 وستين مرة.

● مكانة أم موسى:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ
 فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
 (٧)﴾.

ذكر كثير من أهل التفسير أنَّ هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد وليس
 بوحي نبوة. وهذا من عناية الله تعالى بأوليائه وحفظه لهم والآيات في
 السياق الكريم لا تحتاج إلى إيضاح وبيان، وذكروا كذلك أن الآيات مع
 قلة عددها حملت أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين وهذا من إعجاز
 القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

يقول أهل التفسير: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة. ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي صبرناها وثبتناها ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

● مواقف وعبر:

١- أودع الله تعالى الحنان في قلب كل أم وجعله جلياً فأين المقابل من الأبناء ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا﴾ [القصص: ١٠].

٢- الله تعالى مع أوليائه يربط على قلوبهم في ساعة الشدة ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

٣- تصرفات الوالد نحو ابنه تتعدى الحدود والشعور: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

٤- صلاح الابن يكون سبباً في رفع مقام الوالد في الدارين ورفع مكانته في العالمين، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾.

(٦)، (٧)

داود وسليمان عليهما السلام● داود عليه السلام:

هو عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس، صار الملك إليه عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة، بين خيري الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في سبط آخر، فاجتمعا في داود عليه السلام، هذا وأعطاه الله من المعجزات والفضل ما هو مبسوط في موضعه؛ حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال، لأنه كان له بنون غيره فما كان ليُخَصَّ بالمال دونهم، لقول الرسول ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

مواقف وعبر

١ - انظر إلى تضرع هذا العبد الصالح حين طلب أن يعينه ربه على شكر تلك النعم التي تفضل بها عليه وخصه ووالده بها دون الآخرين، وكذلك يجب أن يكون الموفقون، ولاحظ كذلك حرصه على والديه بأن يُصَيِّرَ لهم عملاً يكون مقبولاً صالحاً، وسبباً في دخول رحمة رب العالمين التي هي أوسع من العمل مهما عظم فنلاحظ هذا المطلب من العبد الصالح حين لم ينس والديه عليهم رضوان الله مع أن والده داود عليه السلام وأمه من العابدات، ومع ذلك ترجى مولاه أن يكونوا من الزمرة الناجية. موقف فيه عبرة . إن الموروث الحقيقي هو ميراث العمل الصالح الذي منه الولد الصالح الطائع لله رب العالمين لحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله» .

فعسى أن يكون أبنائنا صالحين ويخصُّونا بدعوات طيبات في كل الأوقات .



(٨)

زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿كَهَمَّصَ ۚ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ۖ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ﴾ [مريم: ١-٧].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ۖ لَهُ زَوْجُهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَعْبًا وَرَهْبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَدِيعِينَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ﴾ أي ناجى ربه بذلك في محرابه، دليله قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، واختلف في إخفائه هذا النداء، ف قيل إخفاء من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن، ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته وإن لم يُجب لم يعرف بذلك أحد، وقيل مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى. قاله القرطبي رحمه الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴿٥﴾ [مريم: ٥].

﴿خَفْتُ الْمَوْلَى﴾ ومعناه انقطعت بالموت.

﴿الْمَوْلَى﴾ هنا الأقارب وبنو العم والعصبة.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة. خاف أن يرثوا ماله، فأشفق أن يرثه غيرهم وقالت طائفة: إنما كان موالیه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب وليا يقوم بالدين بعده، فهو لم يسأل من يرث ماله، لأن الأنبياء لا تورث، وإنه عليه السلام أراد وراثه العلم والنبوة لا وراثه المال.

قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء، ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة. قال قتادة: جرى له ذلك وهو ابن بضع وسبعين سنة وقبل خمس وتسعين فقد غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، إن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة ونلاحظ تحرز زكريا عليه السلام فقال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، والولد ذكراً كان أم أنثى إن كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة وخرج من الفتنة والعداوة.

وقد دعا النبي ﷺ لأنس خادمه فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته».

قوله تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا بَشَرُكَ بِعُلَمٍ أَسْمُهُ يَحْيَى﴾.

بعد هذا النداء، تضمنت هذه البشرية:

أولاً إجابة دعائه وهي كرامة له ﷺ.

ثانياً: إعطاؤه الولد وسماه تعالى بنفسه (يحيى) قال ابن عباس وغيره لم يسم أحداً قبل يحيى بهذا الاسم، ثالثاً: إن الله تعالى سماه بنفسه، ذكر ذلك القرطبي في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: والله ما أدري ما الحنان.

وروى أيضاً عنه، الحنان: تعطف الله ﷻ عليه بالرحمة، وقال جمهور المفسرين: «الحنان» الشفقة والرحمة والمحبة. ذكره القرطبي. قوله تعالى: ﴿وَزَكَاةً﴾ الزكاة التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر أي جعلناه للناس يهديهم.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي مطيعاً لله تعالى ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يَلْمَ بها، قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البر بمعنى البار وهو كثير البر. ﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً وهذا وصف ليحيى ﷺ بلين الجانب وخفض الجناح.

● ومما يستفاد من قصة زكريا ﷺ:

١- الخوف على الدين هاجس هام مقدم عند الصالحين ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثِ مَنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾ [مريم: ٦].

٢- اللجوء والاعتماد على الله في كل الحالات الإنسانية التي يمر بها الإنسان في المنشط والمكره.

- ٣- أهمية الإسرار في المناجاة ﴿نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ .
- ٤- قدرة الله لا حدود لها تخرج على النواميس المعروفة لدى الخلائق .
- ٥- التأثير بالصالحين ومحاكاة أفعالهم «زكريا كيف لاحظ حالة مريم عليها السلام» .
- ٦- شكوى الحال للمولى تعالى وهو العليم بذلك ليظهر ضعفه وقلة حيلته، وترجي مواطن رحمته ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ .
- ٧- اختيار الكلمات المؤثرة في الدعاء والتخاطب بغير تكلف «وهن العظم، اشتعال الرأس شيبا» .
- ٨- فعل الصالحات ميراث يلحظه الصالحون عند الشدائد ﴿كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .
- ٩- الثقة المطلقة برب العالمين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ [الأنبياء: ٩٠] .
- ١٠- تحرى الزمان والمكان في بث الشكوى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] .
- ١١- الدعاء للولد بالخير، وعدم الدعاء عليه مهما كانت الأحوال، لأن دعاء الوالد مستجاب .

(٩)

مريم وعيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي في خدمة بيت المقدس هذا ما قالته والددة مريم حين ولدتها، وقالت أيضاً ما ذكره تعالى في كتابه الكريم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وقد استجاب لها في هذا كما تقبل منها نذرها.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وروى أحمد (٢/ ٢٨٨) أيضاً - عنه عن النبي ﷺ قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَأُذَكِّرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]... الآيات إلى قوله ﴿لَا هَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩].

وقد ذكر الله تعالى قصة ذلك العبد الموهوب ﷺ على لسانه وهو رضيع بين يدي والدته قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي

(١) أحمد (٢/ ٢٨٨).

الْكَتَبَ ﴿مريم: ٣٠﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿مريم: ٣٢﴾.

فانظر - رعاك الله - إلى هذه الكلمة التي نطق بها عيسى عليه السلام، رداً على النصارى والتي ألهمه الله أياها في أول مواجهة بين الحق والباطل.

والآيات الكريمة السابقة فيها فوائد:

الأولى منها حين أخبر الله أن الله تعالى: آتاه كتاباً كريماً ثم جعله نبياً صالحاً مباركاً حيث حل عليه.

وكذلك تلقى من ربه وصية عظيمة بركنين هما: الصلاة والزكاة وهما من الحقوق الواجبة على المسلم يؤديها لربه وهو سبحانه غنى عنها.

كذلك الوصية بالوالدة خاصة، حق واجب على بني آدم.

ثم ذكر أن الله تعالى مسلماً عليه في ثلاثة مواضع يكون الإنسان أضعف فيها حين مولده، وحين موته، وحين بعثه وحيداً. قال تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿مريم: ٣٣﴾.

● ومن المواقف التربوية التي يمكن أن نستفيد منها الآتي:

(١) إرجاع الفضل لأهله وحسم قضية سوف يكون فيها خلاف لعلم الله السابق فآلهم ذلك المبارك النطق بها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ ﴿مريم: ٣٠﴾.

(٢) الاهتمام بالجانب التعبدى البحت من صلاة وزكاة ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ

وَالزَّكَاةَ ﴿٣١﴾ [مريم: ٣١].

(٣) الوصية بالوالدة نص عليه في هذا الخطاب المبارك.

(٤) من هدي المرسلين والصالحين، الرحمة واللين وطاعة الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

(٥) التفكر في عاقبه الأمور والأطوار التي سوف يمر بها الإنسان، تحتاج إلى تثبت واهتمام.

قال تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].



(١٠)

لقمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

ذكر أهل التفسير أن اسمه لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح وقيل غير ذلك في اسم والده.

قال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة، وقال القرطبي وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان ولياً ولم يكن نبياً وقال بنوته عكرمة والشعبي، وعلى هذا تكون الحكمة النبوة ورجحه القرطبي قال: والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى. وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعقل.

وروى من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه، فمن عليه بالحكمة».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣].

ذكر أهل التفسير أن اسم ابنه ثاران وأنه كان كافراً فما زال يعظه حتى أسلم قال القرطبي وغيره: دل على هذا قوله ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك

على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أين لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]».

واختلف في قوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل أنه من كلام لقمان. وقيل هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصل به في تأكيد المعنى.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤].

قال أهل التفسير: هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه أخبر الله به عنه، قال لقمان لابنه لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصى بهما في طاعتهم مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى. وقيل: أي ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ﴾ [لقمان: ١٣]، فقلنا للقمان فيما آتينا من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه. أي قلنا له اشكر لله، وقلنا له ووصينا الإنسان وقيل: وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً وأمرنا الناس بهذا وأمر لقمان به ابنه، والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص. وعليه جماعة من المفسرين.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

قال أهل التفسير: لما خص تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب. ولأب واحدة. وأشبه ذلك قول الرسول ﷺ: «حين قال له رجل من أبر؟ قال: أمك، قال ثم من قال: أمك، قال: ثم من، قال: أمك قال: ثم من قال: أبوك».

قوله تعالى ﴿وَهَنَّا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفا على ضعف.

قوله تعالى: ﴿وَفَصَّلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، ذكر العلماء أن الناس مجمعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات. اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: ١٤]، المعنى ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي وقيل: قلنا له أن لي ولوالديك، قيل الشكر لله على نعمه الإيمان وللوالدين على نعمه التربية.

قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، فيه دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين والرفق بهما في الدعوة لعل الله يهديهم فتقر عين الولد بذلك.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] وصية لجميع العالمين كأن المأمور الإنسان، وأناب معناه مال ورجع إلى الشيء، وهذا سبيل الأنبياء والصالحين، وحكي أن المأمور سعد لوجود القصة السابقة.

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦].

المعنى: وقال لقمان لابنه يا بني، وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى: وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة، يقال: إن الحس لا يدرك لها ثقلاً إذ لا ترجح ميزانا، إلى أن قال القرطبي: وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً سبحانه وتعالى.

وروى أن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله . فقال لقمان له . ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان : ١٦] .

فما زال ابنه يضطرب حتى مات ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان : ١٦] ، قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاى في التفهيم أي أن قدرة الله تعالى تنال ما يكون في صخرة وما يكون في السماء والأرض .

قال تعالى : ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [لقمان : ١٧] .

قال تعالى : ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان : ١٧] ، وصى ابنه بأعظم الطاعات وهي الصلاة بعد التوحيد هو في نفسه ويزدجر عن المنكر ، فجمع بين الطاعات والفضائل كلها .

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان : ١٧] ، يقتضي حضا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ، فهو إشعار بأن المغير يؤذي أحيانا وقيل أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] ، قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره . وقيل إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ، أي مما عزمه الله وأمر به .

وقيل : إن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين

طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

قال أهل التفسير: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أي لا تعرض عنهم تكبراً عليهم، يقال: أصاب البصير صَعْرٌ وصيد إذا أصابه داء يلوي منه عنقه ثم يقال للمتكبر: فيه صعر وصيد فمعنى. لا تصعر. أي لا تلزم خدك الصعر فمعنى الآية: (ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً بنفسك واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، أي متبختراً متكبراً. وهو النشاط والمشي فرحاً في غير شغل وفي غير حاجة. وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ﴾ [لقمان: ١٩].

قوله ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، لما نهاه عن الخلق الذميم رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله. فقال: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، أي توسط فيه والقصد ما بين الإسراع والبطء، أي لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثب الشطار. وقد روى عن رسول الله ﷺ «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن».

وقال تعالى: ﴿وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، أي انقص منه أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤدي والمراد بذلك كله التواضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]،

أي أقبحها وأوحشها، والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه، وفي الآية الكريمة دليل على تعريف قبيح رفع الصوت في المخاطبة وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ «وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان» وفي الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم.

● مواقف تربوية من قصة لقمان عليه السلام

- ١- الله يهب لمن يشاء لحكمته البالغة ما شاء «لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن الظن، أحب الله تعالى فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة» رواه عبد الله ابن عمر.
- ٢- تقديم الموعظة للأقرب فالأقرب.
- ٣- توجيهات الوالد والمربي تتنوع، فمنها الموعظة ومنها الهجر ومنها أحياناً الضرب.
- ٤- التلطف والتودد في عرض الموعظة مطلب مهم له دوره في الإصلاح لأنه يحرك المشاعر والعواطف ﴿يَبْقَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣].
- ٥- الشرك بالله خطر عظيم يخرج من الملة قال تعالى: ﴿لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١].
- ٦- رب العزة تعالى يوصي بالوالدين لما لهما من الفضل ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤]، ويجعلهما بعد شكره.

- ٧- معاناة الوالدة والحمل الذي تحمله (حملاً - وإرضاعاً - ورعاية) يستحق الشكر والعرفان.
- ٨- وجوب مصاحبة الوالدين بالمودة حتى وإن كانوا على غير الإسلام من الرعاية والنصح لهما.
- ٩- الحث على أن يسلك المرء طريق الصالحين وإن له العاقبة إن فعل ذلك ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].
- ١٠- المثال يقرب المعنى فلقمان يصور لابنه دقه علم الله تعالى؛ لعل ذلك يكون داعياً إلى المراقبة ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ﴾ [لقمان: ١٦].
- ١١- لقمان يأمر ابنه بتلطف بإقامة الصلاة ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ١٧].
- ١٢- لقمان يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ١٣- من يأمر بالمعروف وينه عن المنكر قد يصاب بأذى فواجب عليه الاستعداد والتحمل.
- ١٤- عدم التكبر من سمت الصالحين ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].
- ١٥- البطر والخيلاء من صفات قليل الإيمان.
- ١٦- لقمان الحكيم يرشد إلى أن الله تعالى يمقت المختال الفخور بغير حق.
- ١٧- السكينة في المشي وخفض الصوت من هدي الصالحين.
- ١٨- لقمان يحذر ابنه من الأصوات المرتفعة القبيحة.

(١١)

من المواقف التربوية في حياة الرسول ﷺ

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما ثمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه فقال رسول الله ﷺ: «كخ كخ» إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة» متفق عليه.

● ومن وصايا الرسول ﷺ:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح^(١).

* عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ فكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال لي: «يا غلام، سم الله تعالى وكل بيمينك، وكل مما يليك فما زالت طعمتي، رواه البخاري ومسلم»^(٢).

● وهذا الرسول ﷺ:

يعظ فاطمة رضي الله عنها وهي في بيت علي بن أبي طالب فعن

(١) ت/ وقال حديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه

علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة ليلاً فقال : «ألا تصليان» متفق عليه .
فمع علو مكانته صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هذه الأمور السابقة مع دقتها
وصغرها في أعين الناس ، لعلمه بدورها وأهميتها في تربية النشء فكان
يوجه الغلام الصغير والرجل الكبير والأقربين كفاطمة رضي الله عنها .
وهذا الصديق عليه السلام كذلك يعظ عائشة رضي الله عنها وهي في بيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر كذلك عليه السلام يوجه حفصة رضي الله عنها وهي في
بيت النبوة كما جاء في كتب السيرة .

والذي أحب أن أصل إليه أن الأبناء صغاراً وكباراً وملتزمين
بحاجة إلى التوجيه والإرشاد ، ولا نقول كما يقول عامة الناس ، إذا تزوج
الأبناء والبنات فلسنا بمسؤولين عن توجيههم ونصحهم ، هذا خلاف
تكوين الأسرة المسلمة المترابطة حتى الممات والله المستعان ، والحمد
لله رب العالمين .



نصائح عامة

إخواني نعم الهداية بيد الله جل جلاله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بنفسه ماذا قدمت أنت من الأسباب التي تكفل بإذن الله تعالى صلاح ذريتك؟ وذلك بعد أن رأينا التربية النبوية وفي كتاب الله العزيز في السطور المتواضعة السابقة.

فالذي أراه:

أولاً: اتخاذ أولئك الرسل والأنبياء قدوة والسير على خطاهم وهم المزكون من ربهم.

ثانياً: الاستفادة من خبرات المصلحين الذين اقتبسوا من جذوات أولئك المعصومين.

أيها الأب الكريم... الفاضل:

ليكن معلوماً لديكم أن الابن يحتاج إلى تربية وتوجيه حتى يسير في طريقه على هدي ونور، وليست الأمور بالصدفة؛ فإن تربية الدواجن والحيوانات يقوم بها مختصون يعرفون واجبه، فكيف نفرط في حق أعظم مخلوق على هذه الأرض، وهو الإنسان الخليفة، فلا بد من أن يعي كل أب وكل أم مسؤوليتهم الضخمة فيما استخلفهم الله فيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت^(١) رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته

(١) متفق عليه (خ/ ٣١٧٢) (م/ ١٨٢٩).

والرجل راع في أهله ومسؤول عن رغيته الحديث .

فيا أيها المبارك وأيتها المباركة، إليك بعض التوجيهات التي خرجت من قلوب وأفئدة آباء وأمهات سطروها، انتقيتها لكم على عجلة، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها جميعاً.

فأولاً: من الأمور المهمة أن يغتنم الأبوان مرحلة الصفحة البيضاء، فكل مولود يولد على الفطرة

وقال الشاعر:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا تلين إذا قومتها الخشب
هل كنت تحرص على تعليمه القرآن الكريم؟
هل كنت توقظ في قلبه روح المراقبة لله عز وجل؟
هل حرصت على غرس أهمية الصلاة في نفسه؟ . . . هل . . .
هل .

لا أدري ماذا فعلت أنت!!!

ثانياً: ألا يرى الأولاد في سلوك أبويهم شيئاً يخالف النصائح التي سمعها منهما حتى تكون ثمرة التربية مجدية نافعة، أما الازدواج الذي يقوم بين ما يقوله الآباء وبين ما يفعلون فهو من أكبر أسباب الانحراف ويجعلهم يشكون في القيم والمثل العليا كلها كما قال القائل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ثالثاً: غرس الروح الدينية في نفوسهم وتعظيم أوامر الله تعالى وكذلك حب الرسول ﷺ وتبيان مكانته العظيمة .

رابعاً: لابد أن يكون تفاهم بين الزوجين، فلا يجوز أن يتلقى الطفل أوامر متناقضة لا يدري أيها مصيب، فيصبح الابن متردداً، حتى وإن كبر سنه، يشك في الأوامر كلها متردداً في جبن وخوف.

خامساً: ومن أسس تربية الأولاد، تعدد الوسائل في تقويمهم، فالضرب في سن معينة وعند الضرورة، مع توضيح الخطأ له كي لا يتكرر منه ذلك ولا يصبح في حيرة متسائلاً: لماذا ضربني أبي أو أمي؟ وإذا كبر الابن أو البنت شيئاً قليلاً ضرب الأمثلة له بالأحسن من الفتيان والفتيات، انظر إلى فلان إنه ناجح في دراسته، وفلانة مؤدبة، وفلان أصبح ابنه مهندساً، وفلانة بنتها أصبحت دكتورة. رفعاً للهمة ومعالي الأمور في جنانه.

سادساً: إشراك الأبناء والبنات في اتخاذ بعض القرارات واستشارتهم مع صغر سنهم كي يصبحوا فاعلين عندهم إحساس بالمسؤولية «ينقلون الهم» كما يقال في المثل الشعبي.

ويستحسن تكليفهم ببعض المهام في المنزل، شراء الأغراض من السوق، والدخول في ممارسة الحياة العملية ينجحون مرة ويفشلون أخرى لكن صدقني يستفيدون أشياء كثيرة منها الثقة بالنفس ومعرفة واقع الحياة والمجتمع.

سابعاً: من الأسس العامة في التربية العدل بين الأولاد، فلا يجوز تفضيل الذكر على الأنثى، ولا العكس، والسير في هذا الجانب يجعل بين الأبناء عداوة وحقدًا يمكن أن يصل إلى الوالدين، فيكره الابن والده لحيفه في نظره، وقد حسم الرسول ﷺ هذه المسألة بقوله من حديث

النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحتلت ابني هذا غلاماً كان لي فقال رسول الله ﷺ: «أكل ولدك أعطيتهم مثل هذا» قال: لا. فقال: «أشهد على هذا غيري فإني لا أشهد على جور، اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»^(١).

ثامناً: من الأسس العامة في تربية الأولاد اختيار، الرفقاء الصالحين قال ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»^(٢).

فالنجباء الصالحون تلتقطهم عين الوالد أو الوالدة ويوجهون أبناءهم نحوهم.

تاسعاً: «إشباع حاجاتهم النفسية من حنان، وحب، وبشاشة، ولين جانب ومصادقتهم، والإحساس بهم وسماع شكواهم، وتحطيم جسور الرهبة (سرك في بئر)، فإذا وجدوا ذلك، لم يفروا إلى قرناء السوء، أمرنا بيدنا في بيتنا وبين أحبائنا».

عاشراً: إشغال أوقات الفراغ بما ينفع، الولد طاقة هائلة طموحة بل أحياناً مسعورة، تحتاج إلى تفريغها، ولكن بالنافع والتوجيه السليم، كالشاركة باللجان الخيرية، أو مشاركتهم في الرحلات العائلية وإغنائهم عن التطلع إلى الآخرين، وأعجبني أن بعض الأخوة يجعل مخيم العائلة مجهزاً بالملاعب ووسائل الترفيه لشغل وقت الفراغ.

الحادية عشرة: التغافل وليس الغفلة عن بعض الأمور والسلوكيات التي تصدر منهم؛ فإن كثرة التوجيه والإرشاد المستمر يجعل الابن

(١) البخاري (١٥٥/٥)، (١٥٧) ومسلم (١٦٢٣) وغيرهما بروايات أخرى.

(٢) أبو داود ٤٨٣٣، الترمذي (٥٣٧٩) وغيرهما

متردداً وخاصة إذا كانت الأمور بسيطة كعبث الأطفال والشباب، بل وتزِيلُ الهيبة من المربي لكثرة تعاليمه فيتمرد على الأوامر.

الثانية عشرة: إذا اضطرت إلى ضرب ابنك، وأنت أيتها المباركة، وهرب من دار إلى دار كي يحتمي بها، فلا تلاحقه، الرسالة وصلته منكما، وما بعد الهروب من شجاعة، كفى كفى كفى. لا تفجرا القنبلة.

الثالثة عشرة: الوالد كما يقال سائس كسائس الخيل، عليه الاهتمام بميول الأبناء والبنات، وتنمية ذلك فإن في ذلك شغل لهذه الطاقة المتأججة، والحمد لله أنها في أمر فاضل لا يبخل عليهم على قدر الإمكانيات.

الرابعة عشرة: فتح باب الحوار والمناقشة والجلوس معهم جلسات مفتوحة أمر محمود عواقبه والثناء على المحسن منهم والإشادة به عند الآخرين والتلميح إلى المقصرين «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا».

الخامسة عشرة: تفخيم الأخطاء يجعل الابن والابنة يتمردان وتهون في نفسه الكبيرة، فهذا الوالد يصيح من كل شيء، والوالدة تبكي على الكأس المكسورة.

وهذا الإمام ابن الجوزي رحمه الله في رسالة أسماها (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد): «فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة...»، قلت: انظر إلى حرص السابقين في إسداء النصيحة.

وقال أيضاً ابن القيم: من أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى،

فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينفعوا أنفسهم ولم ينفعوا آباءهم.

أيها الأب الفاضل: كيف ترجو نفع ولدك وإحسانه وأنت قد جلبت له أسباب الشقاء، ومارست أنت أمامه التهاون في أمر الشرع فهو يلحظ ومن الخشية لا يتكلم. قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده منبها له: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقيح عندهم ما تركت». قال ذلك في زمانه الفاضل فكيف اليوم أمام حشد الفضائيات وانفتاح العالم الذي أصبح كالقرية الصغيرة التي يطير فيها الخبر من ساعته.

إن مسؤولية الأب والأخ الأكبر في نفسه عظيمة رهيبة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [التحريم: ٦].

وهذا الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى يوجه كذلك في رسالته «من مشكلات الشباب»^(١).

قال الشيخ ابن عثيمين فيها:

إن أسباب انحراف ومشاكل الشباب كثيرة متنوعة؛ لأن الإنسان في هذه المرحلة يكون على جانب كبير من التطور الجسمي والفكري

(١) بتصرف يسير من رسالة الشيخ رحمه الله تعالى.

والعقلي ثم شرع في سرد أسباب الانحراف ومنها.

١- الفراغ: الفراغ داء قتال للفكر والعقل والطاقات الجسمية؛ لأن النفس لا بد لها من حركة وعمل.

وقال رحمه الله تعالى: «وعلاج ذلك أن يسعى الشاب في تحصيل عمل يناسبه من قرآن أو تجارة أو كتابة أو عمل مباح منظم.

٢- الجفاء والبعد بين الشباب وكبار السن من أهليهم ومن غيرهم قال: فنرى بعض الكبار يشاهدون الانحراف من شبابه فلا يحركون ساكناً آيسين من صلاحهم، فينتج عن ذلك بغض هؤلاء الشباب والنفور منهم وعدم المبالاة بأي حال... وربما حكموا على جميع الشباب وصار لديهم عقدة نفسية من كل شاب... وهذا من أكبر الأخطار التي تحدد بالمجتمعات.

وعلاج ذلك: أن يحاول كل الشباب والكبار إزالة هذه الجفوة والتباعد بينهم، كما أن على الكبار أن يشعروا بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم نحو الشباب وأن يرفعوا اليأس الجاثم على نفوسهم من صلاح الشباب، وتكون هناك محبة وزيارات وتجاوز عن بعض الهفوات كي تمتد جسور الألفة والمحبة والثقة بين الطرفين.

وعلى الشباب أن يضمروا لكبارهم الاحترام وقبول التوجيه وأنهم أدركوا من التجارب وواقع الحياة ما لم يدركه هؤلاء الشباب.

٣- الاتصال بقوم منحرفين ومصاحبتهم، وهذا يؤثر على الشباب في عقله وتفكيره وسلوكه، لذلك جاء عن النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، وقال ﷺ «مثل المجلس السوء كنافخ

الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه رائحة كريهة».

وعلاج ذلك أن يختار الشباب لصحبته من كان ذا خير وصلاح وعقل من أجل أن يكتسب من خبرته وصلاحه فيزن الناس قبل مصاحبتهم بالبحث عن أحوالهم، ولا بأس أن يتدخل الآباء والإخوان في التوجيه والنصح.

٤- قراءة بعض الكتب الهدامة من رسائل وصحف ومجلات؛ مما يشكك المرء في دينه وتجربه إلى الهاوية والكفر والرديلة.

وعلاج ذلك المرض، قراءة الكتب التي تغرس محبة الله ورسوله وتحقق الإيمان والعمل الصالح والاستفادة من تجارب الآخرين، ففراراً من تلك الكتب التي تدل على الفساد.

٥- ظن بعض الشباب أن الإسلام تقييد للحريات وكبت للطاقات فينفر من الإسلام ويعتقده ديناً رجعياً يأخذ بيد أهله إلى الوراء ويحول بينهم وبين التقدم.

وعلاج ذلك:

أن يكشف النقاب عن حقيقة الإسلام، فالإسلام ليس تقييداً للحريات ولكنه تنظيم لها وتوجيه سليم؛ حتى لا تصطدم حرية شخص بحرية آخرين، ولذلك سمي الله الأحكام الدينية حدوداً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالإسلام عفة وكرامة واحترام وصدق، ويكفي أنها كلها طهر وفضيلة، يسير السالك فيها رافع الرأس لا يخاف إلا الله الذي أمره ونهاه، فالإسلام يشجع الطاقات ويدعو إلى العلو والتفكر.

فالإسلام أباح لأبنائه جميع المتع التي لا ضرر فيها على دينه وبدنه وعقله، أباح الأكل والشرب من جميع الطيبات، أباح الألبسة، أباح التمتع بالنساء بالنكاح الشرعي، وفي الكسب كذلك.

قلت: فماذا يريد هؤلاء المرضى الذين لم يعترفوا بأنهم مرضى . هل يريدون الإباحية في كل شيء؟ بل يريدون الانفلات كالحيوان المسعور الذي يعض جنبه، نقول إن شاء الله لا، وألف لا.

* انتهى ما أردت إirاده في هذه الرسالة الموجهة، فإن أصبتُ فمن الله تعالى وله الحمد والشكر، وإن أخطأتُ فمن نفسي والشيطان ونعوذ بالله من ذلك .

* * *

الرسالة الثالثة

«نظرات في سورة الكهف»

جمع وإعداد/ أبي مصعب
سعيد بن عماش السعدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم وتكريظ

بقلم فضيلة الشيخ/

صلاح الدين مقبول أحمد

هذا الكتاب يحتوي على إبراز معالم سورة الكهف، مستعينا بكتب التفسير المختلفة، فجاء جمعاً طيباً مباركاً فيه. فجزى الله أخانا الكبير الشيخ الفاضل أبا مصعب سعيد عماش السعيد حفظه الله ورعاه (جامع هذا الكتاب) خيراً.

فشكراً له على هذا الجمع المناسب والإعداد الطيب.
وهنيئاً له هذا الجهد المبارك مع إرادة المزيد في مواضيع مفيدة.

كتبه محبه في الله

صلاح الدين مقبول أحمد

٢٠٠٥/٥/٥ م.

يوم الخميس

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً.

والصلاة والسلام على البشير النذير سيد الدعاة وإمام المرسلين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده، الخير وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين. بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل دينه حتى أتاه اليقين.

أما بعد:

فقد لقي هذا الكتاب - بفضل الله ومنه شيئاً من القبول فنفدت طبعته الأولى.

وها هي طبعته الثانية (وهي تتميز بزيادات مفيدة وتنقيحات فريدة، وتم كذلك تصحيح الملازم بدقة وعناية.

هذا وأتضرع إلى الله تعالى التقدير أن يتقبل عملي هذا قبولاً حسناً خالصاً لوجهه الكريم

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
[آل عمران : ١٢٠] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ٤] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾
[الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

فالحمد لله الذي جعل العلم شعاراً لهذه الأمة المباركة فأنزل به أول آياته نورا وتبيانا للسالكين ، وأرسل به نبينا محمداً عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم داعياً وهادياً إلى سبيل ربه القويم .

إن الكتب المصنفة في التفسير على ما فيها من الحق المبين إلا أنها قد حوت في أحيانٍ كثيرة الغث والسمين والباطل الواضح البُطلان .

والعلم إما نقل مصدق عن معصوم وإما قول عليه دليل معلوم،
والحاجة ماسة إلى فهم القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين .
هذا وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «إن القرآن فيه ما هو
بين بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض
الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطلع الإنسان على
عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها . . . إلى أن قال عليه رحمة الله : وإذا
تبين معنى آية تبين معنى نظائرها» . اهـ

قلت : وهذا هو الذي دعاني إلى أن أعطي إخواني اطلاعات في
كتب التفسير، خاصة أن هذا الباب لصعوبته قل من ولج فيه لخطورته .
وقد تجنبه بعض السلف تورعاً وخوفاً من القول على الله بغير علم، أما
أنا فكان دوري النقل والجمع لثمرات أينعت في كتب السلف وقد
جعلتها في متناول يد طالب الحق بعد ما كانت في رياض متباعدة .
وهناك بواعثُ جمة واعتباراتُ شتى تجعل المرء ينظر في سورة
الكهف ويُدِمْ النظر فيها، فالسورة تشتمل على عجائب فريدة ومفاوز
بعيدة من المعاني وتوجيهات سديدة وعظات بالغة رشيدة، كما أنها
تنطوي على صُورٍ مشرقة رائعة تمثل لنا عظمة الخالق سبحانه وتذكر
بوحدايته وقدرته وحكمته في تدبير الكون .

وهي السورة التي اعتاد كثيرٌ من الناس قراءتها كل يوم جمعة وقد
وجدت في الحديث النبوي الشريف الحث على قراءتها وحفظها، وأنَّ
ذلك يعصم من الدجال، وتساءلت هل في هذه السورة من المعاني
والحقائق والتنبهات والزواجر ما يعصم من هذه الفتنة الكبرى التي قال

عنها ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»^(١) ولماذا خص رسول الله ﷺ - وهو أعرف خلق الله بكتاب الله وأسراره وعلومه - هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن؟ وقد وجدت النفس تشاق إلى معرفة سر هذا التخصيص والصلة المعنوية بينها وبين هذه العصمة التي أخبر عنها النبي ﷺ، ففي القرآن الكريم سور من القصار والطوال عدل عنها النبي ﷺ إلى هذه السورة وخصها بهذه الخاصية العظيمة، فكانت الفرصة سانحة لي عندما طلب مني بعض الإخوة تدارس هذه السورة الكريمة فزاد البرهان والإعجاب وظهر نور الصباح أكثر سطوعاً.

وقد تناولت السورة الكريمة أربع قصص من أعظم القصص القرآني وهي:

(أولاً) قصة أهل الكهف وهي تحكي لنا قصة هؤلاء الشباب الذين فروا بدينهم ولجأوا إلى الغار.

(ثانياً): قصة الرجلين من بني إسرائيل أحدهما مؤمن، والآخر كافر ورثا مالا عن أبيهما الأول اشترى حديقة جميلة بها زرع ونخل وماء فتباهى بماله وحديقته وأشرك بالله فأهلكه الله تعالى.

والثاني: أنفق كل ماله في سبيل الله فأدخله الله الجنة.

ثالثاً: قصة موسى ﷺ مع الخضر ﷺ وهي قصة توضح التواضع في طلب العلم.

(رابعاً) قصة ذي القرنين وهو ملك استطاع بالتقوى والإيمان

(١) رواه مسلم كتاب الفتن (٢٩٤٦).

والعمل الصالح أن يمد سلطانه على المعمورة كلها.

فمما قاله الشيخ محمد الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ (في إحدى خواطره حول سورة الكهف): «وإننا نتوقف كثيراً عند اسم السورة، الاسم هو سورة الكهف، والكهف كما نعرفه هو فجوة داخلية في الجبل، ولقد شاء الله تعالى أن يخلق في أماكن كثيرة كهوفاً، ولا تستطيع وأنت خارج هذه الفجوة أن تعرف ما بداخلها ومن هنا فإن اسم السورة يجب ألا يمر علينا دون أن نفكر فيه، ونعلم أن الله قد جاء فيها بكهوف معنوية وحقائق هامة، فمثلاً خرق السفينة التي يملكها مساكين كان عملاً إذا نظرنا إلى ظاهره شراً، ولكن حقيقته كانت خيراً؛ لأنها أنقذت سفينة المساكين من ملك ظالم، كان سيغتصبها، وقَتَلَ الطفل ظاهره شر ولكن باطنه حَفِظَ لِلْأُمِّ وَالْأَبِ الصَّالِحِينَ، ورزقهما بطفل تقي يحفظ لهما صلاحهما، ولا يرهقهما طغياناً وكفراً وبناء الجدار لأهل قرية من اللئام، الذين رفضوا أن يطعموا شخصين غريبين جائعين طلباً الطعام، هو عمل لا يتفق مع منطق الخير، ولكن الحقيقة أن هذا الجدار قد بُني ليحفظ لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحاً ليحفظ لهما كنزاً كان تحت هذا الجدار حتى يبلغ الطفلان أشدهما ويستخرجا كنزهما، ولو تهدم الجدار لأخذ أصحاب القرية من اللئام الكنز وحُرم الطفلان منه، فالله يريد أن يخبرنا في هذه السورة بحقائق مستورة عنا قد لا يصل إليها العقل البشري فالذي يبدو لنا شراً قد يكون في قضاء الله خيراً والعكس صحيح.

ومن الملاحظ أنه ليس المقصود في القرآن الكريم تحديد أعلام القصص أي أن يُحدّد شخصٌ بذاته لأن التشخيص قد يفسد القضية فهو كتاب هداية وليس كتاب قصص عابرة، وإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلاً؟ من هم أصحاب الجنتين؟ ومن هو ذو القرنين بالتحديد؟... إلى آخر الشخصيات التي ذكرت في القرآن الكريم، فإننا نبعد عن الحقيقة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها، وذلك أن هذه الشخصيات قد تتكرر في كل زمان ومكان «فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

فهي قصص ضرورية لكل عصر، والعبرة تأتي بالشيوع فمثلاً عندما يضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط... فهو لا يعني هاتين المرأتين بالذات، وإنما يعني والله أعلم كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخونه (أي تخالف شرع الله تعالى) وعندما يضرب الله المثل بامرأة فرعون فإنما يعني كل امرأة مؤمنة زوجها كافر وهذا يتكرر في كل عصر، والحادثة الوحيدة التي لم تتكرر هي قصة مريم ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ﴾ [التحريم: ١٢] نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر، إذن فالتشخيص في القرآن الكريم ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص، ومن هنا فإننا حين نتحدث عن ذي القرنين. نتحدث عن رجل مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذي القرنين وكذلك مثل ما حصل في شخوص أصحاب الكهف والبعد عن الخوض في أمور تجفف منابع القصة في مثل اسم كلبهم ولونه... وما إلى ذلك» اهـ.

فالشخص في القرآن نماذج قد تتكرر في كل زمان ومكان،
ويؤخذ من ذكرها العبرة والموعظة. والله تعالى أعلم.



توطئة

وهناك حقائق لا بد من معرفتها قبل البدء في تفسير السورة الكريمة وهي مستقاة من سورة الكهف وقد ذكرها أهل العلم عليهم رحمة الله تعالى:

- ١- قدرة الله تعالى على مخالفة سنن الكون ونواميس الحياة التي يألفها الناس وصنع الخوارق والمعجزات التي لا يدرك حكمها وأسرارها إلا الله.
- ٢- تقرير أمر البعث واليوم الآخر وما فيه من بأس شديد للعصاة والكافرين، وأجر عظيم للمؤمنين والملتقين.
- ٣- ابتلاء البشر ولاسيما الكفار وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بزيينة الدنيا وزخارفها.
- ٤- الصراع الدائم بين الحق والباطل والخير والشر والإيمان والكفر.
- ٥- في السورة الكريمة تسليية للرسول ﷺ وللمؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذى كفار قريش، وحثهم على التمسك بالدين والصبر وإنه لا بد من الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر والطمأنينة بعد القلق.
- ٦- في السورة الكريمة تنويه بأثر الإيمان بالله في النفوس التي تحتاج إلى الهجرة فراراً من بطش الحكام الظالمين وعدم الرضوخ لهم.
- ٧- وفي السورة تبيان للناس بأن ما صنع الله جل شأنه بأصحاب الكهف ليس بأعرب من سائر آياته، فخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان نفسه وسائر المخلوقات أعظم.
- ٨- أكدت السورة الكريمة على أن الله يستجيب للمؤمنين الصادقين دعاءهم

ويسبط عليهم لواء رحمته، ويهيئ لهم أسباب الرزق ووسائل المعيشة وطرق النجاة كما وقع لأصحاب الكهف.

٩ - وفي السورة تقرير للحقيقة الثابتة في التدليل على وجود الإله الواحد وفساد اعتقاد أهل الشرك وعبداء الأوثان الذين جاء ذكرهم على لسان أولئك الفتية بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً...﴾ الآية [الكهف: ١٥].

١٠ - وفي السورة إشارة إلى أن ما يصيب الإنسان في هذه الدنيا من خير وشر إنما يتم بمشيئة الله تعالى وتديره لحكمة يريد بها فهو المهيم والمهيئ للأسباب كما وقع لصاحب الجنين.

١١ - وفي السورة نهي للإنسان عن الخوض في الأمور الغيبية التي هي من خصائص العزة الإلهية، وعدم المجادلة والمرء في الأمور التي يعجز الإنسان عن إدراكها في مثل عدد أصحاب الكهف وفي قصة موسى ﷺ مع العبد الصالح.

١٢ - وفي السورة تذكير للناس بأن لا يرفعوا أمراً ولا يقدموا على عمل إلا بإذنه وأن يذكروه في حالة النسيان ويطلبوا هدايته وتوفيقه على الدوام.

١٣ - بالإضافة إلى ما سبق فقد لاح لنا الارتباط الوثيق بين أول سورة الكهف وآخرها من حيث إثبات الوجدانية، فقد جاء في مستهل السورة الكريمة إنذار إلى أولئك الذين لا يؤمنون بهذه الوجدانية ويزعمون أن لله تعالى ولداً... وفي النهاية الأخيرة من السورة تأكيد لهذه الوجدانية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ...﴾ [الكهف: ١١٠].

المنهج الذي سرت عليه في إعداد هذه الرسالة

بعد الاعتماد على الله تعالى :

اخترت أحد كتب التفسير وجعلته أصلاً ومرجعاً ثم بعد ذلك كل ما وجدته من فائدة تستحق أن تذكر دَوَّنْتُها في مكانها الذي أراه مناسباً، وقد أطرحت مالا يتفق مع المنهج الذي أسير عليه من الروايات والإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والقصص التي ليس لها سند يمكن الاعتماد عليه.

ثم قمت بعزو الآيات الكريمة إلى مواضعها في الكتاب العزيز وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

وأطلت النفس في المقدمة فتلاحظ كأني بها أجملت القصة مع الإشارة إلى مواضع متأخرة في السورة الكريمة تبهر العقل وتنبه القارئ وتعطيه فوائد أرى أنها قيمة لا بد من جنيها مقدماً إتماماً للفائدة.

والله أسأل أن ينفعني به ومن قرأ ونظر وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم والله حسبنا ونعم الوكيل.



مصدر فضائلها

١- عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: ذكر الرسول صلوات الله عليه وآله وسلم الدجال فقال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فأمروا حجيجه نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، فإنها جواركم من فتنته»^(١).

٢- عن أبي الدرداء رضي الله عنه يرويه عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلم: «من حفظ أول عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنه الدجال»^(٢).

٣- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»^(٣).

٤- ذكر البخاري في فضل سورة الكهف عن البراء رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر فلما أصبح أتى النبي صلوات الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له، فقال: «تلك السكينة نزلت بالقرآن»^(٤).

وهناك أحاديث وآثار كثيرة تحث على قراءتها وتدل على فضائلها وفيما ذكر كفاية.

(١) «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٣٦٣١).

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهم.

(٣) رواه الحاكم والدارقطني، صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٤) «البخاري» (٥٠١١).

ويلوح لنا أن سبب العصمة من فتنة الدجال لمن وفقه الله لتلاوة هذه السورة الشريفة أو بعض آياتها لما تنطوي عليه من الأدلة التي تُبرهن على عظمة الخالق وقدرته وحكمته في تدبير الكون والاعتماد عليه في كل شأن من شئون الحياة فهي تزود قارئها بالإيمان الصحيح الذي يحميه من أضاليل الدجال.



أسباب النزول^(١)

«يحاول بعض المفسرين الأقدمين أن يربطوا بعض السور بأسباب نزولها مع أن جميع السور التي يشتمل عليها القرآن الكريم تهدف إلى مدى الإرشاد وتهذيب النفوس على مدى العصور وهي موجهة إلى الناس كافة وإلى جميع الأجيال، وقد أشار إلى ذلك كثير من علماء المسلمين الضالعين في فهم معاني الكتاب المبين حيث ذكر الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي في كتابه «الفوز الكبير في أصول التفسير» إذ قال: «وعامة المفسرين يربطون كل آية من آيات المخاصمة وآيات الأحكام بقصة ويقصدون أن تلك القصة كانت سبب نزولها والمحقق أن الغاية لأي سبب من نزول القرآن هي القضاء على العقائد والأعمال الفاسدة وتذكير الناس» اهـ.

وحول نزول سورة الكهف فقد روى معظم المفسرين رواية عن محمد بن إسحاق عن سعيد بن منصور وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما خلاصتها: أن النفرين الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط أنفذهما كفار قريش إلى أحبار اليهود في المدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن النبي ﷺ، وقالوا لهم ما قالت قريش، فقال أحبار اليهود: أسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن

(١) موقع أهل الكهف وظهور المعجزة القرآنية الكبرى، محمد تيسير طيبان.

لم يفعل فهو رجل متقول . . . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. وقصا عليهم القصة، وجاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه فقال: «أخبركم بما سألتهم عنه غدا» ولم يستثن^(١) فانصرفوا عنه فمكث النبي ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا بآية حتى أرجف أهل مكة وتكلموا في ذلك فشق على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبريل عن الله سبحانه بسورة الكهف وبما سألوه عن أمر الفتية والرجل الطواف وأنزل عليه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٥]. قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: «لقد احتبست عني يا جبريل» فقال جبرائيل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ . . . الآية [مريم: ٦٤].



(١) أي أنه ﷺ لم يقل إن شاء الله.

مكان الكهف^(١)

قال محمد تيسير رَحِمَهُ اللهُ مؤلف كتاب (أهل الكهف):

«وعلى الرغم مما ذهب إليه معظم المفسرين والمؤرخين المسلمين نقلاً عن المصادر المسيحية عن أن كهف «الرقيم» موجود في «أفسوس» فهناك عدد لا يستهان به من الصحابة والأمراء والقواد حتى المفسرين والمؤرخين يؤكدون وجود الكهف قرب عَمَّان».

وقد وردت كلمتي الكهف والرقيم على ألسنة القوم في الجزيرة العربية ففي شعر لامية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف هجد
فقد كان هذا الشاعر على دين أهل الكتاب وعرف القصة منهم.

وجاء في بعض التفاسير أن سعيد بن جبير روى عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقال ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله تعالى ذلك عن من هو خير منك، فقال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ [الكهف: ١٨] فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم. فبعث رجالاً وقال: اذهبوا. فلما دخلوا وانتظروا بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم.

(١) المصدر السابق

وفي رواية أخرى لعكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما غزا مع حبيب بن سلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس رضي الله عنهما : «لقد ذهب عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة» ويضيف القرطبي في تفسيره إلى هذه الرواية أن راهباً سمع قول ابن عباس رضي الله عنهما فقال : ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا فقليل له هذا ابن عم نبينا ﷺ .

وهذه الروايات تدل على أن موقع الكهف والرقيم كان موجوداً في صدر الإسلام وأن رجالاً من الصحابة الذين ورد ذكرهم قد مروا من هذه المنطقة دون غيرها.



خلاصة قصة أصحاب الكهف^(١)

ذكر بعض أهل التفسير أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى «طرطوس» بعد زمن عيسى عليه السلام، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: ١٤] فقال لهم: إنكم فتیان حديثة أسنانكم وقد أخرجتكم إلى الغد لتروا رأيكم. فهربوا ليلاً ومروا براع معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح أوا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنّده، فلما وصلوا إلى الكهف، هابه الرجال وفرعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً. وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين - وهم لا يدرون - ثلاثمائة وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم ناموا يوماً أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه: لعلني أخطأت الطريق إلى البلدة. ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟

(١) المصدر السابق

واجتمع الناس وأخذوا ينظرون إلى تلك النقود ويعجبون، ثم قالوا: من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً؟ فقال: لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي .

قالوا له: إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس . قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة . قال: والله ما يصدقني أحد بما أقوله: لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي . فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمناً صالحاً - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس: ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .



مع السورة الكريمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا
لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

عَلَّمَ اللَّهُ عباده، وفَقَّههم كيف يشنون عليه، ويحمدونه على جزيل
نعمائه عليهم، وهي نعمة الإسلام.

والحمد: هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبدأ
بالحمد كتمهيد لأمر جليل. وأجلُّ نعمة نحمد الله عليها على الإطلاق
هو إنزال الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ. فحمد الله
تعالى نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول ﷺ
إليهم، وهو من جنسهم.

ثم وصف هذا الكتاب بوصفين عظيمين، فنفي صفة العوج،
وأثبت صفة الاستقامة، وذلك غاية في الكمال.

فنفي العوج يلزم أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه
ظلم، ولا أمور لا يمكن إدراكها بالفكر والبصيرة السليمة، وليس فيه
عيب أو تناقض، أي: لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من
جهة المعاني، أخباره صدق، وأحكامه عدل، أما قوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عِوَجًا﴾ فهي نكرة في سياق النفي فهي تعم جميع أنواع العوج.

وهناك سؤال: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ . . . قال العلماء: فائدته التأكيد، فربّ مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح، وإثبات الاستقامة يلزم أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبار التي تملأ القلوب والنفوس معرفة وإيماناً وأن أوامره ونواهيه تُزكي النفس وتُطهرها.

ومعنى كلمة ﴿قِيَمًا﴾ قيماً على سائر الكتب مصداقاً لها شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد، وما لا بد لهم منه في الشرائع، وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

﴿لِيُنْذِرَ﴾ الإنذار: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، أي لينذر بهذا القرآن عقابه الذي يوقعه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، نسأل الله العافية في الدارين.

فمن نعمته وكرمه وسعة حلمه أنْ خَوَّفَ عباده وأنذرهم، ولم يأخذهم بغتة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبادُ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والبشارة تكون في أمرٍ سارٍ محبوبٍ إلى النفس، وهذا أسلوب من أساليب القرآن الكريم في عرض القضايا، ترهيب وترغيب «أنذر وبشر».

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿ي﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

أي وأنزل الله على عبده الكتاب الذي من غايات إنزاله تبشير المؤمنين وهم العاملون للصالحات التي يحبها الله ورسوله . ومعلوم أن العمل لا يكون صالحاً إلا بأمرين :

١- أن يكون العمل مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ .

٢- أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله ، أي : أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة ؛ لأن العمل كالسقف والعقيدة كالأساس .

وقد وعدهم بأحسن الجزاء الكامل ، فنعيمهم لا يزول عنهم ، ولا يزولون عنه ، بل هو في كل وقت متزايد .

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من جميع الطوائف من اليهود والنصارى والمشركين ، فقد قالت اليهود : عزيز ابن الله .

وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

وقال بعض العرب : الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عامٌ ، وهذا خاص في الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة .

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ ثم بين الله تعالى أنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس الخبيثة تكبراً واستعلاءً ورداً للحق من جميع الوجوه ، قال البيضاوي رحمه الله : «خصهم بالذكر ، وكرر الإنذار ، استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يكرر المُنذر به واستغنى بتقديم ذكره» .

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عظمت في القبح والشناعة

وأيُّ قبح من نسب الولد له تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومن الملاحظ أسلوب القرآن الكريم في إبطال هذه الحجة الواهية بالتدرج المنطقي الذي يمكن أن يدركه كل إنسان حيث إنه:

أولاً: نفى علمهم وعلم آبائهم.

ثانياً: إنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

ثالثاً: ذكر مرتبته من القبح وهو الكذب المنافي للصدق.

رابعاً: هذه المقالة خرجت من أفواههم أما قلوبهم فعندها العلم بوحداية الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأُتِيَقَنَّهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].



﴿فَلَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

لعل تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق من المحذور.
قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
حيث كان ﷺ يُسرُّ بهداية الناس، ويتألم شفقة على المخالفين
للشرع، فأمره تعالى بأن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا
يؤمنون بهذا الكتاب العظيم كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَّفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾
[فاطر: ٨].

﴿بَئِيعٌ نَّفْسِكَ﴾ أي مُهلكها غماً وأسفاً عليهم، وهؤلاء لو علم
الله فيهم خيراً لهداهم، فأما أجرك فقد وجب إن شاء الله، وفي هذا
درس للدعاة. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي الآية تسلية للرسول ﷺ، فإن الداعي إلى صراط الله
المستقيم عليه التبليغ والسعي بكل سبب شرعي، يوصل إلى الهداية،
ونفي الشبهات، وكبح الشهوات بالأمور الفاضلات مع التوكل عليه فإن
اهتدوا فالحمد لله، وإلا فلا حول ولا قوة إلا بالله.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ

فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد»^(١).

وهو النبي الموحى إليه، فما أعظم القرآن وأسلوبه وطريقته، وفي الحقيقة أن الالتفات إلى الكم مضعف للنفس هادم للقوى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١-٢٢].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ (ما) و(زينة) مفعولان، يخبر الله تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض زينة لهذه الأرض فتنة واختباراً، وقد روى عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الزينة الخلفاء والأمرء. وروى عن مجاهد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: العلماء زينة الأرض. والقول بالعموم أولى، وقد أخرج مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَخْرُجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قال: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض» وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَصْرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ مَاذَا تَعْلَمُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢).

ومعلوم أن الأرض لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان لولا أن الله هيأها وزينها بوسائل: المآكل والمشارب والمناظر البهيجة وراحت النفوس، كي يعبد الإنسان ربّه سبحانه وتعالى في هذه الأرض. ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبرهم ونفتنهم بزخارفها

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان.

(٢) رواه مسلم كتاب الرقائق.

السابقة، وفي وسط هذه الصراعات والشهوات يظهر أخلص العمل وأحسنه، وهذا - والله أعلم - المقصود من الخلق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهو الذي يحبه الله ويجزي عليه بالحسنات في دار رحمته والعمل الذي يحبه الله ما كان خالصاً وموافقاً لشرعه المطهر.

﴿وَلِنَّا لَجَعَلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أمّا الباقي من الزينة فسوف يذهب ويزول وتعود الأرض يابسة لا نبات فيها؛ وقد ذهبت لذاتها، وهذه حقيقة الدنيا قد جلاها الله لنا كأنها رأي العين، رحمة بنا، ولكن هناك من اغتر بها.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧] ومن صحبوا الدنيا صحبة البهائم وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون بمعرفته، فإذا حضر أحدهم الموت قلق لخراب ذاته وإفلاسه وندمه في التفريط، وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها جعلها منزل عبور، فهذا بآمن المنازل عند الله تعالى.

﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ .

بَيِّنَ الشَّنْقِيطِي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ أَنَّ ﴿أَمَّ حَسِبْتَ﴾ تَأْتِي عَلَى مَعْنَيْنِ :

المعنى الأول: (بل حسبت أن أصحاب الكهف . . .) .
والمعنى الثاني: (بل أحسبت أن أصحاب الكهف . . .) للإِنْكَارِ
وهذا عليه أكثر أهل العلم .

فيقول تعالى: يا محمد إن قصة أصحاب الكهف على غرابتها ليست هي أعجب آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوقه، وإن جنسها كثير جداً، فالوقوف منها وحدها في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل .

﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ وإضافتهم إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل والرقيم أي الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم لملازمتهم له دهرًا طويلاً حيث ذكر قصتهم مجملة وفصلها بعد ذلك .
قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة: غسلين وحنان وأواه والرقيم . وقال ابن عباس: الرقيم لوح رصاص . وقال كعب: إنها قرية . وقال مجاهد: الرقيم واد . وقال السدي: الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف .

ثم فصل الله تعالى قصتهم فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: لجأ الشباب إلى الغار، يريدون بذلك التحصن من فتنة قومهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ على لسان واحد أو قالوا ذلك جميعهم، لجأوا إلى الله وسألوه رحمة وتشيتاً وحفظاً من الشرور، وأن ييسر لهم كل سبب يوصل إلى الرشد، وطلبوا من الله أن يصلح أمرهم.

ومن الملاحظ أن هؤلاء الفتية جمعوا بين الفرار من الفتنة، والاعتماد على الله والتوكل عليه، وقد استجاب الله لدعائهم وقبض لهم ما لم يكن في الحساب.

﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِم فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ قال القرطبي «عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصیحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله» اهـ.

حيث أنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي نومهم هذا فوائد كبيرة منها:

١- حفظ القلوب من الاضطراب والخوف.

٢- حفظهم من قومهم.

وفي الحقيقة يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا خصَّ الله تعالى الأذن بالضرب دون سائر الحواس.

هذه معجزة، فالله يريد أن يخبرنا أن الشيء الوحيد الذي لا يكاد ينام هو الأذن، فأنت حين تغمض عينيك لا ترى، ولكنك لا تستطيع أن تسدَّ أو تُصمَّ أذنيك أبداً. والآذان تظل مفتوحة تؤدي وظيفتها سواء أردت أو لم تُرد، فالله تعالى يلفت نظر الإنسان إلى أن الأذن لا تكاد

تنام، إنها أداة الاستدعاء، ولو أننا فصلنا الأذن عن ضوضاء الدنيا، فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة، ولعل هذا السر في قوله ﴿فَضَرَبْنَا﴾.

ويزيد الأمر وضوحاً الحديث، قال رسول الله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنيه»^(١).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ البعث هو التحريك من سكون.

بين الله تعالى أن بين نومهم ومبعثهم زمناً طويلاً، ولذلك جاءت (ثم) التي تدل على العطف مع التراخي.

ولعل سائلاً يسأل ما الهدف من البعث بعد هذه المدة الطويلة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً قال تعالى مبيناً ذلك:

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَتَى وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لتحصل الفائدة للناس فيعتبر الخلق، ولإثبات حقيقة أن البعث حق، وهذا مثال له، وأنه ممكن الحدوث، والعود من العدم. ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي: نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه سبحانه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه، فلو استمروا على نومهم لم تحصل الفائدة من قصتهم، والحزبان إما أهل الكهف فيما بينهم: أصبحوا فريقين واختلفوا في فترة بقائهم، والقول الآخر أهل الكهف وأهل القرية فريق مقابل.

(١) رواه مسلم (٧٧٤).

﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ءِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِلَهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق الذي لا شك فيه ولا شبهة بوجه من الوجوه، ويعطي رسول الله ﷺ المبادرة والتصدير.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ هذه بعض صفاتهم أنهم شباب آمنوا بالله وحده من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم فزادهم هدى، وربط على قلوبهم أي شد عليها، فالقلوب في مثل هذا الموقف تحتاج إلى رباط وعزم وشدة وقوة صبر حيث اتخذ الفتية قراراً خطيراً من مخالفة للأهل والعشيرة، وتعرض لمواطن الأذى ولكن العون دائماً من الله تعالى كما قال:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَيْنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاموا غيرة على الدين، ويحتمل أيضاً أن يكون هذا وصف لمقامهم بين يدي الملك الكافر، ثانياً: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى، ثالثاً: إنهم أبناء عظماء تلك المدينة

فخرجوا واجتمعوا خارج المدينة، وقال هؤلاء الفتية: الله الذي خلقنا ورزقنا ودبرنا، وهو ربنا خالق السماوات والأرض لا تلك الأصنام والأوثان، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ولهذا قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة بعد ما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز العبادة إلا له، والشطط هو الميل العظيم عن الحق.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بث هؤلاء الفتية شكواهم من قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله وتمنوا كذلك أن يأتي قومهم بحجة أو برهان على فعلهم، وهم يعلمون حقيقة أن قومهم لا يستطيعون ذلك وما فعله قومهم افتراء منهم على الله وكذب، وهذا أعظم الظلم قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤].



﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجر الأهل والبنين والأوطان والأموال خوف الفتنة، وقد خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وكذلك هاجر الأصحاب، وجلس ﷺ في الغار، الفرار من الظالم خوفاً على الدين من سنن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلم وذلك من شدة تعلقهم بدينهم وحبهم له، وقال العلماء عليهم رحمة الله: الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل، والرباط، ومرات يكون في البيوت ومع ذلك روى البغوي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وأخرج البخاري عن النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» والذي يظهر - والله أعلم - من السياق الكريم: أنَّ الفتية قال بعضهم لبعض: إذا حصل واعتزلتم قومكم في أجسامكم وأبدانكم

ينبغي عليكم البحث عن أسباب تقيكم شرهم لأنه لا سبيل لكم إلى قتالهم ولا تستطيعون البقاء بينهم، فالتجئوا إلى الكهف واختبئوا فيه لعل الله ينشر لكم من رحمته، ويجعل لكم مرفقاً.

ولصدقهم في اللجوء إليه تعالى فقد حفظهم وجعلهم من آياته على خلقه.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ والمكلفين، حيث ذكر الله أنه أعدّ لهم مكاناً في غاية الرفق، وفيه من وسائل الصيانة ما حكاها الله لنا في كتابه العزيز، فيسرّ لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنهم يميناً وعند غروبها تميل عنهم شمالاً، فلم يَنَلْهُمْ حرُّها، فتنفسد أبدانهم بها، وقد ذكر بعض أهل العلم وصفاً لمكانهم إنهم في زاوية وأنّ هناك حواجز طبيعية عن الشمس.

وأنهم في مكان تصيبه الشمس، فَمَنْعُ ضوءِ الشمسِ عمن لو وقع عليهم على وجهٍ حُرِقَ في العادة كرامةً لهم، والقرينة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

﴿تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ الزَّوْرُ الميل، ومنها: الزيارة لأن الزائر يميل إلى المزور.

قال عنترة العبسي:

فازوّر من وقع القنا بلبانه وشكى إليّ بعبرة وتحمم
﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

أي: في الكهف في مكان متسع بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فهدّوا إلى الكهف أو الفجوة أو الإيمان. ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ

تَجِدَ لَهُمْ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٢٢٥﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، لأن الله حكم عليه بالضلال عدلاً منه ولا راداً لحكمه.

﴿وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: تظنهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال بعض المفسرين: وذلك لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد.

﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ نجد أن الله تعالى سيعث هؤلاء الفتية كآية من آياته ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرُقَاد الطويل فنجد أننا في هذا العصر إذا أصيب أحدٌ بمرض يتطلب رقاداً طويلاً. فإن الأطباء يحذرون من أن المريض يأخذ وضعاً معيناً دائماً، فيُوصي الأطباء بأن يُقلب يميناً ويساراً حتى لا يصاب جسمه بالقروح أو يحدث له انسداد في الدورة الدموية في القدمين أو الجزء الأسفل من الجسم مع العلم أن الله قادر على حفظهم من الأرض من غير تقلب، ولحكمته البالغة أراد أن تجري سننه في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها. ولهذا حفظهم من الأرض بهذه الطريقة.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان في الباب أو فناءه، وأما حفظهم من الناس، فقد أخبر أنه حماهم بالرعب وبالخوف الذي نشره الله تعالى عليهم، فلو شاهدتهم أحد لولّى منهم هرباً وخوفاً مع قربهم من المدينة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومن الفوائد ما ذكره القرطبي في جامع الأحكام:

إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحيين للصالحين بل في ذلك تسلية وأنس للمؤمنين .

وقد جاء في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه : بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال : يا رسول الله متى الساعة؟ قال رسول الله : ما أعددت لها؟ قال : فكأن الرجل استكان ثم قال : يا رسول الله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله . قال : لله فأنت مع من أحببت وفي رواية قال أنس بن مالك رضي الله عنه فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ : «فأنت مع من أحببت» .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم» .

إلى أن قال القرطبي :

«وهذا الذي تمسك به أنس ، يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ، كَلْبٌ أَحَبَّ قوماً فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام» .

قلت : المحبة الصادقة تحتاج إلى برهان ألا وهو اتباع محمد ﷺ في كل الأمور : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١]



﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ وَكَذَلِكَ أَعَزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾

يقول تعالى: بعثناهم من نومهم الطويل، وقد وقع عندهم اشتباه في فترة مكثهم - فيما بينهم - فقال بعضهم: يوماً. وقال آخرون: نصف يوم. وبعد ذلك أرجعوا الأمر إلى المحيط علمه بكل شيء ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بكم وهذا هو المنهج الصحيح وذلك برد الأمر إلى من هو به عليم، ومن عنده دراية فيه، وعدم ركوب الرأي والعلم الخاص، ولعلَّ الله تعالى أطلعهم على مدة لبثهم ليزدادوا إيماناً واعتماداً وتوكلاً، وتحصل الفائدة من الإيقاظ بعد هذه المدة، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

ثم إنهم بعد ما انتهوا من مناقشة فترة المكث انصرفوا إلى أمر آخر حيث اتفقوا أن يرسلوا أحدهم بالدراهم التي كانت معهم ليشتري لهم

طعاماً من المدينة وفي تزويد الفتية أخاهم بعدد من الوصايا والتحذيرات ما ينم عن حكمة ورجاحة عقولهم، ومن تلك الوصايا: أولاً: أن يحضر طعاماً زكياً حلالاً وهذا هو منهج الحق حتى في أحلك الظروف يكون المقصد والمطلب الشرعي دائماً على البال والخاطر وليس كبعض الناس اليوم يقع في المسألة ثم بعد ذلك يسأل عن الحلال والحرام بعد أن ولج في الشبهة.

ثانياً: أن يكون الطعام على قدر الحاجة ﴿بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

ثالثاً: أن يتلطف في ذهابه وإيابه وأن يختفي في ذلك ويحاول أن لا يشعر به أحد.

رابعاً: ثم إنهم زودوا أخاهم بالمحذور أيضاً من اطلاع غيرهم عليهم وأنهم بين أمرين:

الأمر الأول: الرجم بالحجارة، وهي أبشع قتلة.

الأمر الثاني: وإما فتنتهم عن دينهم، ويرجعونهم في ملة الكفر.

وقد ذكر الشيخ السعدي عليه رحمة الله بعض الفوائد من الآيتين السابقتين:

١- الحث على طلب العلم لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

٢- الأدب فيمن اشتبه عليه الأمر أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده ومنها صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.

٣- جواز أكل الطيبات إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه

﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ حتى قال بعضهم: إنهم من أسر ثرية.

٤- الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواطن الفتن في الدين.

٥- يظهر من سياق الآيات الكريمات شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كل فتنة. اهـ

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ بعد سنين مرّت ملك أهل تلك البلاد رجلٌ صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه، وقالوا إنما تحشر الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: الروح والجسد جميعاً. فكبر ذلك على الملك وبقي حيراناً لا يدري كيف يتبين أمره لهم فتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان فأعثره الله على أهل الكهف. حيث أراد الله تعالى أمراً فيه صلاح للناس فرأى الناس آيات باهرات على قدرته فجعل قصتهم زيادة يقين للمؤمنين، وحجة على الكافرين، ورفعته من شأن أهل الكهف في العالمين.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ عندما اهتدى القوم إلى مكان أصحاب الكهف، أكبروهم وعظم أمرهم في أعين القوم، فأرادوا أن يكرموا الأصحاب، فقال بعضهم لبعض: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ تعظيماً لشأنهم، ومنزلتهم في نفوسهم، وتركوهم، الله أعلم بحالهم.

وقال آخرون وهم الذين ظهر رأيهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

وهذا يدل كذلك على تحول أهل تلك البلاد إلى قوم مؤمنين بالله بخلاف من فرّ منه أولئك الفتية، فأعظم شيء يناسب المقام والمكانة بناء مسجد عندهم نعبد الله تعالى فيه.

قلت: وهذه الحالة ممنوعة في الشرع حيث إنّ النبي ﷺ نهى وذم فاعله لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج».

وروي في الصحيحين عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لم نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشف بها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

والأفراد الذين قالوا هذه المقالة التي حكاها الله تعالى عن تلك الأمة ليسوا بأنبياء ورسلا معصومين من الخطأ، فلعل بتباعد الزمان كانت عندهم شركيات مثل ما هو حادث اليوم في هذا العصر والأمر يحتاج إلى تصحيح. وإنما الذي نستفيده من السياق الكريم أن هؤلاء الفتية وقعت لهم مكانة في قلوب الناس، فبحثوا عن أعظم شيء فوجدوا المسجد، كما ذكرنا سابقاً.

والله تعالى ذكر تلك الحادثة على سبيل الخبر، ووصف للحالة ولا يفهم من السياق إقرار بذلك والله تعالى أعلم.

وفي هذه القصة من الفوائد الجليلة العظيمة أن من فرّ بدينه من الفتن سلّمه الله تعالى، وكذلك أن من تحمّل الأذى في سبيل دينه كان آخر أمره العز والتمكين.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ يخبر الله تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف وتقولهم بما لا يعلمون فمنهم من يقول: ثلاثة رابعهم كلبهم. ومنهم من يقول: خمسة سادسهم كلبهم. وهذان القولان ذكر الله بعدهما أنه رَجْمٌ بالغيب فدل على البطلان، ومنهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم وهذا والله أعلم هو الحق، لأنَّ الله أبطل الأولين، ولم يبطله، فلعله دليل على صحته، والله تعالى حكى اختلافهم في عددهم وليس هناك عبرة في المعرفة الدقيقة فلو كانت فيها فائدة في الدين لم يترك الأمر. إنما مثل ما يقال: «علم لا ينفع وجهل لا يضر» والعبرة بعموم القصة وصدق مدلولاتها.

أما لون الكلب واسمه وبعض الأمور الأخرى فليس بذات أهمية في القصة.

﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من القليل وهم سبعة.

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالبعد عن التجادل فيهم، فإن الانشغال والمناقشات والبحوث في عددهم وأسمائهم ومدة مكثهم وفي أي زمان تضييع للوقت ومؤثر في مودة القلوب، ومجلبة للشحناء بين الناس، وهذا ليس من أهداف الرسالة المحمدية.

وأمره أن يبتعد عن أهل الكتاب ولا يسألهم لأن كلامهم مبني على الظن في هذه القصة، والمراء لا يستفيد منه، بل يصاب بقسوة القلب، والعياذ بالله.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِي إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ عَدَا ۖ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ويصلح أن يكون لعموم المكلفين، فقد نهى أن يقول في الأمور المستقبلية: «إني فاعل» من غير أن يربطه بالمشيئة لأن الأمر كله لله ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. ومن فوائد ربط الأمور بالمشيئة الربانية تيسير الأمور وتسهيلها، كي تحصل البركة في الأمر الذي يفعله فيستفيد في الدنيا والآخرة.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله بإذن الله تعالى، وكما هي عادة العبد فإنه بأمس الحاجة إلى الله تعالى في كل أحواله.

﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ وحرِّي بعبد أن تكون هذه حاله ثم يبذل جهده في طلب الهدى أن يوفق لذلك الأمر، وأن يسدد في جميع أفعاله.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ لما نهاه الله تعالى عن سؤال أهل الكتاب في شأن أهل الكهف أعطى الله نبيه ﷺ الخبر اليقين عن فترة مكثهم حيث أغنى رسوله ﷺ وأتباعه عن اتباع أراجيف وأقوال أهل الكتاب وتخرصاتهم مثل ما خاضوا في عدد أهل الكتاب.

﴿أَبْصِرْ بِهِ، وَاسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ صيغة تعجب، ما أبصره بكل موجود! وما أسمع له لكل مسموع! فقد أحاط بالمبصرات والمسموعات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أصحاب الكهف تولاهم بلطفه وكرمه ولم يكلهم إلى أحد من الخلق ﴿إِلَّا إِلَهُ الْوَلِيَّاءِ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ويدخل في الخطاب من سار على منهج الله تعالى فالله له ولي قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَائُوهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ إنه الحكم في خلقه قضاءً وقدرًا وخلقاً وتديباً، وهو الحاكم فيهم بأمره ونهيهِ وثوابه وعقابه.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

ثم لما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض وجه سبحانه وتعالى أن هذا القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من الغيوب، فأرشد إلى المصدر والواسطة بين الأرض والسماوات فقال تعالى :

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ التلاوة في الآية : هي الاتباع ، هذا توجيه رباني عظيم جاء بعد خوض أولئك في قصة أصحاب الكهف ، فقد أرشد الله نبيه ﷺ أن يقتفي أثر الوحي والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا في أخباره ، ولا جميع أموره ، ولا يتغير منه شيء ، فخبّره صدق ، لأن التغيير عادة يكون من الناقص وهذا بعيد عن هذا الكتاب ، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يلتجئ إلى المألوه المعبود المفتقر إليه في جميع الأحوال .

وأصل المُلتَحِد هو مكان الاتحاد، وهو الافتعال من اللحد بمعنى الميل ومنه اللحد في القبر.

وهذا الذي جاء في السياق الكريم من معنى الملتحد أنك لا تجد مكاناً يا محمد ﷺ تلجأ إليه إن لم تُبلغ رسالة ربك وتُطعه، والخطاب يصلح لكل والله أعلم.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ إلى آخر الآية.

وهذا توجيه آخر لنبيه ﷺ، وتدخل الأمة في الخطاب، أن يحبس نفسه مع المؤمنين ويلزمهم، وهم الذين يدعون الله أول النهار وآخره، وإن كانوا فقراء في أمور الدنيا، ولكنهم أغنياء في الإيمان وما وقر في قلوبهم فأولئك موصوفون بالعبادة والإخلاص، ونهى ﷺ أن يتجاوز ببصره ويترفع عن أولئك الذين يدعون ربهم صباحاً ومساءً لا حاجة دنيوية إنما يريدون وجهه ومرضاته تعالى حيث إن زينة الدنيا عادة تروق للنّاظر، وتسحر القلب، فيغفل عن ذكر الله تعالى عادة، ويقبل على اللذات والشهوات، فيفرط في أمره فيخسر الخسارة الأبديّة بسبب الغفلة.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَن ذِكْرِنَا...﴾ إلى آخر الآية.

الجزء من جنس العمل، غفل عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره فنهى الله رسوله ﷺ عن طاعة العاصي وأمره بطاعة صاحب الذكر وبين له النتيجة.

وسبب نزول الآيات السابقة كما ذكر أهل العلم رحمهم الله :

نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه جاءوا إلى النبي ﷺ، وعنده جماعة من الفقراء، منهم سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال: عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس فهم رسول الله أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم».

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أي: قل الحق يا محمد للناس: أنه قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وبين الله ثم رسوله صفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة فما دام بان وظهر الأمر ولم يبق فيه شبهة، ولم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم التوفيق، والله قد أعطى العبد مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، فمن آمن فقد وفق إلى الصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة.

وهذا تهديد ووعيد، وليس تحييراً، حيث أعدَّ الله النار المحيطة بالظالمين من كل جانب، فليس لهم منفذ ولا مخلص منها عدلاً وحكماً منه سبحانه. وذلك بعد ما بين لهم طريق النجاة، فتنكبوه وجعلوه وراءهم ظهرياً. وقد بين الله تعالى من رحمته بالناس في هذه الحياة الدنيا نوعاً من العذاب الذي سيصيب من سلك ذلك الطريق وهو أنه ماء كالرصاص المذاب من شدة حرارته وأنه يشوي الوجوه فكيف

في الأمعاء والبطون فيكون ذلك الشراب زيادة في العذاب، وساءت النار - والعياذ بالله - مرتفقاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ هذا أسلوب من أساليب القرآن الكريم في عرض القضايا فبعد أن ذكر حالة أصحاب السعير وقد مُلئت النفوس حزناً وألماً من قُبْح الصورة، جاءت صورة أخرى مشرقة جميلة وعلى ذلك ختم المشهد كي تكون النفس على اطمئنانها حيث بين تعالى أن من آمن وعمل الصالحات فإن هذا العمل لا يضيع عند الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ...﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم الجنات العاليات وحليهم فيها الذهب ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج والإستبرق، وهو ما رُقَّ منه وحالهم أنهم متكئون على السرر المزينة المجملة بالثياب الفاخرة وفي اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة، فهذه الدار الجليلة نعم الثواب للعاملين.



﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢) ﴿كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا﴾ (٣٣) ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦)

سبب النزول:

قيل: إن سبب النزول في رجلين من أهل مكة أخوين أو شريكين وقيل: أحدهما أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد والآخر أخوه الأسود ابن عبد الأسد وقيل: غير ذلك، فأحدهما استثمرها عند الله والآخر في الدنيا وقيل: إنها صورة لصاحب الدنيا.

﴿وَأَضْرَبَ﴾ الضرب فيه دلالة على الفعل مع القوة وبه إحساس وتنبية ولفت نظر، والخطاب للرسول ﷺ ولمن يصلح له من الأمة والأفراد والدعاة المصلحين بضرورة تبين الحق والصبر على الأذى فيه ﴿يَيَّحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ وفي هذا السياق الكريم: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله والكافر لها وما صدر من كل منهما، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل ليتعظ الناس بما حصل لهما، فالكافر لنعمة الله جعل الله له جنتين عظيمتين امتحاناً له وابتلاء.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ الحفاف الجانب وهو وصف لهما، ففي هاتين الجنتين من أشرف الأشجار والعنب والنخل لأنهما أغلى الثمار فالنخل قد دار وحفّ والعنب والزروع الأخرى من الداخل، فقد حمى النخل بقوته وصلابته عُودَ تلك الزروع اليانعة، فنضجت الثمار ولم ينقص منها

شيء . فيمكن أن تتصور تلك الصورة الرائعة ، لا بل تفجر الماء نهراً يسقي
الجنيتين فيتناسب المقام وتكمل الصورة ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ .

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي : لذلك الرجل ، نكرة تعم وتفيد الكثرة ، ثم
لم يتعرض لأي آفة أو نقص . فذلك الرجل عندما رأى هذه الصورة
أصابه الغرور والتعالي على أقرب الناس إليه سواء كان أخوه أم شريكه
على الرأيين .

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فقال
صاحب الجنيتين للمؤمن وهما يتحاورون : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾
اعتزَّ بماله وكثرة أتباعه وهذا قياس أهل الدنيا ولكن في الحقيقة ﴿الْمَالُ
وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ . . .﴾ الآية .

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أخذ بيد المؤمن وطاف به في
ذلك البستان مفتخراً وقال المسكين : ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا
أَظُنُّ أَلْسَاعَةَ قَائِمَةً . . .﴾ الآية إما أنه اطمأن إلى الدنيا أو أنه كان منكراً
للبعث والساعة .

﴿وَلَمَّا رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ فكأنه قال : إن كان
هناك يوم آخر وحساب فسوف يعطيني ربي أحسن من هاتين الجنيتين؟
ولا ندري على أي شيء سوف ينال هذا الجزاء الأخروي وكلامه هذا
لا يخلو من احتمالات إما أنه قاله على سبيل التهكم فيكون ذلك كفراً ،
وإما أن يكون هذا ظنه فهو من أجهل الناس ، حيث لا تلازم بين عطاء
الدنيا وعطاء الآخرة ، فقد يعطي الله الدنيا من لا يحب امتحاناً له
وإظهاراً لحقيقته ومعدنه الرديء وكشف مكنون نفسه .

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ (٣٧) لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

* * *

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ أي قال له صاحبه المؤمن، مذكراً إياه حالته الأولى والأطوار التي مر بها حتى أنه أصبح إنساناً سوياً عليه من النعم ما الله به عليم.

فلما كان هذا الإنسان الفخور ما زال في غيه لجأ المؤمن إلى تقديم البراهين المحسوسة ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾ لعله يرجع ولكنه استمر في منهجه مما جعل هذا المؤمن يلجأ مرة أخرى إلى الله ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي: لكن أنا هو الله ربي تم حذف الألف وأدغمت إحدى النونين في الأخرى.

فهذا المؤمن أقر بربوبية ربه وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

لأن هذا الرجل المتكبر أشرك المال والولد في النصرة والاستعانة فهذا المؤمن تبرأ من أنواع الشرك الكبير وحتى الصغير في المال والولد.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نلاحظ الشفقة تظهر جلية

في توجيهه لصاحبه ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ...﴾ وهذا هو ديدن المصلحين فيه العطف والتوجيه السليم ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ولكن كذلك نلاحظ أن المؤمن بدأ يأخذ أسلوباً أكثر صلابة لعل ذلك يرجعه، قال له: فَإِنْ كَانَ مَقْيَاسُكَ قِلَّةَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ عِنْدِي ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا...﴾ هنا سأل المؤمن ربه ودعاه أن يرسل على تلك الجنة ما يهلكها غضباً لله ﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذاباً كالسحاب أو الصاعقة المحرقة فتصبح أرضك بسبب ذلك قاحلة لا ينبت بها شيء، سبخة وماء آبارهما وما يأتيهما تذهب في الأرض فلا تستفيد منه شيئاً.



﴿وَأُحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

* * *

﴿وَأُحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ...﴾ أصاب تلك الزروع التلف فذهب ما كان يفتخر به وجلس ذلك المسكين يقول: ياليتني عرفت نعم الله عليّ وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم وتحسر على ما أنفقه فيها من أموال وأصبحت خاوية على عروشها يابسة لا فائدة فيها وكان الهلاك ليلاً وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ أين الأمور التي كان يفاخر بها من المال والأولاد لم ينصروه ولم يقف أحد معه من دون الله بل وقف نادماً ليس له نصير ولا معين، وهذا جزاء كل من سلك مثل مسلكه، هذه نهايته في وحدة ووحشة وقلة بعد كثرة، فسبحان من له الحكمة البالغة التي ينزلها في كتابه عبرة للناس ومثلاً، ومع ذلك نلاحظ أن هذا الرجل ندم على فعله ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ التقدير على التقديم والتأخير ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي: يوم القيامة.

ونستفيد من هذه القصة ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره (بتصرف يسير):

١- أن نعم الدنيا زائلة خاصة إذا لم يُسخرها ويجعلها في

طاعة الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤].

٢- أن العبد إذا أعجبه شيء من المال والولد أن يقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله).

٣- فيها الإرشاد والتسلي عن لذات الدنيا بما عند الله من الخير وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعيننا على طاعة الله ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

٤- أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتیجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء.



﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ۝٤٥﴾
 الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧﴾ وَعَرَضْنَاهُ عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ حِجَّتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۝٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول الله تعالى لنبية ﷺ أصلاً ولمن قام بوراثته من بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور حيث إن مثل هذه الحياة الدنيا كمثال المطر ينزل على الأرض فتصبح الأرض مخضرة قد كثر نبتها واختلط بعضه ببعض، فبينما هي تسر الناظرين إذ أصبحت هشيماً أي: متكسرة من اليبس بانقطاع الماء عنها.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه، وشبه الله تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع كذلك الدنيا بينما صاحبها قد أعجب بها انقلبت عليه وذاق مرها بعد حلاوتها نسأل الله العافية.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الزينة زائلة وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي البنين قوة ودفعاً ونلاحظ كيف ضرب الله مثل الدنيا وحالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها يتمتع به قليلاً ثم يزول وربما لحقه الضرر من

المال والبنين إذا لم يقيم بالواجب في كل منهما، مِنْ تَصَدَّقِ بِالْمَالِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهِ لِلْمُحْتَاجِينَ وَتَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ تَرْبِيَةً سَلِيمَةً عَلَى الدِّينِ وَالْخَلْقِ الْقَوِيمِ.

نوع يبقى لصاحبه على الدوام وهي الباقيات الصالحات قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هي الصلوات. وقال أيضاً: إنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة.

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون وحرث الآخرة الباقيات الصالحات وقد يجمع الله تعالى لأقوام وقيل: غير ذلك والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً...﴾ أي: نزيلها من أماكنها ونسيرها كما نسير السحاب كما في آية أخرى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وتبرز الأرض فتصير قاعاً صفصفاً فلا شجر ولا نبات بل قال بعضهم بارزة ظهر ما فيها من الكنوز والأموال ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إنسهم وجنهم وبرهم وفاجرهم بل جميع الخلق فلا يغادر ربك أحداً حيث جمعهم على أرض المحشر من بطون الفلوات وفغور البحار.

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ قال قائل: يعرضون صفّاً كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صف لا إنهم صف واحد. ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم بحكمه العدل ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حفاة عراة بلا مال ولا أهل، ما معهم إلا الأعمال.

﴿بَلْ زَعَمْتَ...﴾ هذا خطاب لمنكري البعث أي أنكروا الجزاء على الأعمال ووعد الله وقد رأيتموه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ...﴾ الكتاب اسم جنس وفيه وجهان. أحدهما: أنها كتب الأعمال في أيدي العباد قاله مقاتل، الثاني: أنه وُضع الحساب قاله: الكلبي فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة ورجح القرطبي رَحِمَهُ اللهُ القول الأول.

﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ قال الأسدي: الصغيرة ما دون الشرك والكبيرة الشرك بل قال بعضهم الصغيرة التسم والكبيرة الضحك حتى قال الفضيل رَحِمَهُ اللهُ: يا ويلتاه ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر.

فهناك تُحضر كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار فتطير لها القلوب فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم قالوا: ﴿يَوْمَئِذٍ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٢] بل هم غير خارجين من عدله وفضله كما قال السعدي - رحمه الله تعالى - .

* * *

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

* * *

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ يخبر الله تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته وأن الله أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم سجود تعظيم لا سجود عبادة ففعلوا امتثالاً لأوامر الله تعالى، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ...﴾ [الأعراف: ١٢] فظهرت عداوته لله ولأبيكم فكيف تتخذونه وذريته من الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان.

وأشكل على بعض الناس متى كان ذلك السجود فقال بعضهم قبل خلق آدم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩].

وقال: آخرون تنجيلاً بعد وجود آدم عليه السلام. أي: كان السجود تنجيلاً بعد خلق آدم عليه السلام.

كذلك أشكل على الناس هل إبليس من الملائكة أم من الجن؟ هناك من يرى أنه ليس من الملائكة واستدلوا بالآتي:

- ١- ليس منهم ولكنه يتعبد معهم كالحليف في القبيلة .
 ٢- عصمة الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦]
 تنفي كونه منهم .

٣- إنه صريح الآية (من الجن) وهو نص في محل النزاع .
 أصحاب الرأي الثاني :

١- أنه ملك في الأصل ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ [الحجر: ٣٠ - ٣١] وأخرج بالاستثناء أنه منهم .

٢- قالوا ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] عند من يقول المراد بذلك قولهم : الملائكة بنات الله . والرأي الأول : الأرجح والله أعلم .

* وهناك إشكال ثالث : هل للشيطان ذرية وأبناء؟

قال تعالى : ﴿أَفَتَخَذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ﴾ واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ، قال الشعبي : سألتني رجل فقال هل لإبليس زوجة فقلت : إن ذلك عرس لم أشهده ثم ذكرت قوله تعالى : ﴿أَفَتَخَذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم . وقال قوم ليس له أولاد ولا ذرية وذريته أعوانه من الشياطين .

والذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما رواه سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ» .

وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه ، أما ما روي عن

أسماء الشياطين وتخصصهم في الأفعال فما يثبت فيه شيء إلا ما في صحيح مسلم من أنَّ للصلاة شيطاناً يسمى «خنزب» وذكر الترمذي أنَّ للوضوء شيطاناً يُسمى «الولهان» وذكر بعض أهل التفسير أسماء لا دليل عليها.

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. قيل: الضمير عائد على إبليس وذريته أي: لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما أردت.

وقيل: ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض: ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني. ﴿عُضْدًا﴾ أي: أعوانا يقال: اعتضدت بفلان إذا استعنت به. والأصل فيه عضد اليد.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: ادعوا الذين أشركتموهم بي فليمنعوكم من عذابي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم إلى نصرهم ولم يكفوا عنهم شيئاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: هو واد في جهنم من قيح ودم وقال ابن عباس رضي الله عنهما أي: وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزاً.



﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
 جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ
 تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا
 مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا
 آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾

* * *

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾
 انكشف الغطاء الذي كان على أعينهم وقلوبهم وأيقنوا أنها تأخذهم في
 الحال فلا مهرب فقد أحاطت بهم من كل جانب.
 ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾ يخبر الله
 تعالى عن عظمة الكتاب وأنه تعالى جعل فيه من كل مثل.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ : يحتمل وجهين :

أحدهما : ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية ، الثاني : ما
 أوضحه من دلائل الربوبية .

قلت : ففي هذا القرآن الكريم من العلوم النافعة كمعرفة الله
 بأسمائه وصفاته والحلال والحرام وفيه إرشاد إلى سعادة الدارين ، وفيه
 عصمة من كل هلاك .

وما دام فيه كل هذا الخير فهو كتاب يجب التسليم له والانتقاد
 ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كثرنا الأمثال بعبارات مختلفة ليهتدوا إلى الحق .
 ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ منازعة منه غير لائقة به ففي

صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ طرقتنا وفاطمة (ليلاً)، فقال: (ألا تصلون) فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا ببعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان وقد وصلهم الهدى الواضح بمبعث محمد ﷺ وقامت عليهم الحجة إلا العناد فاستحقوا العذاب جميعاً كالأمم السابقة من المكذبين للرسول. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا عَائِقِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثاً إنما أرسلناهم بمهمة عظيمة هي التبشير بالجنة والتخويف من النار، ونلاحظ من لطفه تقديم البشارة على النذارة ومع ذلك سعوا في نصر الباطل بالشك والشرك ليزيلوا الحق الواضح واستهزؤوا برسول الله وآياته، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

* * *

(١) البخاري كتاب التفسير حديث (٤٧٢٤).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه فتهاون بها وأعرض عن قبولها ﴿وَمَنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ فالذي يُذكر - مَنْ عنده علم مسبق - فَإِنْ أَعْرَضَ كَانَ أَعْظَمَ ذَنْبًا فَهُوَ عَاصٍ عَلَى بَصِيرَةٍ .

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ خص اليد بالتقديم لأنها أكثر مزاولة للأعمال : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي : بسبب كفرهم فكان الجزاء لهم :

١- إعراض عن آيات الله وعدم الاستفادة منها .

٢- نسي ذنوبه .

٣- أغطية على القلوب وخص القلوب لأنها مهبط الإيمان .

٤- صمم في الأذان .

فإن كانوا بهذه الحالة فليس لهدايتهم سبيل : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه : ١٢٤] .

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الآية ، لأن الذي يُرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً ، وأما هؤلاء فقد أبصروا

طريق الحق، بل وجادلوا فيه معترضين، فعوقبوا بالطبع على قلوبهم. ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: للذنوب والغفور مبالغة في السَّتر والتجاوز عن عباده ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الكفر والمعاصي ﴿لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ ولكنه يمهل ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ فإذا جاء الوقت الذي جعله موعداً لهم أنزل بهم بأسه ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم لا بظلم منا وأشار للقرى الظالمة بالبعد لشنيع فعلهم ﴿تِلْكَ﴾ والله أعلم.



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ إِنِّيَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

موسى هو ابن عمران، هذا ما ذكره العلماء وأهل التاريخ.

وفتاه هو: يوشع بن نون.

ورد في صحيح مسلم: «عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أي رب كيف لي به؟ فقيل له: أحمل حوتاً في مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثم. فانطلق وانطلق معه فتاه وهو: يوشع بن نون فحمد موسى عليه السلام حوتا في مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجى عليه ثوب، فسلم عليه موسى فقال له الخضر: أنى بأرضك السلام؟ فقال أنا موسى، قال: موسى

بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه».

﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير.

﴿حَقَّ أَبْلَغُ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: ملتقاهما قال قتادة وهو بحر فارس والروم وقيل: غير ذلك.

﴿أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر والجمع أحقاب وهو ثمانون سنة ويقال أكثر من ذلك. وقيل: غير ذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حُوتَهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان وقد وُعد أنه متى فقد الحوت فثم ذلك العبد الذي قصده ﴿نَسِيًا حُوتَهُمَا﴾ وإنما كان النيسان من الفتى وحده وقيل: نسي أن يعلم موسى بما رأى ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ قال مجاهد: السرب المسلك وقال جمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغا وأن موسى مشي عليه متبعاً للحوت حتى وصل إلى الخضر، وظاهر الروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة النهر. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا...﴾ الآية.

أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدوا التعب فيه وهذا من الآيات الدالة لموسى على وجود مطلبه.

﴿إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ قال القرطبي: فيه مسألة واحدة وهو اتخاذ الزاد في

الأسفار وهو رد على الصوفية الذين يدعون التوكل، فهذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه وتوكله على رب العباد.

﴿نَصَبًا﴾ أي: تعباً والنصب: التعب والمشقة.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لأنه (أي: الشيطان) السبب في ذلك ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه كان ذلك من العجائب قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً.

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي: نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعاً على آثارهما وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت وجد الخضر.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ الآية فلما وصلا إليه وجدا عبداً من عبادنا وهو الخضر فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملا من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك. قال: لا. فأوحى الله إلى موسى بل عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه فجعل له الحوت آية».

قال بعض العلماء أنه كان عبداً صالحاً لا نبياً وقال آخرون: بل إنه نبي واستدلوا على ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ يعني: أنه أوحى إليه فعل ما فعل من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار وهو الراجح عندي والله أعلم.

﴿ءَايَاتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ الرحمة في هذه الآية النبوة وقيل:

النعمة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ وكان أُعطي ما لم يعط موسى وإن كان موسى ﷺ أعلم منه بأكثر الأشياء لأنه من أولي العزم من الرسل عليهم السلام.

وعند الخضر من العلم ما ليس عند موسى فأراد موسى ﷺ الزيادة من فضل الله.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: هذا سؤال الملاطف والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب.

قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومكانه.

فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: سأصبر بمشيئة الله وقد ألزمت نفسي طاعتك وهذا عزم منه قبل أن يواجه المشكلة.

﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

أي: حتى أكون أنا الذي أفسره لك، لكن موسى ﷺ أكثر الاعتراض فتعين الفراق.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي فَدَ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾

* * *

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ في الحديث المتفق عليه: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول»^(١).

فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

(١) مسلم كتاب الفضائل (٢٣٨٠).

وفي الصحيحين: ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿أَفَنُتَلَّكَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (١) أي: بلغت مبلغاً تُعذر به من ترك مصاحبتني.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافاهم. ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: عاب واستهدم.

﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر وبناه وأعاده جديداً.

قال موسى: قوم أتيناكم فلم يضيفونا ولم يطعمونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى وددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما» (٢).

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ قال الشنقطي رَحِمَهُ اللهُ فِي أضواء البيان دلت الآيات من الكتاب على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة لأن الله تعالى يعلم للجملات إرادات وأفعال وأقوال لا يدركها الخلق قال

(١) البخاري كتاب التفسير (٤٧٢٥).

(٢) رواه البخاري (٧٤، ١٢٢).

تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ومن الأحاديث الشريفة حنين الجدع.



﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۖ ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۖ ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٨٢﴾﴾

* * *

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قال له : إني أخبرك لم فعلت ما فعلت؟

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ استدل بهذا من قال : أن المسكين أحسن حالاً من الفقير .

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي : أجعلها ذات عيب لتسلم السفينة من الملك .

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أنه كان من خلفهم وكان رجوعهم عليه والأكثر على أن معنى (وراء) هنا أمام .

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ . الغلام الذي قتلته قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهب أبويه طغياناً وكفراً فقتله سلامةً لدين أبويه وإن كان فيه أذية ظاهرة إلا أن الله سوف يعطيهم ولداً صالحاً

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا . . .﴾ الآية .

هذان الغلامان صغيران حيث وصفهما باليتيم ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وهو والدهما الأدنى وقيل: هو الأب السابع . ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه . ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ وهذا يقتضي أن الخضر نبي وقد تقدم الحديث حول ذلك .

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ تساءل البعض عن فتى موسى فقال عكرمة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لم نسمع لفتى موسى ذكراً وقد كان معه .

قال القرطبي: الأظهر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صرف فتاه لما لقي الخضر .

* * *

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

* * *

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾ * يختلف في ذي القرنين هذا من

هو؟

فقال القرطبي رحمه الله تعالى:

هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني.

وقيل: رجل اسمه هرمس ويقال: اسمه هرديس وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال كان عبداً صالحاً دعاً قومه إلى الله تعالى: فشجوه على قرنه ثم دعاهم فشجوه على قرنه الآخر فسمي ذا القرنين وهناك أقوال كثيرة أكثرها ضعيف.

قلت: وتعيين الاسم لا يفيدنا في شيء فالعبرة بما ذكره الله من أحواله وتصرفاته حيث يظهر من الآيات أفعاله الحسنة وإنصافه وكرهيته للفساد في الأرض وهنا تكون العبرة والفائدة والله أعلم.

كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين فأمره الله تعالى أن يخبرهم من خبره ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: من أحواله وما أعطي من الأمور التي لم تعط لغيره

حيث إن الله مكَّنه من أقطار الأرض المشارق والمغارب وجعل بيده من الأسباب ما يقهر الظالم ويذله وينصر طالب الحق ويعزه فذلك الرجل اجتمع له القدرة على السبب الحقيقي والعمل به وفق الشرع فخضعت له البلدان الكثيرة وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى فمما أعطاه الله ما بلغ به مغيب الشمس حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها ثقب في عين حمئة أي: سوداء ووجد عند مغربها قوماً ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق لم يرخص له في تعذيبهم فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق المدح فقال: سأجعلهم قسمين:

أما من ظلم بالكفر له العذاب في الدنيا والآخرة.
وأما من آمن وعمل صالحاً فله الجنة عند الله. وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء حيث عامل كل أحد بما يليق بحاله هذا ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ بِتصرف يسير.

﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ
 جَعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ۚ﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا
 ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾
 قَالُوا يَبْنَؤُا الْفَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ
 نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا
 جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَلْعُوا أَنَّهُ يَظْهَرُهُ وَمَا
 اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ
 رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٨﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ
 جَعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ۚ﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ .
 أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كرّ راجعاً قاصداً مطلعها متبعاً
 الأسباب.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ جَعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجاباً
 يستترون منها عند الطلوع إما لجهلهم في المساكن أو لوحشيتهم أو
 كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء وهم يكونون في أسراب لهم وقيل:
 غير ذلك.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: أن الله لا يخفى عليه شيء
 في هذا الكون وما يجري عليه في أيدي الخلق.

﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ روى

عطاء الخرساني عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿بَيْنَ السَّيِّئِ﴾ : الجبلين أرمينية وأذربيجان، ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي : من ورائهما وقيل : سدين معروفين في ذلك الزمان .

﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿يفقهون﴾ بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي : لا يفقهون غيرهم كلاماً والباقون بفتح الياء والقاف أي : يعلمون والقراءتان صحيحتان فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم ذكر ذلك القرطبي رحمه الله .
﴿قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

فمن هم يأجوج ومأجوج؟؟

قيل : أنهم من بني آدم ثم من بني يافث بن نوح وبه جزم وهب وغيره وقيل : إنهم من الترك قاله الضحاك وقيل : غير ذلك .
﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي : جُعلاً فعلم عدم قدرتهم وقد شاهدوا قدرة ذي القرنين فطلبوا منه العون والمساعدة .

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ لم يكن ذو القرنين ذا طمع وإنما كان طالباً للإصلاح ولذلك حاول صد تلك الأمم المفسدة ببناء مانع من عبورهم وطلب ممن حوله المساعدة والبذل بأيديهم .

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ

نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٢٠٠﴾ .

﴿زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد .

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي : الجبلين .

﴿قَالَ أَنْفِخُوا﴾ أي : أوقدوها إيقاداً عظيماً كي يذوب النحاس الذي يريد أن يجعله وصلات بين قطع الحديد .

﴿أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي : نحاساً مذاباً فاستحكم السد .

﴿فَمَا أَصْطَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فلا تستطيع تلك الأمم المفسدة من يأجوج ومأجوج الصعود عليه ولا نقبه وذلك لقوته ، وهنا شعر ذو القرنين أنه قام بعمل جليل فأضاف النعمة إلى ربه فهو صاحب الفضل والإحسان .

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي : يوم القيامة وقيل :

خروجهم أي : يأجوج ومأجوج .

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي : مستوياً بالأرض .



﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي
وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الضمير يحتمل أن يعود إلى
يأجوج ومأجوج وذلك لكثرتهم ويحتمل الضمير أن يعود إلى الخلائق
يوم القيامة وما فيه من الاختلاط فبالخلائق كالموج لشدة الموقف .
﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ عرضت لهم لتكون مأواهم
ومنزلهم .

فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي : معرضين عن
القرآن الكريم وتوجيهاته وهاربيين من سنة سيد المرسلين فلا ينظر
أحدهم إلى دلائل الله تعالى .

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي : لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله
تعالى فهم مبغضون له ، ولذلك لم يستفيدوا .

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي : لا يكون ذلك !! كيف يوالي هؤلاء الكفار عباد الله
ذلك غير ممكن فلا تجتمع مولاة الله وغيره من المخلوقين .

﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ قيل : يعني عيسى والملائكة وعزيراً .
﴿مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي : ولا أعاقبهم على فعلهم ذلك وقال
الزجاج المعني : أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ذكر ذلك القرطبي رَحِمَهُ اللهُ .

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١١٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١١٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَالِيَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١١٦﴾

* * *

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ :

فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة .

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : يريد أن أهل مكة هم الذين ضل سعيهم وظنوا أن أعمالهم حسنة .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أي : جحدوا بآيات الله الدالة على وجوب الإيمان به وأنكروا يوم القيامة فحبطت وبطلت الأعمال ولم توزن قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ : «الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر فيها الراجح والمرجوح وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها وهو الإيمان كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه : ١١٢] إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ : لكن أعمالهم تحصى ويخزون بها بين الأشهاد ثم يعذبون عليها لذلك قال : «ذلك جزاؤهم» أي : حبطت أعمالهم وكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزوا» يستهزئون ويسخرون منها .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١١٧﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ
 الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
 يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنْمَأ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
 يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١٢٠﴾﴾.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾
 لما بين الله حالة الكافرين وسوء عاقبتهم بين أعمال المؤمنين وأن
 الله أعد لهم من النعيم الذي منه جنة الفردوس.
 كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في
 الحديث الطويل: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ
 وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١).
 ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يطلبون تحويلاً عنها.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: قل لهم مخبراً عن
 عظمة الباري سبحانه وتعالى حيث: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: هذه الأبحر
 في العالم ﴿مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: حبراً ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت
 الأفلام ﴿قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد ذكر
 ذلك السعدي رحمه الله وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ
 وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠) و(٧٤٢٣).

﴿حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا﴾ الآية.

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي إنما أتميز عليكم بأن ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ وأدعوكم إلى عبادته وحده، والعمل الذي يقربكم منه فأحسنوا العمل فإنه سوف يكون لكم لقاء معه وأنه تعالى لا يقبل العمل الذي فيه يُعدم الإخلاص ولم يكن على نهج محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ أي: يأمل ويتنظر.

﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ خوفًا منه وطمعًا فيه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو مؤمن موقن.

﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فإن الشرك محبط للعمل مبطل له.

وهذه الآية شملت ركني العمل المقبول .

الركن الأول: العمل الصالح وهو ما وافق السنة وجاءت به الشريعة .

الركن الثاني: عدم الإشراك به أي: الإخلاص في العبادة لله وحده .

الرسالة الرابعة
«الحنان في سيرة سيد الأنام»

تأليف
أبي مصعب سعيد بن عمارة السعدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد.. إن خير الكلام كلام الله تعالى وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

فإن من من الله ﷺ علينا أنه بعث فينا رسولا كريما رؤوفاً رحيماً بأمرته وغيرها من العالمين، فهو ﷺ قدوة لنا في جميع أمور المعاش والمعاد، وخاصة في هذا الوقت الذي يغلب فيه العنف والتطرف على جانب الرأفة والرحمة والحنان، فنحتاج إلى إبراز هذه الرحمة والحنان ليعلم العالم كله بأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، وأثبت ذلك بشمائله وفضائله، وتعاملاته مع الآخرين.

هذا وقد كُتب في سيرته ما لم يكتب في سيرة أحد من الأنبياء والرسل أو الملوك والسلاطين، أو القادة والزعماء. ولكن مهما كُتب فيها وفي أحداثها فستبقى هناك فرصة وحاجة إلى تجديد دراستها.

وإن كتب السيرة من أعلى الكتب وأكرمها موضوعاً وأحلاها اختياراً. ومعلوم أن الموضوع الذي تعالجه السيرة النبوية ليس بالأمر الذي يقوم على التجارب، وإنما هو أمر عماده النقل والرواية حيث يقوم على عرض حياة الرسول ﷺ، بصورتها المشرقة وكلها مشرقة عطرة.

ومن هنا بدأت في اختيار بعض الأحداث والمواقف، فجمعتها في رسالة سميتها «الحنان في سيرة سيد الأنام ﷺ»، رجاء أن ينفعني الله بها ومن يطلع عليها.

فهذه الرسالة تحكي حياة هذه الأسوة الحسنة والقدوة الرفيعة، لتكون عوناً للأمة في الاقتداء والامثال والارتقاء إلى مستوى القدوة. قال

تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمبعثه رحمة للعالمين عامة والمسلمين خاصة، وحنانه وشفقته شملت هذا الكون كله. فتعامله مع أصحابه فذو. ولين عريكته مع النساء، مع الأطفال، مع الحيوان مع الجمادات مع الكفار ففي كل ذلك جاءت إشراقات تبهر العقول وتجذبها وتحببها إلى صاحب القلب الرحيم ﷺ، الذي اختاره رب العزة، حقاً رحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد قمت بالإشارة إلى بعض تلك النماذج، كي تكون عوناً للمحبين الحريصين على اتباع منهجه ﷺ القويم.

وهي رسالة قليلة الكلمات، كبيرة المعاني، لعلاقتها بنبي الرحمة ﷺ، نسأل الله تعالى أن تكون مقبولة عنده تعالى وصلى الله وسلم على سيد الأولين والآخرين. والحمد لله رب العالمين.



الحنان

تعريف الحنان لغةً: مصدر حَنَّ يحنُّ حناناً وهو مأخوذ من مادة (ح ن ن) التي تدل على الإشفاق والرقة وقد يكون ذلك مع صوت بتوجع، وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها. ويقال منه حنّت المرأة على ولدها.

ولما كان الحنين متضمناً للإشفاق والإشفاق لا ينفك من الرحمة، عُبر عن الرحمة به في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

وقال الجوهري والحنين: الشوق وتوقان النفس. وقد «حَنَّ» إليه يحنُّ بالكسر (حنيناً)، فهو (حَانٌّ) و«الحنان» الرحمة. وقد «حَنَّ» عليه «يحنُّ» بالكسر حناناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما أدري ما الحنان، و«الحنان» بالتشديد ذو الرحمة. «تحنن» عليه ترخّم. والعرب تقول: «حنانك يا رب» و«حنانيك» يا رب بمعنى واحد أي رحمتك.

واصطلاحاً^(١): قال القرطبي: قال جمهور المفسرين: الحنان هو الشفقة والرحمة والمحبة.

(١) مختار الصحاح ١٥٩ ونظرة النعيم ص ٥/١٧٨٢.

(١) آيات ورد فيها لفظ «الحنان»:

قال الله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ [مريم: ١٢-١٣].

(٢) ومن الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في (الحنان):

- كان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - إذا حدث بحديث الجذع، يقول: يا معشر المسلمين! الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقاءه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه).
- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وقال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وأيضاً عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾. قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت طرفة بن العبد البكري - وهو يقول
أبا مُنذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهون من بعض
وعن مجاهد ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: (تعطفاً من ربه عليه).

(٣) هل الحنان من أسماء الله ﷻ؟

- جاء في موسوعة نضرة النعيم ص ١٧٨٢/٥

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْحَنَانُ بِتَشْدِيدِ الثَّوْنِ بِمَعْنَى الرَّحِيمِ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: الْحَنَانُ الرَّحِيمُ بَعْدَهُ، وَهُوَ فَعَالٌ مِنْ حَنَّ؛ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: الْحَنَانُ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ذُو الرَّحْمَةِ وَالتَّعَطُّفِ، وَقَالَ الرَّازِيُّ: وَمِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى: الْحَنَانُ وَهُوَ الْمُتَعَطِّفُ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ، قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَالَ: رَحْمَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ:

تَعَطَّفَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا
أَدْرِي مَا الْحَنَانُ؟ وَرُويَ عَنْهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ أَنَّهُ قَالَ: الْحَنَانُ الرَّحْمَةُ،
وَقَدْ جَاءَ الْوَصْفُ عَلَى فَعَالٍ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ التَّعَطُّفَ
بِالرَّحْمَةِ وَالتَّحْنُنِ. (نضرة النعيم ص ١٧٨٢).



سيد الأنام صلى الله عليه وسلم

هو سيدنا: محمد (بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان).

- بعض أوصافه ﷺ الخُلُقِيَّة والخَلْقِيَّة كما وصفها أصحابه ﷺ :
 - كان رسولنا الكريم ﷺ أحسن الناس خلقاً، وأكرمهم خصالاً، وأفضلهم عشرة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وكان متواضعاً للكبير والصغير.
 - وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.
 - وكان لا يغضب لنفسه وإنما يغضب لربه.
 - كان ﷺ أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا القصير.
 - كان رسول الله ﷺ: «أبيض مليح الوجه».
 - كان رسول الله ﷺ: «مربوعاً، عريض ما بين المنكبين كث اللحية، تعلوه حمرة، جُمته إلى شحمة أذنيه، قال أحد أصحابه: لقد رأيته في حُلّة حمراء ما رأيت أحسن منه».
 - «كان وجهه مثل الشمس والقمر وكان مستديراً».
 - «كان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر،

وكنّا نعرف ذلك».

- وقال آخر: «كان رسول الله ﷺ لا يضحك إلا تبسماً، وكنت إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين وليس بأكحل» (حسن رواه الترمذي).
- عن جابر بن سمرة رَضِيَ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ أَضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ»^(١).
- كَانَ ﷺ أَفْصَحَ الْخَلْقِ وَأَعَذِبَهُمْ كَلَاماً وَأَسْرَعَهُمْ أَدَاءً وَأَحْلَاهُمْ مَنْطِقاً.
- كَانَ طَوِيلَ السَّكُوتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ.
- وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَبِكَلَامٍ مَفْصَلٍ يَعُدُّهُ الْعَادُّ، لَيْسَ بِهِذٍ مَسْرَعٌ لَا يَحْفَظُ، وَلَا مُتَقَطِعٌ تَخْلُلُهُ السَّكُوتَاتُ.
- وَكَانَ يَتَخَيَّرُ فِي خُطَابِهِ وَيَخْتَارُ لِأَمْتِهِ أَحْسَنَ الْأَلْفَاظِ وَأَبْعَدَهَا عَنْ أَلْفَاظِ أَهْلِ الْجَفَاءِ وَالْفَحْشِ.
- وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ اللَّفْظَ الشَّرِيفَ فِي حَقِّ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَأَنْ يَسْتَعْمَلَ اللَّفْظَ الْمَكْرُوهَ فِي حَقِّ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ.
- فَمَنْعَ أَنْ يُقَالَ لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، وَأَنْ يُقَالَ لِلسُّلْطَانِ مَلِكٌ الْمَلُوكِ.
- وَكَانَ يَسْتَحِبُّ الْأَسْمَ الْحَسَنَ، وَأَمْرٌ إِذَا أُبْرِدُوا إِلَيْهِ بِرِيْدٍ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْأَسْمِ حَسَنَ الْوَجْهِ. وَكَانَ يَأْخُذُ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَائِهَا وَيَرْبِطُ بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمَسْمَى.

(١) (الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، أضحيان: مضيئة مقمرة).

- وقال أهل السير: ما سجد لصنم، ولا ارتكب فعلاً معيباً من أفعال الجاهلية التي كانت سائدة آنذاك.
- ما شرب خمرًا ولا تطلع إلى بغي، ما سمع لهواً وما شارك في هزل، ما أكل سحتاً ولا طمع فيما لدى أحد، ما اعتدى وما ظلم، ما نقض عهداً ولا خان أمانة، ولا كذب مرة واحدة في حياته كلها، ما تكلم باطلاً وما قال سوءاً، ولا وقع في مآثم لقد حفظه الله صغيراً وصانه كبيراً، وملاً قلبه حكمة ورقة وشفافية، وفؤاده رحمة وحناناً وأماناً واطمئناناً، فكل من رآه أحبه وتعلق به، وكل من تعامل معه أجله وقدره، وكل من خالطه وجد فيه الخلّ الوفيّ والصديق الحميم والأخ المقرب، والناصح الأمين ﷺ وأصلي وأسلم تسليماً كثيراً.



وَأُمُّهُ ﷺ: (آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة):

حيث كان عبد الله (والد) الرسول ﷺ من أحب ولد أبيه إليه ولما نجا من الذبح، فداه عبد المطلب بمئة من الإبل، وزوجه من أشرف مكة نسباً، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به ﷺ آمنة، ودفن بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار وترك هذه النسمة المباركة الطاهرة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في هذه الحياة الدنيا، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله ﷻ بحكمته ورحمته تربيته وإعداده، لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

فهو دعوة إبراهيم الخليل ﷺ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وبشّر به عيسى ﷺ. كما أشار إليه قوله ﷺ حاكياً عن المسيح ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ميلاده ﷺ: ولد ﷺ يوم الاثنين بلا خلاف والأكثر على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.
والمجمع عليه أنه ﷺ ولد عام الفيل وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم.

● يقول أحمد شوقي أمير الشعراء :

وُلد الهُدَى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسمً وثناءً
يومٌ يتيه على الزمان صباحه ومساؤه بمحمد وضاء
دُمرت عروش الظالمين فزلزلت وعلت على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةً الجوانب حَوْلَهُم خمدت ذوائبها وغاض الماء
مرضعاته ﷺ :

(١) وأول من أرضعته ثُوِيَّه أُمَّه عمه أبي لهب :

كما جاء من حديث زينب ابنة أبي سلمة : «أرضعتني وأبا سلمة ثوية ، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن» (البخاري (٥١٠١) ، ومسلم (١٤٤٩).

(٢) حليلة السعدية مرضعته في بني سعد :

وهذه حليلة السعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى ﷺ التي لمستها في نفسها، وولدها، ورعيها، وبيتها عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : قال : لما وُلد رسول الله ﷺ قدمت حليلة بنت الحارثة ، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكة ، قالت حليلة : فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي قمراء ، ومعني زوجي الحارث بن عبد العزى . أحد بني سعد بن بكر ، ثم أحد بني ناضرة قد أدمت أتاننا ، ومعني بالركب شارف والله ما تبضُّ بقطرة لبن ! في سنة شهباء قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجَهد ومعني ابنُ لي ، والله ما ينام ليلنا ! وما أجد في يدي شيئاً أعلله به ، إلا أنا نرجو الغيث ، وكانت لنا غنم ، فنحن نرجوها فلما قدمنا مكة ، فما بقي منا أحدٌ إلا

عُرض عليها رسول الله ﷺ فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يُكرم الظئر، ويُحسن إليها الوالد فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جدّه، فكل صواحيبي أخذت رضيعاً، فلما لم أجد غيره رجعت إليه، وأخذته. والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره. فقلت لصاحبي: والله لأخذنّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به ولا أرجع من بين صواحيبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته. فأتيت به الرّحل، فوالله، ما هو إلا أن أتيت به الرحل، فأمسيت، أقبل ثدياي اللبن حتى أرويته وأرويت أخاه، قام أبوه على شarfنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل فحلبها، فأرواني، وروى فقال: يا حليلة: تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن! قالت: فبتنا بخير ليلة شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.



● وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه :

توفيت أم النبي ﷺ وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تربيته إياهم فماتت، وهي راجعة به إلى مكة، ودفنت بالأبواء.

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي ﷺ، فقد كان جده مهيباً، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيئون الجلوس على فراش أبيهم، وكان ﷺ يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجلد بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسماً فيه الخير وأنه سيكون له شأن عظيم. وكان جده يحبه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبل، فاحتبس عليه، فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رَبِّ رَدِّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا رُدَّهُ لِي وَاصْنَعْ عِنْدِي يَدَا
فلما رجع النبي ﷺ وجاء بالإبل، قال له: يا بني لقد حزنْتُ عليك
كالمرأة حزناً لا يفارقني أبداً^(١).

ثم توفى عبد المطلب -والنبي ﷺ في الثامنة من عمره- فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه، وحنَّ عليه ورعاه.

وفي ختام هذه الأحوال التي ذكرت مختصرة، أراد الله تعالى أن ينشأ رسول الله ﷺ يتيماً، تتولاه عناية الله وحده، فكانت المصائب التي

(١) (البيهقي الدلائل [٢، ٢٠، ٢١]).

أصابته النبي ﷺ منذ طفولته، كموت أمه، ثم جدّه بعد أن حرم عطف الأب وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور. فالأحزان تعبّد النفوس وتخلصها من أدران القسوة، والكبر، والغدر وتجعلها أكثر رقة وتواضعاً.

● وجاء في موسوعة السير النبوية للدكتور الصلابي:

وليس في وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئة عن هزالهما، وضعف بنيتهما، فلم يكن محمد ﷺ سليل أبوين سقيمين، وأنما توفاهما الله بعد أن قاما بالمهمة التي وُجدا من أجلها، ليتأسى بمحمد ﷺ كل من فقد والديه أو أحدهما وهو صغير، وليكون أدبه وخلقه مع يَتَمّه دليلاً على أن الله تعالى تولى رعايته وتأديبه ﷺ.



مكانته صلى الله عليه وسلم عند الآخرين

● أعظم رجل في التاريخ:

١- لقد شهد العالم بهذه العظمة، ومنهم العالم الأمريكي الدكتور «مايكل هارت» في كتاب «مائة رجل في التاريخ»^(١). قال: إن اختياري محمداً ليكون الأول في أهم رجال التاريخ قد يُدهش القراء!! ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي. فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدؤوا رسالات عظيمة ولكنهم ماتوا دون إتمامها. كالمسيح^(٢) في المسيحيين، أو شاركهم فيها غيرهم - أو سبقهم إليهم سواهم كموسى في اليهودية، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحدت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته، ولأنه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً، وحدّ القبائل في شعب والشعوب في أمة، ووضع لها أسس حياتها ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضوع الانطلاق إلى العالم... وأيضاً في حياته فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية... وأتمها.

(١) ترجمة أنيس منصور (مطبعة الزهراء للإعلام العربي) طبعة ١٩٨١م.

(٢) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٩].

- ٢- يقول: (البروفيسور «راماكر يشنا راو» في كتابه «محمد النبي»: لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة، فهناك محمد النبي ومحمد المحارب ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة ومحمد الخطيب ومحمد المصلح ومحمد القاضي كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً).
- ٣- أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل حتى أنه كان على رأس مائة عظيم أن حياة النبي ﷺ واضحة كوضوح الشمس كما قال بعض النقاد الغربيين: (أن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس، فولادته وطفولته وشبابه ومكسبه وكل أحواله الخاصة والعامة مذكورة في مصادر السيرة الصحيحة بأدق التفاصيل).
- وأن سيرته سيرة إنسان بشر، أكرمه الله تعالى بالرسالة لم تلحق حياته بالأساطير، ولم تصنف إليها ألوهية.



الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: «﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ، وأنه خاتم النبيين وأنه مبعوث للناس كافة».

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. قال العلماء -رحمهم الله تعالى-: وأصح القولين أنه على عمومهم، وفيه على هذا التقدير وجهان:

● أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته:

- ١- أما أتباعه، فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.
- ٢- وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة في تغليظ العذاب عليهم.
- ٣- وأما المعاهدون له، فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

- ٤- وأما المنافقون، فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.
- ٥- وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ﷻ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

● الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد:

لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردّوها فلم يخرج بذلك على أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي لا ترفق بهم، لتفرقوا من حولك هيبة لك واحتشاماً منك، بسبب ما كان من توليهم، وإذا كان الأمر كما ذكر ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بك من الحقوق ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه.

قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِهَا إِلَيْنَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي على أمته يشهد لمن بسبب الرحمة العظيمة منه، وتنوين رحمةً للتعظيم. (قاله الشوكاني (١/٤٩٩)).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي على أمته يشهد لمن

(١) «جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام».

صدقه وأمن به وعلى من كذبه وكفر به. قال مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين برحمة الله وبما أعدّه لهم من جزيل التقرب وعظيم الأجر ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين والعصاة بالنار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ يدعو عباد الله إلى التوحيد والإيمان بما جاء به والعمل بما شرعه لهم ﴿يَاذَنُهُ﴾ بأمره له بذلك وتقديره وقيل بتبشيره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة.



امتنان الله تعالى بمبعثه
صلى الله عليه وسلم على
المؤمنين

أعلم أن في كتاب الله تعالى آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفى ﷺ وعد محاسنه وتعظيم أمره قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال السمرقندي وقرأ بعضهم: ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء وقراءة الجمهور بالضم.

وقال القاضي الإمام أبو الفضل: أعلم الله تعالى المؤمنين أو العرب أو أهل مكة، أو جميع الناس على اختلاف المفسرين: من المواجه بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه ويتحققون مكانه ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم، لكونه منهم.

قال بعضهم: إلا أن أعطاه اسمين من أسمائه: رءوف رحيم. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

قال صاحب الشفا: قال جعفر بن محمد: علم الله عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام نبينهم ونبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة، وألبسه من نعمته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً.

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينه الرحمة فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق في إصابة شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه.

وقال السمرقندي: رحمة للعالمين: يعني الجن والإنس، وقيل لجميع الخلق: للمؤمن رحمة بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

روى أنه لما نزلت هذه الآية، قالوا (الكفار): إن محمداً يريد أن نتخذه حناناً، كما اتخذت النصراني عيسى فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا

اللَّهُ وَالرُّسُولَ ﴿فَقَرْنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ رَغْمًا لَهُمْ، الرِّغْمَ الْغِيْظَ وَالتَّذْلِيلَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

خص المؤمنين لكونهم المتفاعلين ببعثته، ومعنى (من أنفسهم) إنه عربي مثلهم. وقيل: بشر مثلهم. ووجه المنّة على الأول: أنهم يفقهون عنه ويأمنون به بجامع البشرية، ولو كان ملكاً لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية. وقرئ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، بفتح الفاء أي من أشرفهم لأنه من بني هاشم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فقال علي بن أبي طالب يا رسول الله ما معنى من أنفسكم؟ قال: نسباً وصهرراً وحسباً، ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح. وأشار الشوكاني -رحمه الله تعالى- إلى ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني من أعظمكم قدراً.

وما جاء في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بن كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بن هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

قوله تعالى: ﴿كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

أي هلا اقتديتم به ، وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال تعالى : ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. فهذه الآية أصل كبير في التآسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله إلى يوم الدين والحساب. فهو قدوة ومثل يحتذى إلى الورود إلى حوضه.



**أحاديث شريفة تبين رحمته
صلى الله عليه وسلم**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي،
وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما
قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحَمُ لا
يُرحَمُ» [متفق عليه].

قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» [متفق عليه].
وقال ﷺ: «بعثت بالرحمة» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» [أحمد وغيره، وصححه الألباني].
وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من
في الأرض يرحمكم من في السماء» أي على السماء وهو الله. [رواه أحمد
وغيره وصححه الألباني].



شفقته صلى الله عليه وسلم على الأمة

● روى مسلم في صحيحه :

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ادعُ على المشركين قال : «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة».

روى الإمام أحمد عن سلمان قال : إن رسول الله خطب فقال : «أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة».

● فأني رحمة حصلت لمن كفر به؟

فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ، قال : من آمن بالله واليوم الآخر ، كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. [تفسير العلي القدير جزء ٣ ص ١٩١].

٢- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : «أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله في إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم : ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، رفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي ، وبكى فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام ، فسأله فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال

تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» [رواه مسلم].

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَأَنْتَ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» [رواه مسلم].

٤- قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَدْعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا» [رواه البخاري ٦٤٨٣].



رحمته صلى الله عليه وسلم بأصحابه

١- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذا جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن» [أو كما قال رسول الله ﷺ].

قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشبه عليه^(١).
وقد ثبت في البخاري وغيره: أن هذا الرجل هو الذي قال: «اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً» ولما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حَجَرْت واسعاً» يريد رحمة الله^(٢).
يقول الأعرابي بعد أن فقه: فقام النبي ﷺ إليّ بأبي وأمي فلم يسب ولم يؤثب ولم يضرب.

ونلاحظ تطف الرسول ﷺ بهذه الكلمات خاصة إذا ثبت أنه ذو الخويصرة، مع ما أظهره في وجه النبي ﷺ يوم حنين حيث قال ذو الخويصرة التميمي: اعدل فإنك لم تعدل حتى قال له النبي ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل...» الحديث.

(١) البخاري مع الفتح (١٠: ٤٣٨ - ٦١٢٨).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠ / ٦٠١٠).

• شرح المفردات :

(جاء أعرابي): قيل أنه ذو الخويصرة اليماني وكان رجلاً جافياً. حتى قال البدر العيني في «عمدة القاري» ولا يبعد ذلك منه بجلافته وقلة أدبه. (مه مه): قول: «مه» كلمة بنيت على السكون، وهو اسم يسمّى به الفعل ومعنا اكفف. لأنه زجر.

(لا تزرموه): يعني لا تقطعوا عليه بوله، يقال: ازرم الدمع والدم انقطعاً. (دعوه): أي اتركوه وهو أمر بصيغة الجمع. (فشئه عليه): أي صبّ المياه عليه.

(أهريقوا): أصله أريقوا من الإراقة ويروي «أهريقوا». (الذنوب): الدلو العظيمة، وقيل لا تسمّى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماء. ما يفهم من الحديث الشريف:

هذا الأعرابي قد عمل أعمالاً تثير الغضب ولذلك هم الصحابة عليهم السلام بعقابه فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطعوا عليه بوله، وهذا غاية الرفق والرحمة بهذا الجاهل، فإن هذا الأعرابي شرع في المفسدة الظاهرة، فلو منع لزادت المفسدة فدار الأمر بين مسألتين:

أ- إما أن يقطع عليه بوله، فيتضرر الأعرابي بحبس البول بعد الخروج مع الخوف.

ب- وإما أن يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه، أو موضع آخر من المسجد، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالكف عنه للمصلحة الراجحة وهي دفع أعظم المفسدتين.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: «أن الحولاء بنت ثويث بن حبيب، مرّت بها وعندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: هذه الحولاء بنت ثويث. وزعموا أنها لا تنام الليل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا» (رواه مسلم).

٣- وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم مثل الوالد لوالده أعلمكم» وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه»^(١) [رواه أبو داود].

قال المناوي بمنزلة الوالد في الشفقة والحنو لا في الرتبة والعلو وفي تعليم ما لا بد منه فكما يعلم الأب ولده الأدب، وأبو الإفادة أقوى من أبي الولادة، وهو الذي أنقذنا الله به من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، وقدم هذا أمام المقصود إعلاماً بأنه يجب عليه تعليمهم أمر دينهم كما يلزم الوالد

مواقف أخرى

الموقف الأول:

حيث الرجل الذي جامع زوجته في رمضان عامداً عالماً ولم يكن له شيء، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأوضح له الكفارة وأظهر الرجل ضعفه عن الصيام والأحكام، إلى أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمكتل من تمر، فقال له: «خذ

(١) أخرج ابن ماجه (٣١٣) وابن خزيمة في صحيحه (٨٠).

هذا فتصدق به» فقال الرجل : على أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيتها (الحرتين) أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : «أطعم أهلَكَ» [رواه البخاري].

سبحان الله العظيم والحمد لله الذي جعل نبينا ﷺ بهذه الرحمة والرأفة والحلم. وكان لا يرى إلا مبتسماً وهنا تبسم وزاد حتى ضحك، فأدخل السرور على الرجل ولم يعاتبه على فعله ذلك.

الموقف الثاني:

لما أمر رسول الله المسلمين بأن يمتنعوا من مكالمة الثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك، وأمرهم لهم باعتزال نسائهم فإنه لا حدود لرحمته وشفقته، وكان يدرك أن هذا الاعتزال فيه مشقة على الثلاثة، وخاصة هلال بن أمية مما جعل امرأته تذهب إلى رسول ﷺ، فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال لا، ولكن لا يقربك، قالت : إنه والله ما به من حركة. فكان جواب رسول الله ﷺ هو إجابتها إلى طلبها وقضاء حاجتها، فهو المبعوث رحمة للعالمين.



رحمته صلى الله عليه وسلم بالنساء

- ١- قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»^(١).
- ٢- وكان يقول في وعظه وخطبه: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة... فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»^(٢).
- ٣- وقال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(٣).
- ٤- عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل عليّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تناولت به الأنصار يوم بعث، -قالت وليستا بمغنيتين- فقال أبو بكر أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا».

(١) الترمذي: كتاب الرضاع ما بين حق المرأة على زوجها.

(٢) الترمذي: تفسير سور التوبة والرضاع حق المرأة على زوجها.

(٣) ت مج صحيح الجامع: (٣٣١٤).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ [١٨٣/٦].

«وإنما سكت النبي ﷺ عنهن لأنه مباح لهن وتسجى بثوبه وحول وجهه إعراضاً عن اللهو، ولئلا يستحين فيقطعن ما هو مباح لهن، وكان هذا من رأفته ﷺ وحلمه وحسن خلقه».

٥- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كانت سودة امرأة ضخمة ثبطة فاستأذنت رسول الله ﷺ أن تفيض من جمع بليل، فأذن لها فقالت عائشة: فليتني كنت استأذنت رسول ﷺ كما استأذنته سودة، وكانت عائشة لا تفيض إلا مع الإمام^(١).

- يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بعثني رسول الله ﷺ: في النقل أو قال في الضعفة من جمع بليل^(٢).



(١) شرح النووي ص (٩/٣٨)

(٢) النووي (ص ٩/٤٠).

رحمته صلى الله عليه وسلم بالضعفاء

- ١- قال رسول الله ﷺ: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ويلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه»^(١).
- ٢- عن أنس أن امرأة كان من عقلها شيء، فقالت يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها^(٢).
انظر إليه كيف يسير مع المرأة المجنونة حيث شاءت فيقضي لها حاجتها وهو من هو في المكانة والعظمة.
- ٣- وكان يحث على رحمة من لا راعي له من الأراامل والمساكين فيقول ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر»^(٣).
- ٤- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»^(٤).

(١) (ح ٢٩ - ٢٣٥٩ / م ٣١٣٩).

(٢) مسلم في الفضائل باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس.

(٣) البخاري الأدب المفرد في باب الساعي على المسكين من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة.

٥- عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: «أيها الناس إن منكم منفرين فأياكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة» [رواه مسلم].

٦- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير» [البخاري ومسلم].

يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مذاكرة رسول الله ﷺ لأصحابه حتى غلمانهم يمازحهم ويطيب قلوبهم، ويتبسط معهم في الحديث فقد كان لأنس أخ صغير اسمه كبشة ويكنى أبا العمير وكان لهذا الغلام طائر صغير يشبه العصفور يلعب به، فمات الطائر فحزن عليه حزناً شديداً ظهر أثره على وجه الغلام وعرف النبي ﷺ سبب حزنه فمازحه لتسليته وتطيب خاطره فكناه وهو الغلام الصغير فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير».

٧- كان غلام يهودي يخدمه ﷺ فمرض. فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطمع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [البخاري - الجنائز].



رحمته صلى الله عليه وسلم بالصغار

قال صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والوسطى وفرّق بينهما قليلاً» [البخاري (٥٣٠٣)].

قال العلماء: المراد قرب المنزلة حال دخول الجنة، أو المراد في سرعة الدخول، وذلك لما فيه من حسن الخلافة للأبوين ورحمة الصغير، وذلك مقصود عظيم في الشريعة.

ومناسبة التشبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لقوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً ومرشداً لهم ومعلماً وكافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل فيرشده ويعقله.

١- عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يؤم الناس وأمامه بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقه، فإذا ركع وضعها وإذا رفع من السجود أعادها» [رواه مسلم].

٢- عن أنس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إني أدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» [رواه البخاري ومسلم].

فهذا خير دليل على شفقته صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ومراعاة أحوالهم، فهو يتجوز في صلاته حين يسمع بكاء طفل، لعلمه بوجد أمه من بكائه برغم أنه قد وضعت قرّة عينه صلى الله عليه وسلم في الصلاة.

٣- عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي

وعليّ قميص أصفر قال رسول الله ﷺ: «سَنَه سَنَه» قال عبد الله وهي بالحشية: حسنة. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي. قال رسول الله ﷺ «دعها» ثم قال: «ابلي واخلفي ثم ابلي واخلفي ثم ابلي واخلفي»^(١).



(١) البخاري «الأدب المفرد» باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به.

رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان

١- ويرغب ﷺ برحمة الطيور والدواب، ويخبر عن غفران الله لرجل برحمته لكلب فيقول ﷺ: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي. فملاً خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجر» [البخاري في المساقاة].

٢- عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة معها فرخان فأخذنا فرخيهما. فجاءت الحمرة فجعلت تفرش فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها».

ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار» [أحمد المسند (٤٠٤/١)] أبو داود في الجهاد «حُمَرَه» الحمرة بتشديد الميم المفتوحة نوع من الطير الصغار: «تفرش» بالفاء أي تبسط جناحها حول النبي ﷺ وفي رواية «تفرس» بالسين أي ترفرف بدنو من الأرض).

٣- عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار،

قال فقال: لا أنتِ أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنتِ أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض. (البخاري كتاب المساقات).

٤- ودخل مرة حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى الجمل النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت فقال: «من رب هذا الجمل» (أي صاحب) لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله ﷺ قال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا، إليّ أنك تُجيّعهُ وتدبّه»^(١).

[أبو داود الجهاد] ذفراه^(٢): أي الموقع الذي يعرق من قف رأسه.

تدبّه: أي تتعبه بكثرة ما تستعمل من الدأب.

٥- وكان يقول ﷺ: «إِنِّي أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لَتَبْلَغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشَقِ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتَكُمْ»^(٣).



(١) أخرجه أبو داود في الجهاد.

(٢) ذفراه: أي الموقع الذي يعرق من قف رأسه.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب في الوقوف على الدابة بسند حسن.

رحمته صلى الله عليه وسلم بالجمادات

١- قال ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث،
إني لأعرفه الآن»^(١).

قال القاضي عياض في الحجر الذي كان يسلم عليه: قيل: إنه الحجر
الأسود، وقال كذلك المناوي: قيل: الحجر الأسود، وقيل غير ذلك.

٢- وقال ﷺ عن جبل أحد: «هذا جُبيل يُحبنا ونحبه»^(٢).
وقال ﷺ: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه»^(٣).

٣- عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج
معه النبي ﷺ: «يعني في صباه» في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على
الراهب هبطوا فخلّوا رحالهم فخرج إليهم، الراهب وكانوا قبل ذلك
يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت: فهم يحلّون رحالهم فجعل
يتخلّلهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال هذا سيد
العالمين هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له
أشياخ من قريش ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق
حجر ولا شجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبى، وإني أعرفه

(١) م (٢٢٧٧).

(٢) خ (١٤٨١).

(٣) م (١٣٩٣).

بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة» الخ^(١).

٤- فقد روى أحمد - رحمه الله تعالى - عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة فقالت امرأة من الأنصار - وكان لها غلام نجار - : يا رسول الله إن لي غلاماً نجاراً فأمره أن يتخذ لك منبراً تخطب عليه؟ قال : «بلى» فاتخذ له منبراً فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر، فإنَّ الجذع الذي كان يقوم عليه كما يئنّ الصبي، فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر». وفي رواية البخاري: فصاحت «جذع النخلة» صياح الصبي، ثم نزل ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن.

فحنين الجذع شوقاً إلى سماع الذكر وتألماً لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفاً عليه وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر.



(١) أخرجه الترمذي في جامع باب ما جاء في بدء نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وقال الترمذي هذا حديث حسن وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ٣١ .

حقه صلى الله عليه وسلم على أمته

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خطب رسول الله زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾. وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل، إنها نزلت في زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فامتنعت ثم أجابت.

قال العلماء: الآية عامة في جميع الأمور وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هنا، ولا رأي ولا قول كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

حيث أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً.

وكذلك شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ

- عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿النور: ٦٣﴾.
- الإيمان: بأنه رسول الله ﷺ.
- التصديق: بكل ما جاء به ﷺ وصح عنه من شريعة في العقائد، والعبادات، والمعاملات.
- محبته ﷺ وتعظيمه واتباع سننه قولاً وعملاً، والصلاة عليه ﷺ في الأوراد والأذكار التي شرعها لنا مثل التشهد في كل صلاة وبعد الأذان.
- نصرته والدفاع عنه: والذود عن مقامه الشريف.
- التحاكم إليه في الأمور المتنازع فيها من غير اعتراض أو حرج.
- من حق رسولنا ﷺ علينا نحن المسلمين أن نعلم أولادنا وأزواجنا وذرائعنا ومن وجبت له رعايتنا وجوب محبته والافتداء بسنته قولياً وفعلياً.
- من حقه ﷺ علينا أن نحب أصحابه -رضوان الله عليهم- بتوليهم والترضي عنهم. والكف عن الخوض في مساوئهم واعتقاد فضلهم ومنزلتهم كما قال ﷺ في الأنصار: «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ومن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله».
- من عادى رسولنا ﷺ فإنه عدو لله قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].
- ومعرفة صفاته وسيرته وحاله حتى نقتدي به كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].



وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

- ١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ أَلْحُدَّ أَفَايِنَ مِتَّ فَهُمْ أُلْحِلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].
- ٢- وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةً أُمَّةً مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهَا فَرْطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةً، عَذَّبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيًّا، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقْرَعَ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَبُوهُ، وَعَصَوْا أَمْرَهُ» [رواه مسلم].
- فَرْطًا وَسَلَفًا: أَجْرًا مُتَقَدِّمًا.
- ٣- وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدَ مَا عِنْدَ اللَّهِ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ. [رواه البخاري].
- ٤- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: آخِرُ نَظَرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَشَفَ السِّتَارَةَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ فَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ، كَأَنَّهُ وَرَقَةٌ مَصْحَفٌ - وَالنَّاسُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ - فَكَادَ النَّاسُ أَنْ يَضْطَرِبُوا، فَأَشَارَ إِلَى النَّاسِ أَنْ اثْبَتُوا، وَأَبُو بَكْرٍ يُؤْمَهُمْ، وَأَلْقَى السَّجْفَ (الستر) وَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَرَقَةٌ مَصْحَفٌ: لِحْسَنُهُ وَصَفَائِهِ. [رواه البخاري ومسلم بنحوه].
- ٥- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَبَضَهُ اللَّهُ: وَإِنْ رَأْسَهُ لَبَيْنَ نَحْرِي وَسَحْرِي. (أَرَادَتْ أَنَّهُ مَاتَ فِي حَضْنِهَا). [رواه البخاري].

٦- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما وجد رسول الله ﷺ، من كرب الموت ما وجد، قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واكرباه، فقال النبي ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً»^(١) الموافاة يوم القيامة^(٢). [رواه البخاري].

٧- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مكث النبي ﷺ، بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، وبالمدينة عشراً، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين. [رواه البخاري].

٨- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله ﷺ: مات وأبو بكر بالسُّنْح (تعني بالعالية بالمدينة) فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله!! فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله ﷺ، فقَبَّله وقال: بأبي أنت، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده، لا يذيقنك الله الموتتين أبداً^(٣)، ثم خرج أبو بكر، فقال: أيها الحالف! على رسلك. (أي لا تعجل يا عمر) فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً

(١) أي نزل بابيك الموت، فيه أمر عام لكل واحد، والمصيبة إذا عمَّت هانت .

(٢) أي الملاقاة حاصلة يوم القيامة.

(٣) أشار بذلك إلى الرد على من زعم أنه سيحيا وفي النهاية سيموت.

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال: فنشج الناس (بكى الناس). [رواه البخاري].

٩- وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُخَيَّر بين الدنيا والآخرة». قالت عائشة: لما نزل به - ورأسه على فخذي - غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى». قلت: إذاً لا يختارنا، قالت: وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به وهو صحيح [متفق عليه].

١٠- والمعروف أن الرسول ﷺ، تُوفِّي يوم الاثنين سنة ١١ هـ بعد أن بلغ رسالته، وأكمل الله به الدين وصلى الله عليه وسلم تسليماً.



شفاعته صلى الله عليه وسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعَ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَتَهَسَّ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ. وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ، إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: اائْتُوا آدَمَ. فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ. خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ. وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ. وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي. اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ (عَبْدًا شَكُورًا)، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى

مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذِبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ (وَكَلِمَةً مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ) فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا. نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتَوْنِي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ مِنْ أَمْتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا

سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ
مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»

[م/١٢٧-١٢٩]



من فوائد التحلي «بالحنان»

- ١- إنه من ثمرة الرحمة التي يرزقها الله تعالى من يشاء من عباده.
- ٢- طريق موصل إلى محبة الله سبحانه ورضاه وجنته.
- ٣- يؤلف بين القلوب ويجمع بين الأحبة فيكون المجتمع المسلم.
- ٤- إنه صفة من صفات الأنبياء والصحابة والتابعين وهم خير من يتأسى بهم .
- ٥- يعطي القدوة والمثل فيصبح العدو حبيباً والكافر مسلماً.
- ٦- يرقق القلب فيجعله يرحم من هو دونه من البهائم والطيور وغيرها.
- ٧- يفسح الأمل في النفس فتتشرح وتطرد لفعل الخير.
- ٨- يساهم في القضاء على الكآبة والبكاء على الماضي وما فيه من آلام تُورق الإنسان.
- ٩- الرحمة والتعطف تدفع المرء للمساهمة الإيجابية في الحياة وإن رحمة الله واسعة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٦].
- ١٠- إعطاء فرصة بل فرص في الحياة لتدارك الأخطاء بكل ثقة بعفو الله وسعت رحمته تعالى.
- ١١- إن الإنسان معرض للقصور والعجز والكسل ، فإذا تذكر رحمة الله وحنانه وشفقته عليه ، طرح كل تلك الأمراض وشمر عن ساعد الهمة للبناء الجديد.
- ١٢- تجعل المرء يحس بألم الآخرين ، فقد أصابهم ، ما أصابه بالأمس

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾
[النساء: ٩٤].

- ١٣- إنها صفة تحلى بها سيد البشر محمد ﷺ فظهرت تطبيقات عملية في واقع الحياة، مع الناس مع الحيوان مع الجمادات.
- ١٤- إنها صفة يمكن أن تكتسب، فترويض النفس على الخير واجباً على المرء ومن الممكن تحصيله.
- ١٥- تعاملنا مع الآخرين يجب أن يكون بالحنان والعطف والرحمة والرفقة.

وصلى الله وسلم عليه تسليماً كثيراً



الرسالة الخامسة

«خطاب الكريم للبشير النذير»

في الجزء الثلاثين

جمع وإعداد/ أبي مصعب
سعيد بن عماش السعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

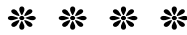
مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم سبيل السعادة وطريق النجاة ومن واجب المسلمين
أن يقرؤوه بإمعان ويتدبروا معانيه ويدركوا أسرارهم ويعملوا بمقتضى ما فيه
عملاً بقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَلْقَىٰ إِلَيْكَ الْمُبْرُكُ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾
[سورة ص: ٢٩].

وإن مما من الله عز وجل به علي ما جمعه حول خطاب الكريم للبشير
النذير الذي نفذت طبعته الأولى وها هي الطبعة الثانية، وهي تتميز بزيادات
مفيدة وتنقيحات، والله أسأل أن يوفقنا لخدمة الكتاب العزيز إنه سميع
مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نَحْمَدُهُ ونُسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعدُ: فقد لفت نظري ذلك الخطاب المباشر والتوجيه الرباني الفذ الفريد لرسوله ﷺ فأمعنت فيه النظر مراراً فإذا هو محيط شاسع في الكتاب الكريم، وقد كانت الهمة عالية إلى استخراجِه كله، فسرت في ذلك أشواطاً، ولكنني شعرت أنني لا أحسن السباحة ولم أتقنها بعد، فأثرت العودة إلى الساحل مرة أخرى، واقتصر على الخطاب الموجه له ﷺ في الجزء الثلاثين كأنموذج يمكن أن يحتذى به مستقبلاً.

وكان منهجي في ذلك أنني سلطت الضوء على كل سورة في الجزء الكريم والبالغ عددها سبعا وثلاثين سورة، فنظرت ماذا قال العلماء فيها وكان مزيد بحث حول موضوع الخطاب الموجه له ﷺ، ففي كلها جاء ما

عدداً عدداً منها جاءت على نسق الكتاب الكريم، وليس فيها خطاب مباشر له في مثل سورة (الشمس، العاديات، المسد، العصر، التكاثر، قريش) أثبتتها في مواضعها حفاظاً على وحدة الجزء الكريم، وقد بينت من أقوال العلماء الهدف من ذلك الخطاب فوجدته يشمل عدداً من المقاصد الكريمة.

فمنه ما كان تسليية له ﷺ كي يصبر على هذه الأمة وأذاها من أجل أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ومنه ما كان بشارات لهذا الأمين ﷺ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ومنه ما كان تفخيماً وتبييناً للقادم ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وأمثالها. ومنه ما كان امتناناً عليه ﷺ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ومنه ما كان أخباراً عامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ومنه ما كان عتياً عليه ﷺ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ومنه ما كان للتعجب وأسلوبه اللاذع ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ومنه ما كان وضعاً للرسول ﷺ في بشريته لا علو ولا غلو ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ وفي الختام عندما لم تنفع الأساليب السابقة والخطابات الرحيمة مع بعضهم كان التهديد للخصوم والأعداء، لعلهم يسلكون الطريق المستقيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

وقد وقفت عشر وقفات مباركات مستبصرات استخلصت في كل وقفة منها الهدف من ذلك الخطاب، وبعد ذلك وجدت الخطاب ينقسم إلى عشرة أنواع كل واحد منها يهتم بقضية معينة وعدد تلك الخطابات سبعون خطاباً موجّهاً له ﷺ.

وليس من شك في أن الأمة داخلة في ذلك الخطاب تبعاً لرسولها ﷺ.

وعلى أية حال فإن هذا الجزء الثلاثين له سماته الهامة، حيث تناول بأسلوبه المقتضب موضوع الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر حيث أخذ الأخير حيزاً واسعاً بل كلياً في وصف ذلك اليوم العظيم، تحذيراً للأمة

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿فكلماته مفزعة رهيبة تبعث في النفس الخوف والوجل (القارعة - الزلزلة - الغاشية - الانشقاق - الانفطار - التكوير).﴾

وليس من شك أن هناك جواهر في السور الكريمة كان من المفترض الإشارة إليها، تركتها ليس زهداً فيها ولكن حتى لا تشعب بنا السبل ويضيع الهدف من الرسالة، فتركناها لوقتها المناسب إن شاء الله تعالى .

وسوف تلاحظ أنني حاولت أن أرمي في رسالتي هذه الموسومة باسم «خطاب الكريم للبشير النذير» بسهم متواضع في تبصير الإخوان ببعض ما يتعلق بهذا الكتاب العزيز من البحوث المهمة التي تعينهم على تدبره وفهم معانيه ومراميها والعمل بما جاء فيه^(١) .

وفي الختام نسأل الله العظيم الكريم أن يجعل هذا العمل المتواضع مقبولاً عنده، ورافعاً للدرجات، ومغلقاً لأبواب الزلاّت والهفوات إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على سيد الثقلين ما تعاقب الليل والنهار وبنغ النيران، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وحمل دعوته وسار فيها سيراً حثيثاً إلى يوم الدين ونحن معهم بفضلله ومنه . والحمد لله رب العالمين .



(١) من باب رد المعروف إلى أهله لا أنسى أن أشكر الأخ الدكتور/ محمد فارس المطيران المطيري على ملاحظاته القيمة فيما اطلع عليه من هذه الرسالة .

مع الكتاب العزيز

إن القرآن الكريم هو المعجزة العقلية الباهرة التي أيد الله بها خير خلقه ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء].

فهو كتاب هداية ومنهج حياة بين الله تعالى فيه لعباده ما يصلح حالهم في الدارين من حيث ما يحل لهم، وما يحرم عليهم وما ينفعهم وما يضرهم، بأسلوب واضح مشرق، لا عوج فيه ولا التواء وعبر عن واقعهم، ولبي رغباتهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم وأزمانهم، فسبحان من جعله كذلك، فهو صالح لكل زمان ومكان، يستمد القوة والبرهان من الجليل الرحمن، فهو كلامه الذي لا تنفذ عجائبه ولا تنتهي أسرارته.

فنزل منجماً في عشرين سنة ونيف على حسب الأحداث والمناسبات الطارئة، وأغلبه^(١) نزل في مكة وضواحيها خمساً وثمانون سورة، وهذا القسم يُسمى المكي. والباقي نزل في المدينة وضواحيها، ويُسمى المدني، ولكل قسم منهما ميزات وخصائص في الأسلوب والمعنى ربما لا تجدها في القسم الآخر.

ومجموع سورته مئة وأربع عشرة سورة، تختلف في عدد آياتها، فأطول سورة هي سورة البقرة، وتضم مائتين وستاً وثمانين آية. وأقصر سورة هي سورة الكوثر، وتضم ثلاث آيات. وعدد آياته جميعاً ستة آلاف ومئتان وست وثلاثون آية، وقد تسمى السورة الواحدة بأكثر من اسم.

وقد وردت لفظة «القرآن» إحدى وسبعين مرة في القرآن الكريم، كما وردت له تسميات أخرى تقرب من نيف وخمسين اسماً، منها: الكتاب،

(١) نصوص أدبية، تأليف محمد رجب النجار ومنيرة الرشيد وآخرين.

المبين، الفرقان، المبارك، النبأ، العظيم، الوحي، البلاغ، وهم حين جمعوه في عهد عثمان بن عفان أسموه «المصحف» وهو الاسم السائد له حتى الآن.

وقد جاء أسلوب القرآن في غاية من البلاغة والإعجاز، والفصاحة والإيجاز، فأذهل العرب، وهم أصحاب بيان وفصاحة. أما معانيه فقد نزلت في نفوس المؤمنين قاطبة، حضاً على أداء الفرائض كالحج، والصوم، والزكاة، والإيمان بالله الواحد، والإقبال على الصدق، والأمانة، والعبادة، والاتعاظ بما وقعت به الأمم السالفة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونهياً عن الظلم، والكفر، وفعل الموبقات، إضافة إلى ما وُعد به المتقون من جنات النعيم.

وقد نزلت كلماته على أحسن هيئة من الواقع والإيقاع، وألذ ما يطبع في الأسماع، وأرق ما يجري على اللسان من الثام كلمات وعبارات، وانتظام المعاني بوضوح وإيجاز، وبلاغة وإعجاز.

قال الراغب الأصبهاني: «ألفاظ القرآن هي لب الكلام وزبدته، وأن ما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالكشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة، فقد أحاط الله باللسان العربي فمخضه، وألقى زبدته في كتابه الكريم وقرآنه العظيم».

وجاءهم بألفاظٍ وتراكيب لا يقع لمخلوق مثلها، فذهل أصحاب البلاغة دونها، وأدركوا إعجاز القرآن بها، من ذلك قوله تعالى: ﴿آلآن حصص الحق﴾^(١) و﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(٢) و﴿فَسَاءُ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾، و﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾^(٣).

(١) حصص الحق: ظهر وانكشف بعد خفاء / سورة يوسف.

(٢) خلصوا نجيا: انفردوا متناجين متشاورين.

(٣) خائنة الأعين: النظرة إلى ما لا يحل (خيانة الأعين).

وقد حرص القرآن الكريم على استخدام اللفظ في موضعه، في غاية من الدقة، وأتى رب الخليفة بما تعجز عن مثله كل الخليفة. فصفى لغتهم التي كانوا يتباهون بها في الجاهلية، ورقق ألفاظهم، وهذب تعابيرهم. وهداهم إلى استعمال أرق الألفاظ وأرصنها أداءً، وأحلاها نغماً.

ولا عجب في ذلك. فهو قرآن من خالق الأكوان^(١).

معلومات عامة عن القرآن الكريم:

- ١- عدد أجزائه ثلاثون جزءاً - الجزء حزبان.
- ٢- عدد أحزابه ستون حزباً والحزب أربعة أرباع.
- ٣- عدد أرباعه مئتان أربعون ربعاً.
- ٤- عدد آياته ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية.
- ٥- عدد آياته المكية أربعة آلاف وأربعمائة وخمس وسبعون آية.
- ٦- عدد آياته المدنية ألف وسبعمئة وإحدى وستون آية.
- ٧- مدة النزول في مكة إثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاث عشر يوماً.
- ٨- مدة النزول في المدينة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام.
- ٩- إجمالي مدة النزول ثلاث وعشرون سنة وأربعة أشهر وإثنتان وعشرون يوماً.



(١) نصوص أدبية محمد النجار ومينيرة الرشيد.

المكي والمدني^(١)

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

الأول: وهو الأشهر أن المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

وهذا التعريف جامع مانع روعي فيه زمان النزول وهي أولى من رعاية المكان؛ لأن معرفة التدرج في التشريع، ومعرفة الناسخ والمنسوخ وغير ذلك من الفوائد متوقفة على معرفة المتقدم والمتأخر في الزمان لهذا كان هذا التعريف هو المعتمد عند أكثر أهل العلم.

وعليه تكون آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ مثلاً مدنية مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع.

وكذلك آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فإنها مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم.

وقل مثل ذلك فيما نزل بإسناده عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال، وقد نزلت ببدر، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور والله أعلم.

الثاني: من المصطلحات: إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبي ﷺ بمنى وعرفات.

ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً كالمنزل عليه ﷺ في بدر وأُحُد وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى.

(١) دراسات في علوم القرآن. د/ محمود إسماعيل.

وهذا التعريف لما روعي فيه المكان لم يكن ضابطاً صحيحاً لاختلاف الأماكن التي نزل فيها القرآن الكريم ونحن نعلم أن من القرآن ما لم ينزل بمكة ولا المدينة بل نزل بأماكن أخرى متباعدة.

فقوله تعالى مثلاً في سورة التوبة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ نزلت بتبوك.

وقوله جل شأنه في سورة الزخرف: ﴿وَسَّأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

الثالث: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكي وما صدر فيه بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو مدني لأن الكفر غالب على أهل مكة والإيمان غالب على أهل المدينة، وألحق بعضهم صيغة ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ﴾ بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا التعريف غير ضابط، لأنه لوحظ فيه المخاطبون فإن في المكي ما صدر بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفي المدني ما صدر بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وفيهما ما لم يصدر بأحدهما.

سورة الحج مثلاً مكية وفي آخرها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ومن ذلك في المكي والمدني كثير.

ويمكننا أن نقول إن هذا التعريف يجري مجرى الغالب إلا أنه من شأن التعريف أن يكون جامعاً مانعاً وجريانه مجرى الغالب لا يجعله كذلك، هذا ملخص ما ذكره أهل العلم في بطون أمهات كتبهم رحمة الله تعالى ونفعنا وإياكم بعلمهم.

* ضوابط كلية لتمييز المكي من المدني :

من الملاحظ أن هذه الضوابط توجد في بعض السور دون بعض ، فإذا وجد في سورة من السور شيء من هذه الضوابط عُلم أنها مكية أو مدنية ، من ذلك :

١- كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير ؛ لأن هذا النصف نزل أكثره بمكة ، وأكثر أهل مكة جابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد .

٢- كل سورة في أولها حرف من حروف المعجم مثل (المص - ق - ن) فهي مكية إلا الزهراوين) وفي الرعد خلاف .

٣- كل سورة فيها سجدة فهي مكية .

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء ، والأمم الماضية ، فهي مكية سوى البقرة فهي مدنية وكذا آل عمران .

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .

٦- كل سورة فيها الجهاد من الإذن فيه وبيان أحكامه فهي مدنية ، وكذا ما يتعلق به بعد انتهائه .

٧- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت ، والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الأولى منها وهي إحدى عشرة فإنها مدنية ، وهي التي ذُكرَ فيها المنافقون .

٨- كل سورة فيها ذكر الحدود وفرائض الميراث فإنها نزلت بالمدينة .

* مقاصد المكي والمدني :

القرآن الكريم بوجه عام كتاب هداية ومنهج حياة بين الله تعالى فيه

للناس ما يجب لهم، وما يجب عليهم وما يحل لهم، ويحرم عليهم، وقد كان في مرحلته الأولى يمتاز بمميزات تأسيسه عقدية وشرعية مجملية، وكان في مرحلته الثانية يمتاز بمميزات فرعية تابعة لما سبقها مفصلة لها ومبينة لشروطها وأسبابها وعللها، فما نزل بالمدينة تابع لما نزل بمكة في أصوله العامة ومحمول عليها ومؤيد لها.

* فما يمتاز به القرآن المكي :

١- يُعني القرآن المكي أولاً بترسيخ الأصول الاعتقادية التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية وهي توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة وتنزيه الله عن كل ما لا يليق بذاته تعالى، وتصديق الرسل في كل ما جاءوا به والإيمان بالكتب المنزلة والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر.

٢- عُني القرآن المكي أيضاً كل العناية بالقضاء على ما ورثوه عن آبائهم وما ابتدعوه من عند أنفسهم من عادات سيئة ومعتقدات فاسدة، كسفك الدماء وأكل مال اليتيم، وواد البنات والتطفيف في الكيل والميزان وغير ذلك من الرذائل.

٣- ودعاهم إلى أصول التشريعات العامة، والآداب السامية بوصفها برهاناً عملياً على سلامة الفطرة وصحة الاعتقاد، وهذه الأصول قصها القرآن المدني ووضع لها الشروط والقواعد.

٤- عُني القرآن المكي عناية فائقة بأخبار الأنبياء والأمم السابقة لما فيها من عظات وعبر وتبيان لسنة الله تعالى في هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ولقد كان يُراد بالقصص في القرآن المكي كثرة من أبلغ الأدلة على أن القرآن كان وحياً من الله تعالى. ولو تأخر إيراده إلى العهد المدني، لقال الكفار تعلمه محمد ﷺ من أهل الكتاب، ولقد قال المشركون في مكة ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ولكن خيب الله ظنهم لفصاحة هذا المنزل وقد ادعوا أنه يعلمه غلام رومي.

٥- ومن خواص هذا القسم قصر معظم آياته وسوره ولاسيما أوائل ما نزل ولعل ذلك كان كذلك ليتمكن المؤمنون من حفظه، ففيهم الشيخ الكبير والمرأة المسنة، والطفل الصغير، وأكثرهم أميون، فكان من رحمة الله لهم أن أنزل الله هذه السور القصيرة في آياتها ومقاطعها ليتمكنوا من حفظها وتلاوتها في يسر ونشاط.

* وأما مقاصد القرآن المدني، فهي كما قلنا - تابعة للمقاصد السابقة ومبنية عليها ومُبيّنة لمجملها ويمكننا أن نجملها فيما يلي:

١- بيان الأحكام العقدية والشرعية بالتفصيل، والحكمة من تشريعها.

٢- ظهرت في العهد المدني تشريعات لم تكن في العهد المكي مثل مشروعية الصوم - والقتال والحج وتحريم الربا وتحريم الخمر.

٣- الكشف عن أحوال المنافقين، الذين كانوا أشد الناس خطراً على الإسلام والمسلمين.

٤- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، ومجادلتهم بالحجة والبرهان في معتقداتهم الباطلة، وشبههم المزيفة وبيان جنایاتهم على الكتب السماوية بالتحريف والتبديل، ومحاولة ردهم إلى الرشd الذي جاءهم به الإسلام.

فائدة العلم بالمكي والمدني:

١- تمييز الناسخ والمنسوخ، فيما لو وردت آيتان أو أكثر مختلفة الحكم، وعلمنا أن أحد الآيتين مكية والآخرى مدنية فإننا نحكم حينئذ بأن المدنية ناسخة للمكية لتأخرها عنها.

٢- معرفة تاريخ التشريع، والوقوف على سنة الله في التدرج بالأمة من الأصول إلى الفروع، ومن الأخف إلى الأثقل، وهذا يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الفرد والجماعة.

٣- تفيد هذه الدراسة في الوقوف على الخصائص البلاغية لكل من المكي والمدني، والكشف عن فوائدها المختلفة ومقارنة بعض هذه الظواهر ببعض والبحث عن مواضع الجمال في كل منها من غير تفضيل ولا موازنة؛ لأن القرآن الكريم كله متساوٍ في الفصاحة والبلاغة، والحلاوة والجمال^(١).



(١) «دراسات في علوم القرآن» د. محمد بكر إسماعيل.

الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن

ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، فذكر في مواضع متفرقة آدم وهوداً وصالحاً وشعبياً وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ومحمد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾، وقال: ﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَالِإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿وَالِإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾، ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾.

وذكر ثمانية عشر منهم في موضع واحد في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ۝٨٦﴾.

أربعة من العرب:

من هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونيك يا أبا ذر»^(١).

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل العرب العاربة، وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل^(٢)، وهود وصالح كانا من العرب العاربة.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، البداية والنهاية (١/ ١٢٠).

(٢) البداية والنهاية (١/ ١١٩ - ١٢٠).

مع البشير النذير ﷺ

مما لا شك فيه أن الله تعالى أرسل رسله إلى الخليقة لإصلاح الاعوجاج في هذه البشرية كلما بعدت عن جادة الحق قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾.

حتى ختمت الرسالات بسيد الثقلين ﷺ، حيث توفرت إمكانيات التطور البشري في عصر النبي الخاتم في القرن السابع الميلادي ومن صفاته في الإنجيل (يوحنا: ١٤ : ١٦): «أنه يمكث معهم إلى الأبد».

مهام المصطفى ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاتِبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن خصائص النبي الخاتم ﷺ عموم رسالته للناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي . . . ومنها: كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وفي حديث آخر قال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست ومنها أرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون».

وأما حقوقه ﷺ على هذه الأمة^(١):

١- وجوب تقديمه على النفس وعلى الناس جميعاً قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأحزاب، ولماذا هذا التقديم؟ والجواب لأنه الذي دل على هذا الخير العظيم الإسلام وأذهب نفسه الشريفة بالחסرات على هذه الأمة خوفاً عليها مما عرفه من شدة العقاب الذي أعد للمخالفين فكثيراً «ما كان يقول، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فرع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكي . . .» الحديث وفيه فقال تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»^(٢).

٢- الصلاة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب].

٣- طاعته في كل ما يأمر وينهى: ﴿وَمَا ءَانِكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر].

٤- خفض الصوت في حضرته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ

(١) الإيمان بالرسول عليهم السلام تأليف الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد.

(٢) مسلم (١/١٣٢).

فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥﴾ [الحجرات].

٥- عدم مخاطبته باسمه قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور].

٦- تعزيره وتوقيره، قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١) [الفتح].

فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير (أي النصرة والتعظيم للرسول والتسبيح لله تعالى).

٧- القيام بتبليغ الرسالة بعده، قال النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية».

* * *

ﷺ

وقفات مع الخطاب الموجه له

الوقف الأولى:

إن أول خطاب في الجزء الثلاثين لرسوله ﷺ في سورة النبأ قوله تعالى : ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ الآيات وفي هذا إخبار منه تعالى لرسوله ﷺ أنه أعد له ولأمته من النعيم ما لا يمكن أن تدركه العقول والأفهام في الحاضر : عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . .» الحديث متفق عليه .

وذلك فضلا منه ، وحثا للأمة على طلب المزيد ولذلك قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

الوقف الثانية:

طريق الدعوة شاق يحتاج إلى جهاد وصبر ومصابرة لذلك كان الخطاب الثاني الموجه لسيد الثقلين : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ولماذا موسى بالذات؟ ربّما لأن موسى ﷺ واجه صعابا وساس أمة من بني إسرائيل قليلا جنسها، متمردة معاندة لتعاليم ربها، ومع ذلك جاهد وصبر وانتصر، فلقاء المصطفى ﷺ مع موسى في حادث الإسراء والمعراج معلوم .

فكان في هذا الخطاب إرشادا للرسول ﷺ ليتأسى به وبجهاده وصبره على بني إسرائيل ، وأنتم أيها الأتباع اخلصوا إلى تلك النتيجة .

الوقف الثالثة:

بلّغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة ﷺ ومن الملاحظ في الخطاب، إخباره أن مهمتك في الأرض قد انتهت، فما عليك إلا الاستغفار

والتوبة والاستعداد للقدوم على الملك العلام: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.

وأفراد الأمة وجماعاتها داخلون في الخطاب تبعاً لشفيعتها ﷺ.

الوقف الرابع:

ظهر تشريف محمد ﷺ بجواره للبيت العتيق فقد امتن الله بذلك على خليله ﷺ: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وزادت مكانة البيت العتيق بحلوله فيه ﷺ، وإن لك مكانة سوف تستمر كل الدهر وإن المخالف لك هو الذي سوف ينقطع ذكره قال تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

الوقف الخامس:

تغير الحال من حال إلى أخرى سوف ينال كل هذه الخليفة في الدارين، وأنت يا محمد واحد منها على القول الراجح عند أهل التفسير ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾.

الوقف السادس:

مع منزلة الرسول ﷺ العظيمة والكمال البشري له ﷺ إلا أننا نلاحظ العناية الفائقة من الجليل بهذا النبي، فالتوجيهات الربانية الحكيمة متوالية فمرة يؤمر بالعطف على اليتيم كي لا ينسى أيامه الأولى التي عاشها بتلك الحالة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وتارة أخرى تذكير بنعمة الرسالة والتفرغ للعبادة بعد أن بلغها ﷺ أكمل تبليغ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾.

ومرة أخرى توجيهات إلى وجوب الالتجاء والاعتصام بربه العظيم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

الوقف السابع:

من سنن الله الماضية أن المخالفين لهذا الدين لهم الفشل والهزيمة منذ العصور الأولى، فالنصر والتمكين لجند الرحمن قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

جَهْدُوا فِيْنَا لِنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠﴾

فقوم نوح وعاد وثمود والأحزاب من بعدهم عارضوا الرسل، وآثروا موروثات الآباء والأجداد، وعاثوا في الأرض الفساد، لكن النتيجة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ﴿إِن بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وهكذا.

إذن لا يأس أيها الدعاة من النصر المحقق، ما كنتم سائرين على منهج الرسالة المحمدية، ومن تخلف عن الركب فلا يلومن إلا نفسه.

الوقفه الثامنة:

ظهر من الخطاب الموجه له ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أن مهمته ليست الإخبار عن الساعة، ومتى هي، فعلمها عند ربها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وهي طائفة من الأسئلة حاول كفار مكة أن يثقلوا الرسول ﷺ بها، فكان الجواب المُفْهِم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

فكلمات [شاهد - مبشر - نذير - داعي - سراج - منير] لا تحتاج إلى شرح.

الوقفه التاسعة:

إن الله تعالى أطلع خليفه ﷺ على بعض المغيبات، والتي لا تكون إلا من مشكاة النبوة، مثل مآل هذه الأرض، حيث إنها سوف تخرج أثقالها، وتتحدث وتشهد وتشكو ما جرى فوق ظهرها من الخيرات والحسرات ﴿يَا أَيُّهَا رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

الوقفه العاشرة:

إن وصف يوم القيامة، وأحواله أخذ قسطاً وافراً في الجزء الثلاثين فُوصف بأنه نأ عظيم وأنه يوم يكون أشرف الخلق وهم الملائكة صامتين لا يتكلمون ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ .

يوم يتمنى الكافر أنه تراب، يوم يبحث الإنسان عن حسنة ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ الآيات ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ .

يوم يجيء ربك لفصل القضاء بين الخلائق، يوم تنزل الملائكة صفاً صفاً، يوم قال الله عنه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ يوم تكون وجوه المؤمنين نيرةً مستبشرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

حقاً قولك ربي لرسولك ﷺ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ لما فيه من الأمور العظام على الكفار والعصاة، وما فيه من حسن الاستقبال للطائعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] .

ما أعظمه من مشهد والملائكة المقربون يستقبلونهم ويطمئنونهم في ذلك اليوم الذي تشيب فيه مفارق الولدان قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ .

ألا يا عباد الله شمروا عن سواعد الاجتهاد بعمل الصالحات الباقيات .

أنواع الخطاب

أولاً: ما كان دعوة إلى النظر في أحوال السالفين من الأمم وأخذ العبرة من ذلك وجاء فيه ثلاثة خطابات:

١ - ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: ١٥].

٢ - ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: ١٧].

٣ - ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

ثانياً: ما كان طمأننة له وبشارة له عليه الصلاة والسلام:

١ - ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

٢ - ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨].

٣ - ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].

٤ - ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

٥ - ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ثالثاً: ما كان امتناناً عليه ﷺ:

١ - ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

٢ - ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

٣ - ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨].

٤ - ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

٥ - ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

٦ - ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

٧ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

رابعاً: ما كان فيه أخبار عن حال المخالفين في الدنيا والآخرة:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

- ٣- ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق: ١٧].
- ٤- ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].
- ٥- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣].
- ٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].
- ٧- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].
- ٨- ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].
- ٩- ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ [التين: ٧].
- ١٠- ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].
- خامساً: ما كان فيه تفخيم للأمر القادم:
- ١- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْذِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧].
- ٢- ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْذِّينِ﴾ [الانفطار: ١٨].
- ٣- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ [المطففين: ٨].
- ٤- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُونُ﴾ [المطففين: ١٩].
- ٥- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢].
- ٦- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾ [البلد: ١٢].
- ٧- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢].
- ٨- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣].
- ٩- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةَ ﴿١١﴾ نَارٍ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ١١].
- ١٠- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ [الهمزة: ٥].
- سادساً: ما كان فيه توجيهات كريمة له ﷺ:

- ١- ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].
- ٢- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].
- ٣- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].
- ٤- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧].
- ٥- ﴿وَالِىَ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨].

- ٦- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١].
- ٧- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق : ١].
- ٨- ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق : ٣].
- ٩- ﴿كَلَّا لَا تُطَعِّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق : ١٩].
- ١٠- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر : ٣].
- ١١- ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون : ١].
- ١٢- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١].
- ١٣- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق : ١].
- ١٤- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس : ١].

سابعاً: أخبار عامة له ﷺ :

- ١- ﴿بَانَ رَبُّكَ أَوْحَا لَهَا﴾ [الزلزلة : ٥].
- ٢- ﴿إِن شِئْتَ شِئْتَ هُوَ أَتَّبِرُ﴾ [الكوثر : ٣].
- ٣- ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد : ٢].
- ٤- ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر : ١].
- ٥- ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ﴾ [الإنشقاق : ١٩].
- ٦- ﴿إِنَّ إِلَّكَ رَبِّكَ الرَّجْعَى﴾ [العلق : ٧].

ثامناً: ما كان فيه أسلوب التعجب :

- ١- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق : ١٠].
- ٢- ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق : ١١].
- ٣- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ [الماعون : ١].

تاسعاً: ما كان فيه عتب عليه من ربه ﷺ :

- ١- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس : ١].
- ٢- ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ [عبس : ٢].
- ٣- ﴿فَأَنْتَ لَهُمْ تَصَدَّى﴾ [عبس : ٦].

- ٤- ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي﴾ [عبس : ٧].
 - ٥- ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس : ٨].
 - ٦- ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس : ١٠].
- عاشراً: ما كان فيه إظهار لبشريته ﷺ
- ١- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية : ٢١].
 - ٢- ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى : ٩].
 - ٣- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات : ٤٢].
 - ٤- ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ [النازعات : ٤٣].
 - ٥- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ [النازعات : ٤٤].
 - ٦- ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّحْشَنَهَا﴾ [النازعات : ٤٥].



مع الآيات الكريمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
 فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
 مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ
 أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ
 فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
 الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ
 مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِّيُثَبِّتُ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُوهَا بِرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾
 إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
 لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ
 أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
 دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ
 حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ
 مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
 إِلَّا مَن أِذْنٌ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن
 شَاءَ اخْذِلْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
 يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾

سورة النبأ (١)

* الملامح العامة للسورة:

سورة عمّ مكية وتسمى «سورة النبأ» تفتتح بسؤال مشير بهز الوجدان عن أمر شكك فيه وهو يوم البعث والنشور فمطلعها يحل تلك الحيرة التي تنتاب أهل مكة فهم بين مكذب ومتردد فكان الجواب المذهل شديد القرع ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿١﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

وقد أقامت السورة الكريمة الدلائل على قدرة البارئ الذي بسط الأرض وأرسى الجبال وخلق الأزواج كلها، فهو قادر على إعادة خلق الإنسان.

* كما تناولت السورة يوم الفصل بين الخلائق ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.

* وإشارة إلى أنواع العذاب المعد للمخالفين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

* وكذلك أظهرت جانباً مشرقاً مما أعد للمتقين ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ .

* ثم أسدلت السورة الكريمة الستار على مشهد تمنى الكافر أن يكون تراباً هروباً من الحساب والعذاب ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَكَلِّفُنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ .

موضع الخطاب الكريم:

قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ عطاء!! ممن؟ إنه من ربك فلا شك أنه عظيم تفضلاً منه سبحانه وإحساناً مكافئاً على أعمالهم ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ والعجب أن هذا الخطاب جاء بعد أن عدد الله تعالى ما أعده للمتقين، فهم في هبات لا تعد ولا تحصى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ وهذه الصفحة الوضيئة في مقابل ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٣٢﴾ لِلظَّالِمِينَ مَذَابًا﴾ مع العلم أن مبدأ الثواب والعقاب مما جاءت به الشريعة الغراء، بخلاف من ادعى أنه يعبد الله لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من عقابه، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ هذا هو المنهج الصحيح .



سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝ (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ (٨) أَبْصَرُهَا ۝ (٩) خَشَعَةٌ ۝ (١٠) يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ (١١) أَيْنَا كُنَّا ۝ (١٢) عِظْمًا نَخْرَةً ۝ (١٣) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ (١٤) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ (١٥) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝ (١٧) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ (١٨) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ (١٩) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ (٢٠) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝ (٢١) فَأَرَاهُ ۝ (٢٢) آيَةَ الْكُبْرَى ۝ (٢٣) فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝ (٢٤) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ۝ (٢٥) فَحَشَرَ ۝ (٢٦) فَنَادَى ۝ (٢٧) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝ (٢٨) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ (٣٠) أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ (٣١) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ۝ (٣٢) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ (٣٣) وَأَلَّاَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ (٣٤) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ (٣٥)

وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَعَا لَكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فِإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ
 الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ
 لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ
 هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ
 ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
 ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ
 مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

سورة النازعات (٢)

* الملامح العامة للسورة:

سورة النازعات مكية، شأنها شأن السور المكية التي تُعنى بالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، وعمومها يدور في فلك أهوال يوم القيامة ويظهر جلياً فيها مآل المتقين ومآل العصاة المجرمين.

استهلت السورة بالقسم بأعظم المخلوقات وهم الملائكة الكرام.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم في تنفيذه.

وتبين السورة الكريمة حال المشركين، فصورت حالهم في ذلك اليوم العظيم وقد أصابهم الهلع والخوف الذي تشيب له مفارق الولدان قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ثم تحدثت عن عنجهية كفار مكة،

وسوء استقبالهم لمحمد ﷺ وقد بين الله تعالى لهم أنهم أحقر وأضعف من خلق السماء التي رفعها فوقهم وأذل من الأرض التي يمشون عليها ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَلَمَاءُ بَنَاهَا﴾ السورة ختمت هذه المشاهد بأمر قد استبعدوه ألا وهو قيام الساعة وأنه قريب ﴿كَانَ يَوْمَ يُرَوَّهَا لَهُ يُرَوَّهَا إِلَّا عِشَّةٌ أَوْ جُنْحًا﴾ .

الخطاب الأول وموضعه :

قال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ وتسليّة له ولأمته عامة والدعاة خاصة، وحديث موسى مع فرعون لا يخفى على أحد، حيث ظهر في ذلك الحديث قوة موسى ﷺ وجلده وصبره في وجه ذلك الطاغية الأعمى الذي أظهر في الأرض الفساد وادعى الربوبية ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ .

فرعون كان أقوى من كفار قريش، ومع ذلك أخذه، وكذلك هؤلاء .

قال القرطبي «هل» بمعنى «ما»، أي ما أتاك ولكن أخبرتك به، فإن فيه عبرة لمن يخشى .

الخطاب الثاني وموضعه :

قال تعالى : ﴿يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِلُهَا﴾ وسبب نزولها قال ابن عباس رضي الله عنهما : سأل مشركوا مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة استهزاءً . فأنزل الله تعالى عز وجل الآيات، وذلك أنهم يسمعون أنباء القيامة وأن لها أوصافاً، مثل الطامة، والقارعة فكانوا يقولون على وجه التكذيب متى هي؟

الخطاب الثالث وموضعه :

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ قال عروة رضي الله عنه لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلًا﴾ أي مردها ومرجعها فهو الذي يعلم وقتها .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ الآية .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّاءُ إِلَّا هُوَ﴾ .

ثم قيل له ﷺ: فيم أنت من ذكرها؟ أي إرسالك وأنت آخر الرسل وخاتم الأنبياء وذكر من أذكراها وعلامة من علاماتها فلا حاجة إلى الاستفهام عن وقتها بعد العلم باقترابها فإن هذا القدر من العلم يكفي في وجوب الاستعداد لها.

الخطاب الرابع وموضعه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشَّهَا﴾ أي لا تتعدّه إلى العلم بالغيب الذي علم الساعة جزء منه، وفي الحقيقة هذا الخطاب إرشاد للرسول ﷺ لواجبه بوجوب الإنذار لا الإعلام عن وقتها وخص الإنذار بمن؟ بمن يخشى لأنه هو الذي ينتفع بالإنذار ومن كانت عنده خشية ملك الأمر كله واستفاد في الدارين، والأمة تبع لرسولها ﷺ بوجوب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآيات وقد جاءت آيات أخرى تدل على عموم الإنذار كقوله: ﴿وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ وكقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ومعلوم أن الإنذار في الحقيقة يكون عاماً للخلق لإقامة الحجة عليهم، وإنما خص في ذلك بعض الآيات بالمؤمنين لبيان أنهم هم المنتفعون به دون غيرهم كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك يبين تعالى: أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة لإيمان الأشقياء بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ
يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ وَتَصَدَّى ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ
عَنْهُ نُلْهَى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾
مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُلْ لِلْإِنْسَانِ
مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَّانَهُ وَقَافَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾
ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَعَالَمَكُمُ ﴿٣٢﴾
وَلَا تَعْمَكُمُ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يَعْنِيهِ ﴿٣٨﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٠﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤١﴾ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٤٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٣﴾

سورة عبس (٣)

* الملامح العامة للسورة:

السورة مكية في عمومها تتناول قدرة الباري تعالى في خلق الإنسان والنبات والحيوان، وتناولت أيضاً أهوال يوم القيامة، كذلك فيها أخبار عن جحود الإنسان وكشف طبعه وكفره مع النعم الكثيرة ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ الآيات.

وفي السورة تنبيه على فضل الله على خلقه حيث سهل للإنسان طرق كسب العيش ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الآيات ومع ذلك لم يعتبر ولم يستقم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خُتِمت السورة الكريمة بكشف بعض أهوال يوم القيامة من فرار الإنسان من أحب الناس إليه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآيات.

السورة الكريمة بينت حالة المؤمنين وأثارت وجوههم والغبطة بادية عليهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ الآيات.

وفي المقابل إشارة إلى قبح تلك الوجوه الكافرة وما يعتريها من ظلمة وغبرة ينم عن سوء حالهم نسأل الله العافية لنا ولكم جميعاً.

سبب النزول:

قالت عائشة رضي الله عنها أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم حيث كان ^(١) رسول الله ﷺ يناجي أبي بن خلف من قريش، قالت: فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويُقبل على الآخر ويقول أترى بما أقوله بأساً، حيث كان رسول

(١) التفسير (٧٣ / ٣٣٣١).

الله ﷺ يمشي ويُناجيهم .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ يشير إلى قائده أن يكف وابن أم مكتوم يدفعه ولا يصبر ، قال : حتى عبس رسول الله ﷺ فعاتبه الله في ذلك فقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحي شيئاً كتم هذا عن نفسه وحاشاه ذلك ﷺ .

وفي رواية فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله بعض بصره وخفض برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ الآيات .

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ ﴾ أي في وجهه ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى له في هذا الوقت الذي كان ﷺ فيه مشغولاً بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله ، فقد قوي طمعه في إسلامهم ، وكان في إسلامهم إسلام فئام من الناس .

قال القرطبي :

ومن لطف الله تعالى برسوله ﷺ أن أنزل قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيماً له ولمكانته ﷺ عنده ولم يقل : « عبست وتوليت » ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَرْكَى ﴾ أي يُعلمك .

ثم ذكر الفائدة من الإقبال عليه وهي موضع الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ ﴾ أي الأعمى « يزكى » أي يتطهر من الذنوب ويتصف بالأخلاق الجميلة .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرْ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴾ أي يتذكر ما ينفعه ، فيتنفع بتلك الذكرى ، وهذه فائدة كبيرة ، لأنها هي المقصودة من بعثة الرسل عليهم السلام ، ووعظ الوعاظ وتذكير المذكرين .

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإقبالك يا محمد على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك، مقبلاً هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني الذي لا يسأل، لعدم رغبته وحرصه على الخير مع تركك من هو أهم منه فإنه لا ينبغي لك فليس عليك أن لا يزكى. فلو لم يترك، فلست بمحاسب على ما عمله من شر.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ﴾ أي: حقا إن هذه موعظة وتذكرة من الله يذكر بها عباده. فإن تبين ذلك ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي عمل به كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ ثم ذكر محل هذه التذكرة، وعظمها ورفع قدرها، فقال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ مَرْفُوعَةٍ ﴿الْقَدَرِ وَالرَّتَبَةِ، مطهرة من الآفات وعن أن ينالها أيدي الشياطين أو يسترقوها بل هي﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده.

وصفة الملائكة ﴿كَرَامٍ﴾ أي كثيري الخير والبركة ﴿بَرَرٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم، وذلك كله حفظ من الله تعالى لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء ولم يجعل للشياطين عليه سيلاً، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كُفُوراً ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ لنعمة الله وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين الرشد من الغي.

قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً وكان الفقراء في مجلسه أمراء قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف].

وكان إذا دخل ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

فائدة لطيفة ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى :

في قوله تعالى : ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ عبر الله تعالى عن هذا الصحابي الجليل بلقب يكرهه الناس مع أنه قال تعالى : ﴿وَلَا نُنَابِزُوكَ بِالْأَلْقَابِ﴾ .

وقد أجابوا عن ذلك : أنَّ السر في هذا التعبير بلفظ الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله ﷺ لأنه لو كان يرى ما هو مشغول به من صناديد قريش لما قطع كلامه قال تعالى : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الآية .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ❶ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ❷ وَإِذَا الْجِبَالُ
 سُيِّرَتْ ❸ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ❹ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ
 ❺ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ❻ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ❼ وَإِذَا
 الْمَوْتُ دَسَّ سِيلَتْ ❽ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ❾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ
 ❿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⓫ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ⓫ وَإِذَا الْجَنَّةُ
 أُزْلِفَتْ ⓫ عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⓫ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ ⓫
 الْجَوَارِ الْكُنَسِ ⓫ وَاللَّيْلُ إِذَا عَسْعَسَ ⓫ وَالصُّبْحُ إِذَا انْفَسَسَ ⓫
 إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⓫ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⓫ مُطَاعٍ
 ثَمَّ أَمِينٍ ⓫ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ⓫ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ
 ⓫ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ⓫ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ⓫
 فَإِنْ تَذَهَبُونَ ⓫ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ⓫ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
 يَسْتَقِيمَ ⓫ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⓫

سورة التكوير الشريفة (٤)

الملاح العامة للسورة:

هذه السور المكية الكريمة ذات مقطعين الأول يتحدث عن الانقلاب الكوني الهائل الذي هز كل المخلوقات، والمقطع الثاني، فيما يتعلق بصفة الملك الذي يحمل الوحي وكذلك صفات النبي ﷺ فما هو بمجنون وليس بشحيح في إبلاغ الدعوة وليس قوله بقول شيطان رجيم فهذه صفات تذكية من ربه تعني أنه المقصود المخاطب المخبر عنه.

والسورة بينت بطلان مزاعم المشركين حول القرآن الكريم.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلي يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشقت﴾» الترمذي (١).

موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وهو محمد ﷺ وصاحبكم الذي لا تجهلون، وهو الأمين الصادق أنتم وصفتموه بذلك قبل البعثة فما الذي دهاكم اليوم؟ محمد ﷺ أكمل الناس عقلاً وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة ﷺ.

ومن الملفت للنظر في الآيات الكريمة حيث ذكرت فضل الرسول الملائكي (جبريل) الذي جاء بالقرآن حيث بين الله تعالى بعض صفاته وأنه كريم وذو خصال حميدة وأنه قوي على ما أمره الله به، وأن له مكانة عنده وأنه فوق الملائكة وأمره مطاع وأنه ذو أمانة في نقل الرسالة لا يزيد ولا ينقص، وهذا يدل على شرف القرآن ومكانته عند الله، ثم جاء ذكر الرسول البشري الذي أنزل عليه القرآن الكريم، ودعا الناس إليه.

(١) الترمذي كتاب التفسير (٧٤/٣٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُنِينِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل ﷺ بالأفق الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: وما هو على ما أوصاه الله به بشحيح يكتم بعضه، بل هو ﷺ بلغ الرسالة أكمل تبليغ وأحسن تبیین، فقد كان يرسل الملوك رغبة في هدايتهم وهداية أقوامهم، وكذلك يهتم بمن حوله فيبلغ الكبير والصغير والغني والفقير والمرأة والصبي الصغير، دعوة شاملة لكل الناس، للأحمر والأسود، والبعيد والقريب، نور يشع ليضيء قلب من شاء الله أن يهديه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ سَيُطَنِّجِمِ﴾، لما ذكر جل جلاله كتابه وفضله ذكر الرسولين الكريمين اللذين على أيديهما وصل كتاب الله إلى الناس، ونفى الله أن يكون هذا الكتاب من صنع الشياطين، وأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ أي كيف يخطر ببالكم، فكيف تساوون بين كلام الله العظيم وبين اختلاق الشياطين، وقال قتادة: أي أين تذهبون؟ وقال الزجاج: فأي طريقة تكون آيين من هذه الطريقة التي بينت لكم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وماله من صفات، وما ينزه عنه من النقائص والردائل، وما به من سعادة الدارين، وتنالون بالعمل به السعادتين.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بعد ما تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فمشيئته لا يمكن أن تُعارض.

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

ترتيبها ٨٢ آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كُنِينِ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾
يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

سورة الانفطار الكريمة (٥)

* الملامح العامة للسورة:

سورة الانفطار من السور المكية، تتحدث عن الانقلاب الكوني الذي تحدثت عنه سورة التكوير الكريمة، ذكرت انفطار السماء وانتشار الكواكب النيرة، وكذلك عن تفجير البحار وبعثرة القبور، فسبحان القوي العزيز كل العوالم تغيرت السماء والبحار والبراري أخرجت ما فيها.

وتحدثت السورة عن جحود الإنسان، وكفرانه لنعم ربه.

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ينادي في الإنسان أكرم ما فيه كيانه العام وهو إنسانيته التي تميزه عن سائر الموجودات وتجعله خليفة.

أوضحت السورة أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا﴾.

﴿كِرَامًا كَنِينًا﴾ صفة الحافظين كونهم ﴿كِرَامًا﴾ وفيها معانٍ عجيبة وإيحاءات دقيقة، ليحرك في القلوب والنفوس إحساس الخجل وضرورة التجميل. بحضرة هؤلاء الكرام، فلا يقدم على أمر أو قول بذيء أو سيء فلا ابتذال ولا سفول بحضرة هؤلاء القوم، والسعيد من اعتبر، ولكنها الغفلة نسأل الله العافية.

وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة والأهوال التي فيه، وتخلي النفوس في ذلك اليوم من كل حول وقوة، وتفرد الله جل جلاله بالتصريف، فلا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾

تعظيم له، أي يا محمد ما أعلمك ما هو يوم الدين، وأي شيء هو في شدته وهوله، فهو يوم يُحير الأذهان وتشيب منه الولدان، وكرر ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ كي يبين عظمة ذلك اليوم، وهذا من أساليب القرآن الكريم، لشد الانتباه وشحد الهمم للتفكير في ذلك اليوم العظيم.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ فكل مشغول بنفسه، لا يطلب خلاص غيره، الرسل في ذلك اليوم يقولون: اللهم سلم سلم. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين الخلائق، بعدله سبحانه وتعالى.

يقول الطبري: واضمحلت هنالك الممالك، وذهبت الرياسات والملك يومئذٍ لله الواحد الجبار.

* * *

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ
مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾
وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ إِيْتِنَا قَالَ أَسْطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ
عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾

خَتَمَهُ مِمْسَكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَجْلِ
 مَنْ تَسْنِمْ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
 يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
 عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانَُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سورة المطففين الكريمة (٦)

* الملامح العامة للسورة:

السورة الكريمة مكية، ولها سماتها كما في أخواتها، هذه السورة في مطلعها الأول تبدأ بالحرب يعلنها الله على المطففين ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وتفسر الآيتان التاليتان المعنى. فهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وفي المطلع الثاني يتحدث عن الفجار في شدة وردع وتهديد، وأن آثام قلوبهم حجبهم عن ربهم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُوجُونَ﴾ الآيات.

وفي المطلع الثالث: تعرض الصفحة المقابلة. صفحة الأبرار، ورفع مقامهم، وهي صفحة مضيئة ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾.

وفي المطلع الرابع: ختمت السورة الكريمة بنوع من أنواع الانقلاب في الفطر عند بعض الناس، وإن هؤلاء المساكين المغرورين كان جل

همهم السخرية والاستهزاء بالفريق المؤمن، ثم بينت السورة الكريمة أنه لا بد أن يظهر الحق، وتنكشف الصورة جلية يوم القيامة ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

قال قوم من أهل العربية ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية، وقال الحسن: ﴿كَلَّا﴾ بـمعنى حقاً.

﴿كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ الفجار هم الكفرة والمنافقون والفساق.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ كتابهم في سجين، جعل ذلك دليلاً على خسة منزلتهم وهو يجمع بين الضيق والسفول حيث مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل سافلين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ وهذا دليل على خبث أعمالهم، وفي مقابل ذلك قال في كتاب الأبرار يشهده المقربون.

موضع الخطاب الأول:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس مما تعلمه يا محمد أنت وقومك، ثم فسر له فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْجُومٌ﴾ أي مكتوب كالرقم في الثوب لا يُنْسَى ولا يُمَحَى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ عليون اسم لأعلى الجنة، أي مصيرهم إلى عليين، وإن الشيء كلما علا وارتفع عظم شأنه، روى عن ابن عباس أن في الجنة وعنه أيضاً قال أعمالهم في كتاب الله في السماء.

موضع الخطاب الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة.



سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

آیاتها
۲۵رتبها
۸۴

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ
 ۳ ﴿﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّهَا
 الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا حَافِمٌ لِّقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ
 كِتَابَهُ وَيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَينْقَلَبُ
 إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
 يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
 إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَّنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسَمُ
 بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾
 لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
 عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ
 ۲۲ ﴿﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
 ۲۵ ﴿﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

سورة الانشقاق الكريمة (٧)

* الملامح العامة لسورة الكريمة:

سورة الانشقاق مكية، تتحدث عن الانقلاب الكوني كما في سورة التكوير، والانفطار، ولكن هنا يظهر طابع الخضوع للمولى العظيم.

﴿إِذَا أَلْمَأُ أَنْشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ الآيات.

وبعد ذلك الاستسلام وجه الخطاب للإنسان لعله يستسلم ويخضع ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ ۖ﴾.

تناولت السورة الكريمة ما سيلقاه المشركون من أهوال وشدائد.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّقِيَ كِتَبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ﴾ الآيات.

وجاء فيها مشاهد كونية حاضرة وتقع تحت حس الإنسان مع القسم بها وإن الناس متقلبون في أحوال مقدرة لا مفر من ركوبها.

وقد ختمت السورة الكريمة، بتوبيخ للمشركين لعدم إيمانهم بالله وحده وبرسوله ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين وبهذا القرآن الكريم الذي أذهلهم مع بلاغتهم، ولكن العناد والمكابرة أبعدهم عن الطريق المستقيم الذي فيه النجاة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ روى البخاري (٥٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما حالاً بعد حال قال: هذا نبيكم ﷺ قال ابن جرير بعد ما ذكر أقوال الناس في هذه الآية الكريمة من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل قول من قال: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أنت يا محمد حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشدائد، والمراد وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ إلا أن جميع الناس داخلون في ذلك الخطاب.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سُمِّيَتِ البشارة بشارة لأنها تؤثر في النفس والمعنى واللّه أعلم، أي أخبرهم يا محمد بأن الله قد أعد لهم عذاباً أليماً أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم، وموضع البشارة في سياق الإنذار، تهكم بالكفار من جنس فعلهم، لأن العادة أنّ البشري تكون في الخير، وأين الخير مع هذا العذاب الأليم، نسأل الله العافية.



سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
 ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
 قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
 مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
 عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ
 رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدٌ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾
 ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
 ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَرِئٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة البروج الكريمة (٨)

الملاحم العامة للسورة:

* هذه السورة مكية كأخواتها، وتدور حول حادثة أصحاب الأخدود وهم فئة من المؤمنين، قيل إنهم من النصارى الموحدين ابتُلُوا بأعداء طغاة حاولوا ردهم عن دينهم، فأبوا، فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض ثم أوقدوا فيه النار ثم كبوا فيه المؤمنين.

* وتُستفتح السورة بالقسم بالسماء وما فيها من نجوم وباليوم العظيم المشهود، وجميع الخلائق على هلاك ودمار المجرمين خاصة من فتنوا المؤمنين.

* تحدثت السورة عن قدرة الله على الانتقام ثاراً لعباده ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

* ختمت المشهد بقصة «فرعون» الطاغية، وما حل به وقومه من الهلاك بسبب الكفر والطغيان.

موضع الخطاب الأول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ طمأنة ووعد بالنصر - فإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضوع هو الذي يناسب ما مر من الحادث، فمهما كانت شدة التعذيب في الدنيا فإنه يهون أمام ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ نلاحظ أن نسبة البطش إلى الرب سبحانه موح بالشدّة والقوة، وفيه تهديد لأهل مكة ولكل من عارض دعوة الحق ووقف في سبيلها مانعاً لها. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

موضع الخطاب الثاني :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أي هل بلغك يا محمد ما أحل الله بهما من البأس ، وأنزل عليهما من النعمة؟ وهي إشارة إلى قصة طاغية تجبر في الأرض ، وقوم استجبوا العمى على الهدى ، وحالة ثلاثة لمن عذب المؤمنين وصد عن سبيله وهي ليست بعيدة عنكم يا أهل مكة ، وفي ختام الحالات الثلاث الفوز للقلة المؤمنة فإن الله فعال لما يريد ، ولن يترك أوليائه المتقين على مر الأيام والعصور .



سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ
دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ وَعَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾ لَنُفِثَهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويًا ﴿١٧﴾

سورة الطارق الكريمة (٩)

الملاح العامة للسورة:

* افتتحت السورة بالقسم بالسماء ذات الكواكب والأبراج على أن كل إنسان قد وكل به من يحرسه من الملائكة الكرام ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ .

* أشارت السورة الكريمة إلى بعض البراهين على قدرة الله تعالى وأنه قادر على إعادة الإنسان مرة أخرى ﴿فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الآيات .

* ومن الآيات العظام في السورة إرعاها للمخالفين بكشف الأسرار حيث لا معين ولا نصير ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ﴾ ﴿٩﴾ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ .

* ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن المعجزة الخالدة وأنه القول الفصل .

موضع الخطاب الأول :

قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿١٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿١٣﴾ .

قال القرطبي : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قسما ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ قسم ﴿وَالطَّارِقِ﴾ قسم والطارق النجم وقد بينه الله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿١٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿١٣﴾ واختلف فيه ، ف قيل : هو زحل ، وقيل : الثريا ، ويروى عن ابن عباس أنه الجدي ، وقال السعدي : والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب ، وسُمي طارقاً لأنه يطرق ليلاً والمقسم عليه قوله ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد ، ما حقيقة هذا النجم ؟ .

ذكر الصابوني قول الصاوي : «قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكر الشمس والقمر والنجوم لأن أحوالها وأشكالها وسيرها ومطالعها ومغارها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات ؛ لأن الصنعة تدل على الصانع» .

موضع الخطاب الثاني :

قال تعالى : ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوِيَ﴾ ﴿١٤﴾ سبحانه ما أعظمك نلاحظ التسلية للرسول ﷺ والحب والتقدير والمكانة ، كأنه هو صاحب الأمر وكأنه هو الذي يأذن ، الفاعل هو الله ، هو الذي يمهل ولا يهمل ، إنما الإيناس لصاحب المقام المحمود فلا تغضب ولا تذهب نفسك حشرات عليهم .

هذا بعض ما ذكره أهل العلم حول الآية الكريمة .

سُورَةُ الْأَعْلَى

آياتها
١٩

ترتيبها
٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى
 ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقَرِّئُكَ
 فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
 لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سِيذَّكَرْ مِنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾
 وَيُنَجِّنَا مِنَ الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
 فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾
 بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ
 هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

سورة الأعلى الكريمة (١٠)

الملامح العامة للسورة:

* السورة الكريمة مكية وآياتها تسع عشرة ابتدأت بتنزيه الله تعالى الذي خلق وصور وأخرج من هذه الأرض أقواتها ثم هدى المخلوقات إلى ما يصلح شأنها.

* تحدثت السورة عن الوحي والقرآن، وبشرت الرسول ﷺ أن يحفظه إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه لحكمة بالغة.

أمرت السورة الكريمة الرسول ﷺ بالتذكير بهذا الكتاب العظيم وما فيه من نور ومواعظ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ الآيات.

السورة ختمت المشهد بفوز من طهر نفسه من الذنوب وقادها للأعمال الصالحة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ الآيات.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾».

وعند مسلم وأهل السنن «كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾».

موضع الخطاب الأول:

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي عظم ربك الأعلى وقيل نزه ربك عن السوء وعمّا يقوله فيه الملحدون.

وحكي القرطبي قول الطبري أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمي به أحداً سواه.

موضع الخطاب الثاني :

قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۚ (١) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ جاء في أضواء البيان (٣١٥/١٠) هذه الآية الكريمة تدل على أن النبي ﷺ ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على حفظ القرآن من الضياع كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، والقرآن وإن كان محفوظاً من الضياع فإن بعضه ينسخ بعضاً وإنشاء الله نبيه بعض القرآن في حكم النسخ قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ﴾.

موضع الخطاب الثالث :

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾.

جاء في أضواء البيان (٣١٩/١٠): هذه الآية الكريمة يفهم منها أن التذكير، لا يطلب إلا عند مظنة نفعه، بدليل إن الشرطية. وقد جاءت آيات كثيرة تدل على الأمر بالتذكير مطلقاً، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ وأجيب عن هذا بأجوبة كثيرة:

منها: أن في الكلام حذفاً أي إن نفعت الذكرى، وإن لم تنفع كقوله: ﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ أي والبرد وهو قول الفراء والنحاس وغيرهم.

ومنها: أنها بمعنى «إذ» وإتيان «إن» بمعنى «إذ» مذهب الكوفيين وجعل منه الكوفيين قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قلت: وزيادة البحث في هذه المسألة في غير هذا المكان، إنما في المصدر

المذكور^(١) وغيره مع العلم أن الذكرى تشتمل على ثلاث حكم:

الأولى: خروج فاعلها من عهدة الأمر بها.

الثانية: رجاء النفع لمن يوعظ بها، وبين الله هاتين الحكمتين.

بقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ وبين الأولى منهما بقوله تعالى: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ونحوها من الآيات، وبين الثانية بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الثالثة: إقامة الحجة على الخلق، وبينها تعالى بقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فالنبي ﷺ إذا كرر الذكرى وحصلت الحكمة الأولى والثالثة، فإن كان في الثانية طمع استمر على التذكير، وإلا فهو غير مكلف بالدوام، والعلم عند الله، هذا ما ذكره الشنقيطي في أضواء البيان^(٢).

(١) أضواء البيان (١٠/٣١٩).

(٢) أضواء البيان (١٠/٣١٩) أيضاً.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾
 عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾
 لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
 وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
 لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
 وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَوَارِيٌّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
 أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
 رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
 سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
 بِمُصَيِّطٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
 الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

سورة الغاشية الكريمة (١١)

* الملامح العامة للسورة:

السورة الكريمة مكية وآياتها (٢٦) ست وعشرون آية .
 قال أهل التفسير: سميت بهذا الاسم الغاشية . . . أي الداهية التي

تغشى الخلائق بأهوالها، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، وما سوف يواجهه الكافر من عناء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والرضا.

* وأشارت السورة الكريمة إلى شيء من قدرة المولى تعالى من خلق الإبل ورفع السماء ونصب الجبال وبسط الأرض.

* ثم خُتِمَت السورة الكريمة بالتذكير بالعودة والرجوع إلى العزيز الحميد فينال كُلُّ جزائه بعدل الله وإحسانه.

موضع الخطاب الأول:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق وشد الانتباه إلى أمر عظيم، أي هل جاءك يا محمد خبر الداهية التي تغشى الناس وما فيها من الشدائد والأهوال؟ فكان الرسول ﷺ يحس وقع التوجيه إلى شخصه حينما سمع هذه السورة وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله سبحانه واستحضاره لحقيقة الخطاب وعظمته، روى عن عمر ابن ميمون، قال مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فقام يستمع ويقول: «نعم قد جاءني».

موضع الخطاب الثاني:

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، هذه وظيفتك على وجه التحديد، وهذا دورك في الدعوة فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ أي: لست تجعل الإيمان في قلوبهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ۝٤
 هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦
 إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨
 وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ۝١٠
 الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ
 عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا
 الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥
 وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝١٦
 كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ
 الْمَسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ
 الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
 دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ
 بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآنِي لَهُ الذِّكْرَى ۝٢٣

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنِّي ﴿٣٠﴾

سورة الفجر الكريمة (١٢)

الملاحم العامة للسورة:

السورة مكية مطلعها الكريم يتحدث عن أمور يعرفها المخاطبون وما فيها من رقة وعبرة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ الآيات الكريمة .

* أشارت كذلك إلى الأمم السابقة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ لتذكير أهل مكة وغيرهم من الناس .

* أخبرت السورة الكريمة أن الإنسان يمر بفترات ابتلاء ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الآيات .

* أشارت إلى طبيعة الإنسان في حب المال ﴿وَيُحِبُّونَ أَمْوَالَ حَبَا جَمًّا﴾ .

* صورت السورة مشهداً من مشاهد يوم القيامة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

* أشارت إلى حالة العصاة والمقصرين وما هم فيه من حسرة ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ .

* ختمت السورة الكريمة بمشهد رائع لتلك النفس المطمئنة : ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ .

موضع الخطاب الأول:

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ صيغة الاستفهام أشد لليقظة ، والخطاب للنبي ﷺ ألم تر بقلبك وبصيرتك وبما قص عليك ربك يا محمد

عن تلك الأمم السابقة من (عاد، إرم) وهم في جنوب الجزيرة العربية وعن ثمود شمال الجزيرة وهي التي نحتت الجبال ملاجئ ومغارات؟ وعن ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ لعلها هي الأهرامات، فسبحان من جمع مصارع القوم وما حل بهم في القصار من الآيات، ونلمح في هذا السياق التهديد لقريش عندما عارضت دعوة محمد ﷺ فكانه يذكرهم بمن حولهم من الأمم السابقة وما حل بهم.

موضع الخطاب الثاني :

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: وجاء ربك يا محمد يعني لفصل القضاء بين خلقه كما شاء والملائكة الكرام يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

جاء في أضواء البيان: يوهم أنه ملك واحد وقوله ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يقتضي أنه غير ملك واحد بل صفوف من جماعات الملائكة.

موضع الخطاب الثالث :

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ جاء هذا السياق الكريم بعد قوله: ﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا فُسَادًا﴾ الجزء من جنس العمل، وألفاظ السياق تتناسب ﴿فَصَبَّ﴾ ﴿سَوْطَ﴾ ﴿عَذَابٍ﴾ كلها تناسب المفسد، وكان العلاج هو تطهير الأرض بما يشاء الله تعالى من الوسائل التي تشتت المفسدين دولاً وأفراداً. حيث أقاموا على أنفسهم الحجة بأنهم ليسوا أكفاء للخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقد أصلح الله الأرض، وجعلها مهية للعيش الطيب المبارك ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ والخطاب لسيد الورى، ونلاحظ فيه التهديد أيضاً لأهل مكة وأمثالهم على مر العصور والأيام.

موضع الخطاب الرابع :

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَّصَادٍ﴾ الله تعالى لم يخلق الإنسان هملاً،

بل الله يحاسب ويجازي وفق ميزان دقيق، ويمهل ولكنه لا يهمل سبحانه وتعالى، فالأعمال مراقبة مُحَصَّاة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.



سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
 ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ
 أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
 ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
 النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
 فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
 ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا
 بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِثْمَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بُئِئِنَّا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

سورة البلد الكريمة (١٣)

الملاح العامة للسورة:

* السورة الكريمة مكية ولها سماتها المعروفة، استفتحت بالقسم بالبلد الذي هو مكة المكرمة، جاء في أضواء البيان في هذه الآية ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾: يتبادر من ظاهرها أنه تعالى أخبر بأنه لا يقسم بهذا البلد مع أنه تعالى أقسم به في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(١).

* تحدثت السورة الكريمة عن معاناة الإنسان منذ كان نطفة، وكذلك أشارت إلى جبروت الإنسان ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدًا﴾.

* أشارت إلى امتنان الله عليه ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لِمِ عَيْنَيْنِ﴾ الآيات.

* أخبرت أن أمام الإنسان عقبة كؤوداً قلّ من يتخطاها.

* أشارت إلى صفات أصحاب الميمنة وكذلك مآل الكفرة الجاحدين.

موضع الخطاب الأول:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يكرم الله نبيه ﷺ فيذكره إقامته بهذا البلد، وهنا يزيده تشريفاً ومكانة، فالجوار له حقه ومدلوله، وهذا يزيد من حرمة مكة ومكانتها كذلك، فكل العجب من العناد والمكابرة عند قريش لماذا تعاندون وتؤذون محمداً وهو في البيت الذي تقدسونه حيث يرى أحدكم قاتل أبيه فلا يتعرض له بسوء احتراماً لهذا البيت وقيل هو ثناء على النبي ﷺ أي أنك غير مرتكب فيه ما يحرم عليك ارتكابه معرفة منك بحق هذا البيت العتيق، هذا وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة» وذكر الصابوني قول البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيده بحلوله ﷺ فيه. أي:

(١) أضواء البيان (١٠/٣٢٣) فيه فائدة طيبة.

إقامته فيه إظهاراً لمزيد فضله وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله.

موضع الخطاب الثاني :

قال تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقْبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ﴿١٢﴾ أي: يا محمد ما أعلمك بتلك العقبة؟، هذه العقبة التي تقف بين الإنسان والجنة. ذكرت في هذا الأسلوب حثاً على الإقدام وبذل الجهد، ثم شرع في تبين العقبة وكيفية الخلاص منها، ولا يكون ذلك إلا بفك رقبة وإعتاقها من الرق أو إطعام في وقت الحاجة يتيماً ذا صلة أو مسكيناً، وهؤلاء الأصناف قلما ينظر لهم الناس، خاصة في مجتمع مكة الغني في ذلك الزمان، فمن يعمل شيئاً من هذه القربات والطاعات مع إيمان وعقيدة سليمة ظن له الخلاص من تلك العقبة في كل زمان. ومن الملاحظ أن هذه القضية اجتماعية في صدر الدعوة، وهناك قضايا أكبر منها إلا أنها لم تنس في مجال الإصلاح ذلك المجتمع الذي اختل فيه الميزان الاجتماعي.



سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَدَّلَهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا
﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بَطْغُونَهَا ﴿١١﴾ إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سورة الشمس الكريمة (١٤)

* الملامح العامة للسورة:

* السورة مكية وآياتها خمس عشرة. ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأعظم آياته الظاهرة فأقسم الله تعالى بالنيرين كأعظم المخلوقات المشاهدة ثم بقية الآيات قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ الآيات.

* الحديث عن النفس وما جُبلت عليه من الخير والشر والهدى والضلال أخذ حيزاً واسعاً في السورة الكريمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

* أشارت السورة الكريمة إلى قصة ثمود قوم صالح عليه السلام حين كذبوا رسولهم. وما كان من أمر هلاكهم حيث كان عبرة للمعتبرين. وفي هذا تهديد لأهل مكة المعاندين، ولكل من سواهم من المخالفين.

* * *

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾
 إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾
 فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾
 فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
 لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾
 لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
 الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
 نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

سورة الليل الكريمة (١٥)

الملاحم العامة للسورة:

* السورة مكية وآياتها إحدى وعشرون، يقسم الله تعالى في مطلعها بهاتين الآيتين الليل والنهار وما فيهما من أسرار هذا الكون الباهر، كذلك يقسم بمخلوقات أخرى منها البشر قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾

والجواب ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ .

* ظهر في السورة الكريمة طريق السعادة جلياً واضحاً ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى
وَأَنْفَقَ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى﴾ وكذلك طريق الغى والشقاء ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى
﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ .

* إشارة إلى عدم الركون إلى المال وأن رأس المال عمل الآخرة ﴿وَمَا
يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ .

* أطلقت السورة تحذيراً شديداً موجهاً إلى أهل مكة وكل المخالفين :
﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .

* هدأت السورة النفوس المؤمنة بعد تلك الثورة على
المخالفين، وذلك بذكر نموذج للمؤمن الصالح ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ .

* * *

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)
 وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
 فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
 فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
 (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سورة الضحى الكريمة (١٦)

الملاح العامة للسورة:

* سورة الضحى مكية وآياتها إحدى عشرة، وهي تتناول شخصية النبي ﷺ وما خصه الله تعالى به من النعم العظيمة في الدارين، ففي الأولى اختياره بشيراً ونذيراً لأهل الأرض، وخصه بوحيه، وفي الآخرة ما أعد له من المقام المحمود والمنزلة الكريمة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على عظمة الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم الكفار قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ الآيات الكريمة.

* تحدث كذلك عن البشري العظيمة لرسول الله ﷺ بجزيل العطاء في الآخرة وما أعده الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات وأعظمها الشفاعة الكبرى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

* ذكرت السورة الكريمة حال النبي ﷺ في الصغر من اليتيم والفقر والضياع إلا أن الله آواه وأغناه وأحاطه بعنايته العظمى.

* ثم ختمت السورة الكريمة بوصايا منها العطف على اليتيم وأن يتلطف مع المحتاج وأن لا ينسى فضل الله عليه، وأعظم ذلك الرسالة.

سبب النزول:

بسنده عن الأسود بن قيس قال سمعت^(١) جنيذاً يقول: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل ﴿وَالضُّحَى﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ والآية، وذكر بعض السلف أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل عليه السلام إلى رسول الله حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ﴿وَالضُّحَى﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ الآيات.

موضع الخطاب الأول:

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ جبريل أياماً فتغير بذلك فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ وهذا قسم منه بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي سكن فأظلم. كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ أَيَّ مَا تَرَكَ﴾ ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي ما أبغضك.

(١) فضائل القرآن (٦٦/٤٩٨٣).

موضع الخطاب الثاني:

﴿وَلِلْآخِرَةِ حَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ومعلوم من سيرته بالضرورة أنه كان عليه الصلاة والسلام أزهد الناس في الدنيا. وقد روى الترمذي^(١) بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جَعَلْتُ أُمسح جنبه وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

موضع الخطاب الثالث:

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أي في الدار الآخرة، يعطيه حتى يرضيه في أمته من الشفاعة فيهم.

وروى أبو عمرو الأوزاعي عن عبد الله بن عباس: عُرِضَ على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فُسِّرَ بذلك، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

موضع الخطاب الرابع:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَى﴾.

الله تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَى﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه. ثم توفيت أمه أمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي، وله من العمر ثماني سنين. فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه

(١) كتاب الزهد (٢٣٧٧/٤٤).

أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل... فاجترأ عليه سفهاء قريش وجُهِلَّهم فاختر الله له الهجرة إلى بلد الأنصار، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وأحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين.

موضع الخطاب الخامس:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية.

موضع الخطاب السادس:

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجعل له بين مقامي ثواب الصبر والشكر.

موضع الخطاب السابع:

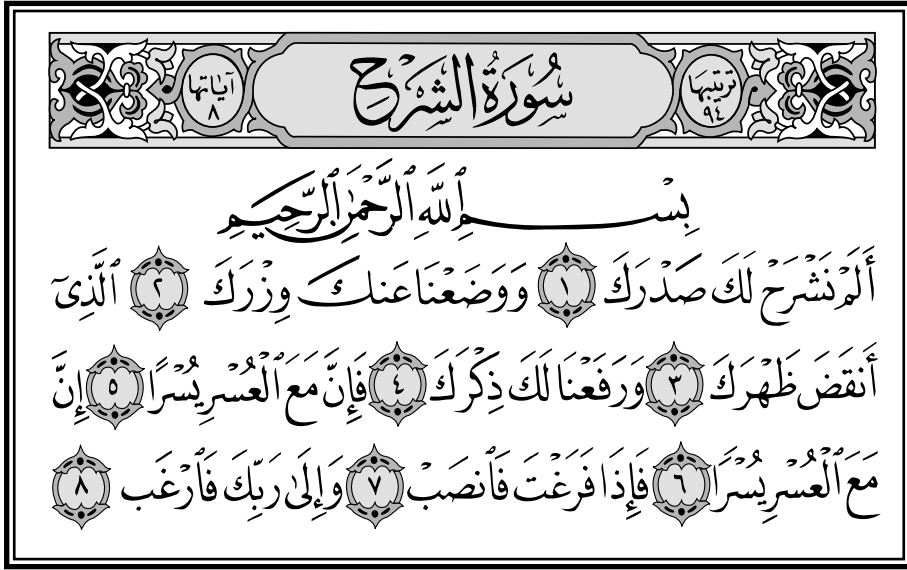
قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم بل أحسن إليه.

موضع الخطاب الثامن:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تزجر طالب العلم المسترشد، فقد كنت ضالاً فهداك الله.

موضع الخطاب التاسع:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً، فالآن بعد هذه النعمة حدث بها وأظهرها واشكر المتفضل بها عليك فإن هذا هو الواجب.



سورة الشرح الكريمة (١٧)

الملامح العامة للسورة:

* السورة مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول ﷺ ثم عَدَدَتْ تلك النعم التي أسبغها الله على رسوله ﷺ، ومنها شرح صدره بالإيمان، وتطهيره من الذنوب والآثام، وفي ذلك تسلية له في مقابل ما يواجهه من كفار مكة.

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن اقتران اسمه ﷺ بمولاه تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وفي ذلك تعظيم لمقامه الشريف في الدارين.

* تناولت السورة كذلك البشرى بالنصر مع أنه يعاني من شدة وطأة

المشركين، فالأصحاب يُعَذَّبُونَ وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

* ختمت السورة الكريمة بحث الرسول ﷺ بوجوب التفرغ للعبادة بعد أن أتم إبلاغ الرسالة، وأن يشكر ربه على النعم الجليلة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ وأعظمها نعمة الإسلام.

موضوع الخطاب في السورة كلها:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ امتنان على رسوله ﷺ، والاستفهام بمعنى التقرير أي: قد شرحنا لك صدرك يا محمد، ووسعناه لتقبل شرائع الإسلام وما فيه من الإيمان والهدى والأخلاق الكريمة، وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ نورناه وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً كما قال تعالى: ﴿من يرد الله أن﴾ يهديه يشرح صدره للإسلام ﴿وروى عن الحسن «مليء حكمة وعلماً» وفي الصحيح عن أنس بن مالك عن رجل من قومه أن النبي ﷺ قال: «فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول، أحد الثلاثة فأتيت بطست من ذهب فيها زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا. قال قتادة ما يعني؟ قال إلى أسفل بطني قال فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حُشي إيماناً وحكمة»، وفي الحديث قصة معروفة.

نعم قد شَرَحَ صدرُ رسول الله ﷺ ثم شَرَحَ وُضِعَ عنه وزُرَّه، وُرفِعَ ذكره في العالمين، وجُعِلَ لأتباعه حَظٌّ من ذلك، وهذه هي الغنيمة الكبرى إذ كل متبوع فلا يتابعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب المتابعة. فاتبع الناس لرسوله ﷺ أشرحهم صدرأً وأوضعهم وزراً وأرفعهم ذكراً فكلما قويت المتابعة قويت هذه الثلاث ونسأل الله من فضله العظيم.

قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ أي: ذنبك ﴿أَلَيْتَ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقل ظهرك ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وأما وَضَعُ وزره، فقد وعده ربه بذلك، وهذا فضل الله، اسألوا الله من فضله.

وقال المفسرون: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء عليهم السلام بهذا الثقل مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها وتحسرهم عليها مع العلم أن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله ﷺ عن اجتهاد وقد عوتب عليه كأخذه الفداء من أسرى بدر، وعُبُوسه في وجه الأعمى.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا ذُكِّرْتُ ذُكِّرْتُ مَعِيَ» وقال الضحاك: إِذَا ذُكِّرْتُ ذُكِّرَ مَعِيَ، وَلَا تَجُوزُ خُطْبَةٌ وَلَا نِكَاحٌ إِلَّا بِذِكْرِكَ.

وقال حسان بن ثابت:

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضُمَ إِلَيْهِ اسْمُ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَذَّنُ أَشْهَدُ
قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: بعد الضيق يأتي الفرج، فالعسر وإن تكرر مرتين فقد تكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر بعده فلن يغلب عسر يسرين، وفي الحديث «لن يغلب عسر يسرين».

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال الحسن وقتادة: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكَ فَانصَبْ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ، وقال آخرون: إِذَا انْتَهَيْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَانصَبْ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَالِإِنَّ رَبَّكَ فَارْعَبْ﴾ أي: إِذَا تَفَرَّغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَلَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِكَ مَا يَعُوقُهُ فَاجْتَهِدْ فِي الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ.

وقيل: إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ وَإِكْمَالِهَا فَانصَبْ فِي الْعِبَادَةِ.

كما في الحديث الصحيح: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ» وأيضاً: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ الْعِشَاءُ فَابْدَأُوا بِالْعِشَاءِ»^(١).



(١) مسلم، كتاب المساجد وموانع الصلاة (٥٦٠).

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالَدِّينِ ﴿٦﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٧﴾

سورة التين الكريمة (١٨)

الملاح العامة للسورة:

السورة مكية تناولت موضوعين هامين أولاً تكريم الله لبني آدم وقد جعله في أحسن صورة ثم موضوع الحساب والجزاء أخذ قسطاً مهماً منها. ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالأماكن المشرفة التي يدب عليها بنو آدم، وخاصة منها مهابط الوحي والتي بعث فيها الأنبياء والرسول «كبيت المقدس ومكة المكرمة وجبل الطور» ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾.


أظهرت هذه السورة الكريمة دلائل قدرته الباهرة، وخاصة في خلق الإنسان حيث خلقه الله في أحسن وأجل صورة وامتّن بها عليه، إلا أن

بعض الناس يتتسكس أحياناً إلى أسفل سافلين ، وذلك بانحرافه عن الفطرة ويبعد عن الطريق المستقيم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهؤلاء هم السائرون على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ويكمل الفطرة من الإنسان إيمان وعمل صالح وما التوفيق إلا بالله .

* وأنحت السورة الكريمة باللائمة على المخالفين .

* ثم ختمت السورة ببيان عدل المولى تعالى من إثابة المؤمنين وعقاب الكافرين .

موضع الخطاب :

قوله تعالى : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ﴾  أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ كل العجب ممن يكذب بهذا الدين الذي جئت به من عند الله يا محمد وسطعت أنواره على الأرض ، فأين العذر لهؤلاء المارقين بعد أن تبين مصير الذين لا يؤمنون؟ أليست حكمة الله البالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغيرهم؟ .



سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
 الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٍ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَعْجَلْ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
 الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
 بِالْتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ
 لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فليدع ناديه ﴿١٧﴾
 سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

سورة العلق الكريمة (١٩)

الملاح العامة للسورة:

السورة مكية وتسمى أيضاً سورة اقرأ.

تعالج ثلاث قضايا بدء نزول الوحي على محمد ﷺ، المال يُطغي
 الإنسان ويجعله يتمرد على الأوامر.

حقد أبو جهل على الرسول ﷺ حتى إنه حاول منعه من السجود لله مرات .

تحدثت السورة الكريمة عن أول نعم الله على هذا الرسول ﷺ ألا وهو إنزال القرآن الكريم عندما كان يتعبد بغار حراء ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات .

تناولت أيضاً جانباً من طغيان الإنسان متى ما أحس بالقوة والثراء، وكيف أنه يتمرد على أوامر الله، وكان الواجب أن يشكر عليها ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (١) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ .

أبو جهل ينتصر للأوثان والأصنام ويهدد الرسول ﷺ ويتوعده وينهاها عن الصلاة .

ختمت السورة الكريمة بوعيد لذلك الكافر وأن الله سوف يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وأمرت الرسول ﷺ أن لا يلتفت لذلك المارق، بل عليك يا محمد القرب من الله بالعبادة وسوف نكفيك المستهزئين .

موضع الخطاب الأول:

قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك وهذه السورة أول ما أنزل من القرآن في قول معظم المفسرين، وهو خطاب إلهي وجه إلى النبي ﷺ وفيه دعوة للعلم فقد علمه جبريل ﷺ خمس آيات من هذه السورة الكريمة، وهُنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وحديث ابتداء الوحي روى الإمام البخاري^(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ

(١) البخاري، بدء الوحي (٣/١) .

من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث، وهو التعبد فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول ﷺ: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروح فقال: «يا خديجة مالي؟» وأخبرها الخبر وقال: وقد خشيت على نفسي. فقالت: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصي. وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ «أومخرجي هم؟» فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزاً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله

حقاً. فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك. فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري.

موضع الخطاب الثاني :

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع وفسوف تُسأل هناك عن كل شيء.

موضع الخطاب الرابع :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ تعجب من حال ذلك الشقي قال أبو السعود هذه الآية تقبيح وتشنيع لحال الطاغية وتعجيب منها وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضي منها العجب.

قال الصابوني: وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ والذي نهاه هو اللعين أبو جهل حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه.

موضع الخطاب الخامس :

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: فما ظنك يا أبا جهل إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة على الطريق المستقيم في فعله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته.

موضع الخطاب السادس :

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: أخبرني يا محمد إن كفر بالقرآن وأعرض عن الإيمان.

موضع الخطاب السابع :

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ أي: فاعلم أن الله يراه ويسمع كلامه وسيجزيه

على فعله أتم الجزء ثم قال مهدياً له وهو موضع الخطاب التالي .

موضع الخطاب الثامن :

﴿لَا تُطَعُّهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ يعني : يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه ، ولكن صل حيث شئت ، والله حافظك وناصرك وعاصمك من الناس .

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ كما ثبت في الصحيح - صحيح مسلم - عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا فيه الدعاء» .



سُورَةُ الْقَدْرِ
ترتيبها ٩٧ آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة القدر (٢٠)

الملامح العامة للسورة:

سورة مكية وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن الكريم كذلك تحدثت عن فضل ليلة القدر لما ينزل فيها من الخير الكثير الذي يفيضه الله تعالى على عباده المؤمنين كما أن السورة الكريمة تحدثت عن نزول الملائكة إلى الأرض حتى طلوع الفجر.

قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها.

موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ومما لا

شك فيه أنه ﷺ يعرف قدرها ومكانتها من تعليم الله له ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ والأمة داخلة في ذلك الخطاب تبعاً لرسولها ﷺ قال الخازن صاحب التفسير: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخيرها وقد ظهر فضلها في ثلاثة أوجه:

١- ليلة خير من ألف شهر.

٢- تنزل الملائكة والروح (جبريل) معهم.

٣- سلام هي حتى مطلع الفجر.

وقال السعدي: سميت ليلة القدر، لعظم قدرها، وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة. وفي الحقيقة الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة المباركة المشهودة ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملا الأعلى، ليلة بدء نزول هذا القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ ذلك الحدث الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وما ترتب عليه من سعادة للبشرية وتجديد لفطرتها التي كادت تضع من شدة طرّق الضلال وأهله عليها حتى بعث هذا النبي ﷺ وإن هذه الليلة هي من ليالي رمضان المبارك كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وكما جاء في الصحيح: «تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان».



سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

آياتها ٨ ترتبها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾
 فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
 لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
 الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
 فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾
 جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

سورة البينة الكريمة (٢١)

الملاح العامة للسورة:

يقول أهل العلم: إنَّ هذه السورة معدودة أنَّها مدنية، وهناك روايات بمكيَّتها، والرأي الأول ما رجحه أكثرهم.

* استفتحت بالحديث عن اليهود والنصارى وموقفهم من دعوة الرسول ﷺ مع العلم أن أهل الكتاب يعرفون أوصافه وأنه مبعوث لا محالة، بل كانوا ينتظرونه فلما بعث كذبوا برسالته ﴿حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾.

* تحدثت السورة الكريمة عن مقام عظيم، ألا وهو الإخلاص ومقام العبودية الذي من أجله أرسلت الرسل.

* أشارت إلى مصير الإجرام والافتراء من أهل الكتاب وخلودهم في النار ثم ذكرت المنازل العالية والمكانة الرفيعة للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

* * *

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة الكريمة (٢٢)

الملاح العامة للسورة:

قيل إنها مدنية ، وقال آخرون إنها مكية فأسلوبها أسلوب مكّي لما فيها من وصف الأهوال العظام ، وهي تتحدث عن ذلك الزلزال الذي يهز الأرض كلها فيندهش الإنسان إذا رأى ما دهاها من الأمر العظيم بل كل الخلائق في حيرة لشدة الواقعة .

فأخرجت الأرض أثقالها وما في باطنها بل وشهدت على الإنسان بما عمل على ظهرها وظهر الميزان الدقيق الحساس ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ فهذه الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم والله المستعان .

موضوع الخطاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُدْرِكُوا الْهَيْمَةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُنْكَرِ﴾ أي: يا محمد أمرها ربها أن تخبر بما عمل عليها فلا تعصى هي أمره، فهي تشكو العاصي وتشهد عليه، وتشكر المطيع وتثني عليه، والله على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذه الحالة من أصعب المواقف، إنهم ذاهبون إلى حيث توفى الأعمال ليواجهوها من خير أو شر، فهناك من الأعمال ما يحاول الإنسان الهروب منه ومن مواجهته، ولكنه اليوم وجهاً لوجه لا يهرب ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًّا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إنها عقوبة هائلة رهيبة مجرد أن يروا أعمالهم وأن يواجهوها ووراء ذلك الحساب الدقيق. نسأله اللطف الخفي.



سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَّتِ صَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سورة العاديات الكريمة (٢٣)

الملاح العامة للسورة:

* سورة العاديات مكية وآياتها إحدى عشرة تبدأ بمشهد خيل المجاهدين ووصف لحالها حين تغير على الأعداء والقسم بالخيال في هذا السياق الكريم يعطينا حقائق منها حب هذه الحركة، وكذلك إظهار ميزان الجهاد في سبيله تعالى.

* تحدثت السورة عن طبيعة الإنسان وجوده وكفرانه وحبه للخير الذي يوافق هواه.

* ثم عرضت السورة الكريمة مشهد البعث والحشر في مشهد مذهل يُنسي ذلك الحب الذي ظنه خيراً.

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ
 ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾
 وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا
 مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ
 ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ
 ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

سورة القارعة الكريمة (٢٤)

الملاح العامة للسورة:

السورة مكية بدأت بكلمة قوية مدوية كالقذيفة والمقام يناسب ذلك فالناس خرجوا من القبور هائمين وكأنهم فراش يتهافت على النار ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَآءَ﴾ الآية.

* أعطت السورة صورة لهول يوم القيامة، الجبال أصبحت كالصوف، فكيف حالك أيها الإنسان المسكين ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ الآيات.

* ختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس، ثم بينت انقسام الخلائق إلى سعداء وأشقياء.

موضع الخطاب:

قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ سؤال للتهويل والتفخيم وتبيين لشأنها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ إلى أي مدى علمك بالقارعة وأحوالها وعظائمها؟ فمن أحوالها أنها تؤثر على جميع الموجودات بسائر أنواعها، فالسمااء انشقت، والكواكب تناثرت، والوحوش حشرت، والناس هاموا على غير هدى إلا من حفظه الله تعالى: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.



سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ أَلْهَكُمُ التَّكْوِيْنُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ كَلَّا سَوْفَ
 ٢ تَعْلَمُونَ ۚ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
 ٤ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ۚ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ۚ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
 ٦ عَيْنَ الْيَقِيْنِ ۚ ٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ ۚ

سورة التكاثر الكريمة (٢٥)

الملاح العامة للسورة:

* السورة مكية وآياتها ثمان، إنها سورة كلماتها تعبر عن معناها بكل وجل وشكوى وتحسر على هؤلاء الخلق السائرين إلى التهلكة حتى خطوا الرحال في المقابر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وإذا هم محاسبون ودارون للحقيقة التي مروا بها وما استفادوا لمعادهم شيئاً إنا لله وإنا إليه راجعون.

* تحدثت السورة الكريمة عن هموم الناس في هذه الدنيا من التفاخر بالمال وجمعه ﴿أَلْهَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾.

* ظهر الزجر والتهديد للطامعين في المزيد لعلمهم يعودون إلى

الصواب.

* بينت السورة الكريمة أن كُلاً سوف يُسأل عن النعم التي أسبغها الله عليه ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

روى الترمذي^(١) عن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأَمْضيت؟».



(١) الترمذي: كتاب التفسير (٨٩/٣٣٥٤).

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة العصر الكريمة (٢٦)

الملامح العامة للسورة:

- * سورة العصر مكية وآياتها ثلاث ابتداءً بالقسم ﴿وَالْعَصْرِ﴾ .
- * تحدثت عن جنس الإنسان، وأن من طبيعته الخسران متى ما كان بعيداً عن هُدي الوحي إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة التالية «الإيمان، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق، والاعتصام بالصبر».
- قال ابن عباس: العصر هو الدهر، أقسم به لاشتماله على أصناف العجائب، وقال قتادة العصر هو آخر ساعات النهار، وأنه رأس مال الإنسان فمتى فقد الإنسان عمره ولم يدرك إيماناً ينور بصيرته وعملاً صالحاً يرفع مكانته، ولم يرفع بذلك رأساً من الحرص على التزام الحق مع الصالحين والصبر من أجل ذلك الحق فلا يلومن إلا نفسه.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدْدَ لَهُ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَا أَدرَبَكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ﴿٩﴾

سورة الهمزة الكريمة (٢٧)

الملاحع العامة للسورة:

السورة الكريمة مكية، في مطلعها الشريف تهديد للذين يعيبون الناس وينهشون أعراضهم، ويأكلون لحومهم.

* كذلك ذمت السورة جمع المال، وخاصة الذين يظنون أنَّ هذه الحياة لذتها هي الغاية الكبرى.

* أيضاً خُتِمت بذكر عاقبة التعساء الأشقياء وَأَنَّ هذه النار تحطم المجرمين وكل من أُلقي فيها من البشر، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْأ أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ الآيات.

موضع الخطاب:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَدرَبَكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ أي: ما أعلمك يا محمد بالتي تحطم كل شيء أُلقي فيها؟ فهي تحطم العظام وتأكل اللحم وتصل إلى القلوب لعظمتها. ثم سبحانه وتعالى بينها لنبيه ﷺ بياناً شافياً قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ومن ذلك ما روى الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وقيل

موقوفاً: «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سُودَاءٌ مَظْلَمَةٌ»^(١).

وقال تعالى: ﴿إِذَا الْقُورُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْتِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك].

وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان].

(١) الترمذي، كتاب صفة الجنة (٨/ ٢٥٩١).

سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
 فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ
 بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة الفيل الكريمة (٢٨)

الملاحم العامة للسورة:

السورة مكية تتحدث عن موضوع واحد «قصة أصحاب الفيل» ذلك الجمع الظالم الذي أراد أن يهدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، حيث أرسل الله تعالى طائفة من جنده فمزقت ذلك الجمع وفرقت شملهم حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

ذكر أهل التفسير أن «أبرهة الأشرم» بنى كنيسة بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجل من كنانة وتغوط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يسير جيشاً لهدم كعبة العرب وسار بجيش جرار معه أفيال، والعرب لا تعرف هذا السلاح في ذلك الزمان، فقدمه نزل كالصاعقة على أهل مكة ففر بعضهم بل أكثرهم إلى الجبال خوفاً من هذا الزحف المخيف.

وتشير هذه السورة إلى ذلك الحادث الذي كان قبل البعثة فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» ولكن أبرهة هزمه وأخذه أسيراً ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل بن خبيب الخثعمي ومعه بعض العرب، فهزمهم كذلك وأسر نفيلاً، فمحاولات صد ذلك الزحف المرعب كانت على قدم وساق ولكن الكثرة تغلب الشجاعة إلا أن يشاء الله.

فلما كان أبرهة بين مكة والطائف بعث قائداً من قواده فساق إليه أموال تهامة وقريش وغيرهم، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قریش وسيدهم، فهَمَّتْ قریش بقتاله مع غيرها، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة يسأل عن سيد مكة وأنه ما جاء لحربهم، وإنما جاء لهدم هذا البيت، فقال عبد المطلب: واللّٰه ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ثم انطلق معه إلى أبرهة.

قال ابن إسحاق وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سريره فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيته ثم قد زهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب إني أنا رب الإبل وأن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك! فرد .. عليه إبله.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قریش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال، ثم قام فأخذ بحلقة باب

الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه .
فأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً، مع كل طائر ثلاثة أحجار، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين .

موضع الخطاب:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ .

قال أبو السعود: وتعليق الرؤية بكيفية فعله جل وعلا كيف فعل، لا بنفسه بأن يقال «ألم تر ما فعل ربك» لتعظيم الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ .

وقيل إن ذلك من الإرهاصات لما روى أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي ﷺ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تخبر وقيل ألم تعلم . وقال ابن عباس: ألم تسمع واللفظ فيه الاستفهام، والمعنى تقريراً والخطاب للنبي ﷺ والأمة داخلة فيه أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل أي: قد رأيتم ذلك وعرفتكم موضع مني عليكم، فما لكم لا تؤمنون يا أهل مكة! .



سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾
 إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
 ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾
 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
 مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

سورة قريش الكريمة (٢٩)

الملاح العامة للسورة:

السورة مكية، وآياتها أربع، تتحدث عن نعم الله على أهل مكة حيث سهل طرق العيش فرحلة شامية، وأخرى يمنية وكانت قريش في وسط الجزيرة فالناس تقول هؤلاء أهل مكة وولاة الكعبة، ومع ذلك ما راعى كثير منهم تلك النعم حتى عبد الأصنام داخلها بل ازدادت مكانة أهل مكة في قلوب الناس وعظمهم الملوك وخافهم الأمراء بعد حادثة «الفيل الشهيرة» ولذلك يمين الله تعالى على أهل مكة ويذكرهم بتلك النعم وما طلب منهم إلا الإخلاص في العبادة وهو غني عنها ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ومن تلك النعم دعوة الخليل عليه السلام.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

قال الفخر الرازي: اعلم أن الأنعام على قسمين: أحدهما: دفع ضرر وهو ما ذكر في سورة الفيل، والثاني: جلب النفع وهو ما ذكره العلي القدير في هذه السورة ولما دفع عنهم الضرر، وجلب لهم النفع وهما نعمتان عظيمتان، أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الآيات.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سورة الماعون الكريمة (٣٠)

الملاح العامة للسورة:

هذه السورة مكية وهي تصف فريقين من البشر الفريق الأول المكذب بالحساب والجزاء، وخاصة أكثر أهل مكة في بداية الدعوة والرسالة، فمن صفاتهم الغلظة حتى على الفقراء والأيتام، والتكبر على عبادة رب العالمين، فجمعوا أسوأ الأحوال الدنيوية والأخروية. والفريق الثاني: هم المنافقون، الغافلون عن أهم أركان الإسلام وعلامته المميزة، ألا وهي الصلاة، فهم لا يؤدونها في أوقاتها، وإذا فعلوها كانت خالية من الروح لتسلط الرياء عليها، وقد شنت السورة الكريمة عليهم بأسلوب الاستغراب والتعجب من تلك الصفات الخبيثة.

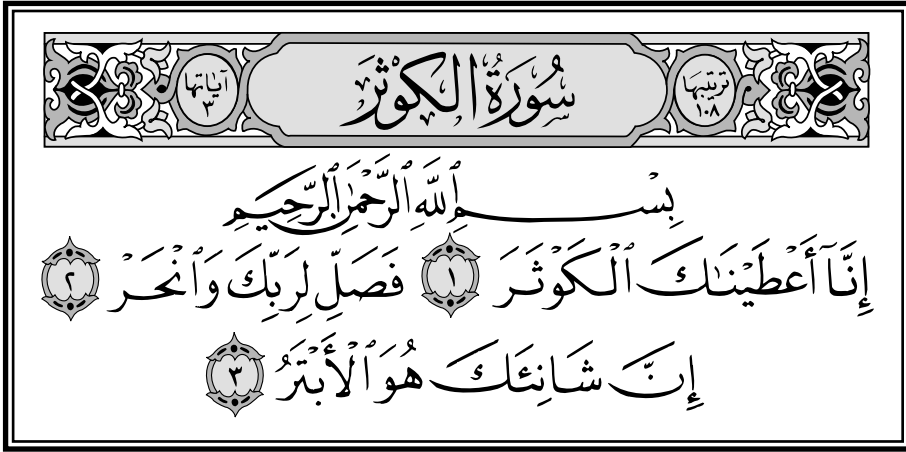
موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: بالبعث والجزاء فلا

يؤمن بما جاءت به الرسل أمصيب هو أم مخطيء يا محمد؟ أسلوب تعجب من هذا الذي يكذب بالدين وبالرسالة، وبما جئت به، وكيف لا يؤمن وقد ظهرت دلائل الرسالة وما فيها من نور وما تدعو إليه من فضائل منها عبادة الله تعالى وحده وإصلاح اعوجاج المجتمع الذي ظهرت فيه القسوة حتى على الفقير واليتيم.

هذا وقد اُخْتُلِفَ فيمن نزلت فيه الآيات الكريمة، فذكر عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي، قاله الكلبي ومقاتل، وقيل: نزلت في رجل من المنافقين، وهناك أقوال أخرى والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.





سورة الكوثر الكريمة (٣١)

الملامح العامة للسورة:

* السورة مكية أخبرت عن تفضل الله تعالى على رسوله ﷺ من فضائل الدنيا والآخرة، ففي الدنيا الغلبة والنصر والذكر الحميد، وفي الآخرة عطايا عظيمة، منها نهر الكوثر والشفاعة الكبرى وغيرها له ﷺ.

* السورة الكريمة فيها بشارة للرسول ﷺ بخزي أعدائه والذلة والانقطاع لهم، ولك يا محمد الذكر والرفعة على مر الأيام والليالي.

موضع الخطاب الأول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً. قلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: لقد نزلت علي أنفاً سورة فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد

النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول رب إنه من أمتي، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبی ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»^(١).

موضع الخطاب الثاني:

قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم وصفه... فأخلص لربك وانحر، أخلص لربك في صلاتك المكتوبة والنافلة.

ونحرك أي نسكك يعني بذبحك، فانحر على اسمه تعالى وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

موضع الخطاب الثالث:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق هو الأبتَر الأقل المنقطع ذكره، وقيل: إن ذلك المبغض لرسول الله ﷺ هو العاص بن وائل، وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقي البنات أبتَر.

ويروى أن العاص بن وائل هذا وقف مع النبي ﷺ يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال مع ذلك الأبتَر، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.



(١) البخاري، الرفاق (٦٥٨١).

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سورة الكافرون الكريمة (٣٢)

الملاحم العامة للسورة:

السورة الكريمة مكية، وهي سورة التوحيد الخالص والبراءة من المشركين، فقد جاء المشركون وطلبوا من النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة، فنزلت السورة الكريمة بقطع رجاء هؤلاء المفلسين.

سبب النزول:

روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ وَأُمِيَّةَ بْنَ خَلْفٍ لَقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وَتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ، وَنَشْرِكْ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ الْآيَاتِ رَدًّا عَلَيْهِمْ.

وروى أبو القاسم الطبراني بسنده إلى جبلة بن حارثة وهو أخو حارثة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أُوتِيَ إِلَى فَرَاشِكَ فَأَقْرَأْ ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾».

موضع الخطاب:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي: قل للكافرين معلناً ومصرحاً
 ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، والخطاب
 للنبي ﷺ والأمة تبعاً لرسولها ﷺ.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله لأن
 بعضهم كان يعبد الأصنام مع الله، فبين الله ذلك وأنه غير مقبول ﴿إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فما دامت عبادتكم مقترنة
 بالشرك فهي لا تسمى عبادة حقاً فأنتم تعبدون آلهة أخرى، وأنا بريء منها
 ومن عبادتها.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
 يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
 وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سورة النصر الكريمة (٣٣)

الملاحم العامة للسورة:

* السورة مدنية وهي تتحدث وتبشر بنصر الإسلام وأن هذا الدين سوف ترتفع رايته في الجزيرة العربية خاصة والكون عامة.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ المراد بالنصر نصر الرسول ﷺ على قريش قال الطبري: وأما الفتح فهو فتح مكة عن الحسن ومجاهد.

وقد نزلت بعد الفتح ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ أي: جماعات فوجاً بعد فوج.

روى البخاري^(١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم... فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريمهم. فقال ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره

(١) البخاري، تفسير (٤٩٧٠).

إذا نصرنا وفتح عليها، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي: أؤكدك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول». تفرد به البخاري.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعت إلي نفسي»، فإنه مقبوض في تلك السنة.

موضع الخطاب:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثّر آخر زمانه من قوله: «سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إن ربي كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمّتي، وأمرني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيته ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾» رواه مسلم^(١).

وأما ما فسره ابن عباس وعمر رضي الله عنهما كما جاء في حديث البخاري نفسه من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، فمعناه: اعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهياً للقدوم علينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾.

والمراد بالفتح هاهنا «فتح مكة» قولاً واحداً فإن أحياء العرب كانت تتلوّم أي تترث بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي،

(١) مسلم، كتاب الصلاة ما يقال في السجود (٤٨٢ - ٤٨٧).

وعن جار لجابر بن عبد الله قال قدمت من سفر ، فجاءني جابر بن عبد الله
فسلم عليّ ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر
يبكي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس دخلوا في دين الله
أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً» .



سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ
حَمَالَةٌ آلِ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

سورة المسد الكريمة (٣٤)

الملامح العامة للسورة:

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة اللهب، وسورة تبت، أخبرتنا السورة عن أبي لهب وزوجه وعداوتهم للنبي ﷺ وبغضهم للإسلام، وتحدثت السورة عن العذاب والهلاك لهذين الشخصين الخبيثين وأن مصيرهم جهنم، وبئس المصير، نسأل الله العافية.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه... فاجتمعت إليه قريش. فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقون؟ قالوا: نعم، قال: فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب ألهذا جمعتنا؟ تباً لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه.

وأبو لهب: هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عيينة، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والإزدراء به والتنقص له ولدينه،

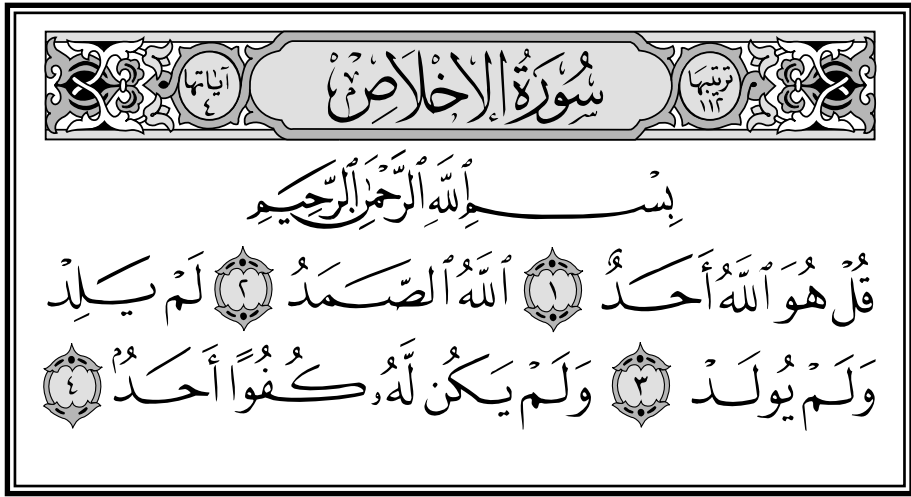
وعندما كان النبي يدعو «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، كان أبو لهب يلحق به ويقف وراءه ويقول: إنه صابئٌ وكاذب، ويتبعه حيث ذهب ﴿وَتَبَّ﴾ أي قد تب يعني تحققت خسارته وهلاكه، وكان أبو لهب يقول: إن كان ما يقوله ابن أخي حقاً فإني افتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي فأنزل الله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يعني ولده وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: شرر ولهب وإحراق شديد.

﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وكانت من سادات نساء قريش، وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وعناده. ولهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذاب جهنم. ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ﴿٤﴾ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ .

وعن سعيد بن المسيب أنه كان لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها في عداوة محمدٍ، فأعقبتها الله منه حبلاً من مسد في النار.

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: في عنقها حبل من نار ترفع به على شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها ثم كذلك دائماً.

قال العلماء وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فقد أخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان وقد ماتا على ذلك فكان أقوى دليل على النبوة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

سورة الإخلاص الكريمة (٣٥)

الملاح العامة للسورة:

السورة مكية، وهي تتحدث عن صفات الجليل الواحد الأحد الجامع لصفات الكمال المقصود في طلب الحاجات الغني الكريم المنتزه عن صفات النقائص، السورة ترد على النصارى القائلين بالتثليث بأقصر عبارة، وعلى اليهود المشركين الذين جعلوا لله ولداً تعالى عن قولهم علو كبيراً. ومن المعالم المهمة في السورة أنها نزلت بعد سورة الناس وهذا يُنبئ عن الوحدة الموضوعية بين السورتين.

سبب نزولها:

روى الترمذي^(١) عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسُب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

(١) الترمذي، التفسير، (٣٣٦٤/٩٣).

وروى الطبراني^(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء نسبة ونسبة الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﷻ الله الصَّكْمُ والصمد ليس بأجوف».

فضلها:

كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به... افتتح: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة: فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتهم أن يؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما آتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»^(٢).

وروى البخاري^(٣) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

وروى البخاري أيضاً^(٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ: «كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

(١) مختصر تفسير ابن كثير سورة الإخلاص، نسيب الرفاعي.

(٢) مسلم، صلاة المسافرين (٨١٢).

(٣) البخاري، فضائل القرآن (٥٠١٣).

(٤) البخاري، كتاب الطب (٥٧٤٨).

أَحَدٌ ﴿١﴾ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿٢﴾ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿٣﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات» وهكذا رواه أهل السنة من حديث عقيل به .

موضع الخطاب :

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي يا محمد وتعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير له ولا نديد ولا شبيه ولا عدل . ولا يطلق هذا اللفظ إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال ابن عباس: يعني الذي يَصْمُدُ إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وقالوا هو السيد . وقيل والذي لا جوف له . ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه، ولا تناقض بين هذه الأقوال فيمكن حمل الآية عليها جميعاً فهي صفات ربنا عز وجل . وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس له من خلقه نظير يسامي، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه . ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِجْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾^(١) وفي صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيه» .



(١) نقلا عن تفسير ابن كثير اختصار نسيب الرفاعي .

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ
 شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي
 الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الفلق الكريمة (٣٦)

الملاح العامة للسورة:

* السورة مكية، فيها توجيه عجيب بأقصر عبارة غفل عنه أكثر الناس حيث أمر ﷺ بأن يستعيذ بالله وبجلاله وركنه الشديد.

* ومن حكمته البالغة سبحانه وتعالى أنه خلق في هذا الكون مخلوقات قد يسيء بعضها إلى بعض، ولا مخلص من ذلك إلا الاحتماء بسلطانه العظيم هذا بعض ما ذكره أهل التفسير.

فضل المعوذتين:

روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: «أن رسول الله كان يتعوذ من أعين الجن وأعين الإنس» قال الترمذي: حسن صحيح.

معاني الكلمات واللغة أعلم:

﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألتجأ، وألوذ وأعتصم.

﴿أَفْلَقَ﴾: الصبح. تقول العرب هو أبين من فلق الصبح، والفلق بالكسر الداهية والأمر العجب.

﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه، والعسق أول ظلمه الليل.

﴿وَقَبَ﴾ دخل بظلامه، والوقوب: الدخول.

﴿النَّفَثَتِ﴾ النفث: شبه النفخ دون تفل بالريق، فإذا كان معه ريق فهو التفل.

وسبب تخصيص الصبح بالتعوذ أنه آية عظيمة من آيات الله ففيه ما يدل على عظم الفالق له فالالتجاء إليه والتعوذ به راجح عند أهل العقول الزاكية.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر جميع المخلوقات التي فيها شر من الإنس والجن والدواب والهوام، وهناك مخلوقات لا شر فيها كالملائكة والرسل والأنبياء وصالح المؤمنين.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه فإن ظلمة الليل ينتشر عندها كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية حين يغشى الناس العاس.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة: والحاسد، هو الذي يحب زوال النعمة عن المسحود فيسعى في زوالها، بما يقدر عليه من الأسباب: فاحتيج إلى الاستعاذة بالله، من شره، وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد، العائن، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، إلى أن قال ﷻ، فهذه السورة،

تضمنت الاستعاذة، من جميع أنواع الشرور عموماً وخصوصاً، ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله. اهـ

موضع الخطاب:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: قل يا محمد: ألتجئ وأعتصم بالذي فلق الصبح وجعله من آياته الباهرة. وأذكر هنا ما جاء في بدائع التفسير بنصه، فإن قيل: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به؟. فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل: قل: الحمد لله، وقل: سبحان الله بأن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله. ولا يقول: قل سبحان الله.

إلى أن قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عاصم وعبد، عن ذر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي، فقلت» فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ.

ثم قال حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا عبده بن أبي لبابة عن ذر بن حبيش، وحدثنا عاصم عن ذر، قال: سألت أبي بن كعب، قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسور يقول كذا وكذا. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي» فقلت: قل فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ إلى أن قال المصنف: مفعول القول محذوف: وتقديره: قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر: أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا إبلاغه، لا أنه هو الذي أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله، وقد قال الله له ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ بقوله:

«قيل لي، فقلت» أي: أني لست مبتدئاً بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إلي^(١).

قيل في الفلق تفاسير شتى والأصح: الصبح. وهو اختيار البخاري في صحيحه رَحِمَهُ اللَّهُ. وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات. ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس. حكاه البخاري عنه وكذا قاله ابن عباس وغيره.

وقال آخرون هو القمر، وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن الحارث بن أبي سلمة قال: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أخذ رسول الله بيدي فأراني القمر حين طلع، وقال: تعوّذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب» ورواه الترمذي^(٢) والنسائي^(٣). قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا ولج. هذا لا ينافي قولنا لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه. وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه والله أعلم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني: السواحر إذا رَقَيْنَ ونفشَنَ في العقد.

وروى البخاري في كتاب الطب في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحَرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي نِسَاءَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ، قَالَ سَفِيَانُ : وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّحَرِ إِذَا كَانَ كَذَا، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَعَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتَهُ فِيهِ، أَتَأْنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي. فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟

(١) انظر بدائع التفسير (٣٨٠/٥).

(٢) سنن الترمذي (٤٢١/٥، ٤٢٢) في التفسير.

(٣) النسائي في التفسير (٦٢٣/٢).

(٤) بدائع التفسير (٣٩٨/٥).

قال: مطبوب، قال: وَمَنْ طَبَّه؟ قال: لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف اليهود، كان منافقاً. قال: وفيهم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان. قالت: فأتى البئر حتى استخرجه. فقال: «هذه البئر التي أريتها... وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين» قال: فاستخرج. فقلت: أفلا تنشّرت؟ فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» ورواه مسلم وأحمد. والجف: قشر الطلع. والراعوفة حجر في أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح.

وروى الإمام أحمد بسنده إلى زيد بن أرقم: «سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ رجلاً من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاء جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سَحَرَكَ وعقد لك عقداً في بئر كذا وكذا فأرسل إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها فجاء بها فحللها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشِطَ من عِقَالٍ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات.

وروى ابن جرير: «أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: «اشتكت يا محمد؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك»^(١) ولعلّ هذا كان من شكواه يوم سُحِرَ. ثم عافاه الله تعالى وشفاه، وردّ كيد السحرة الحُساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم وفضّحهم. ولكن مع هذا لم يعاتب رسول الله ﷺ من سحره يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.



(١) من حديث أبي سعيد كتاب الرقى (١٤٤٤) (١٣/٧).

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ
 النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي
 يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

سورة الناس الكريمة (٣٧)

الملاح العامة للسورة:

* السورة مكية، وهي ثاني المعوذتين، جاء في فضلها أحاديث أشرنا إليها في السورة الكريمة السابقة.

* وفيها من صفات الجليل ثلاث: الربوبية والملك، والألوهية.

* أمرت المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وما من أحد إلا له قرين يزين له الفواحش، والمعصوم من عصمه الله، ففي الصحيح: «ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه: قالوا وأنت يا رسول الله قال: نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وهو مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس.

﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي.

﴿الْجِنَّةِ﴾ بكسر الجيم الجِنُّ جمع جِنِّيٍّ، وبضم الجيم الوقاية، وفي

الحديث «الصوم جُنة» أي وقاية من العذاب.

موضع الخطاب:

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي: قل يا محمد أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الذي أوجدهم من العدم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ملك الكل الحاكم والمحكوم، مالك الملك يعز ويذل ويعطي ويأخذ لا معقب لحكمه سبحانه وتعالى.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي معبودهم الحق قال الطبري (٢٠/٢٦٠) وإنما قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم وفي الناس من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه دون الملوك والعظماء.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ يعني: من شر الشيطان والمعنى: من شر ذي الوسواس الذي يغري الإنسان بالمعصية.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي: الذي يُلقي لشدة خبثه في قلوب الناس كل أمر خبيث قد زينه بخفاء.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ «من» ذكر أهل العلم أنها بيانية أي هو من شياطين الجن والإنس، ولكل منهم طرقه في الإغواء، وقد يتعاونون، والمعصوم من عصمه الله منهم.

ذكر الصابوني قول المفسرين: إنما خص الناس بالذكر وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق - تشریفاً وتكريماً لهم من حيث إنه تعالى سخر لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكة قدسه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق.

الرسالة السادسة
«الدعوة فيها الرفق والحزم»

جمع وإعداد/ أبي مصعب
سعيد بن عماش السعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَا تَقَى هِيَ
أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] .

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي رسم لنا طريق الخير والنجاة في القدوة برسوله ﷺ فقال في كتابه الكريم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

فقد كانت شخصية الرسول ﷺ أنموذجاً كاملاً لتنفيذ شريعة الله، وقد عصمه الله من كل هوى وحفظه من الخطأ والتسيان فيما بلغه عن ربه فعن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة رضي الله عنها فقالت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ؟ قالت كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن؟ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

إخواني: إن من الأركان الهامة التي قام عليها هذا الدين ركنين عظيمين أولهما: الرفق بالمدعوين والشفقة عليهم حتى نالت جميع ما في هذا الكون من حيوان وطير ونبات، ورسول الله ﷺ كان رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

والركن الثاني: هو الحزم في الدعوة وعدم التواني في تبليغها للناس ونشرها؛ كي تعم فائدتها، وترشح من يقف في وجهها، فأصحاب الحق لا تأخذهم فيه لومة لائم، وهناك نماذج يمكن أن يحتذى بها؛ كي تكون سراجاً من سلف هذه الأمة، فهذا شفيعكم ﷺ منذ عرفه ربه الحق كان طاقة هائلة من النشاط والحيوية في القيام بهذه الرسالة العالمية العظيمة، فأخذ يعرضها على الناس بكل فئاتهم فرفضها ناس وقبلها آخرون.

فقاموا بها مع رسول الله ﷺ خير قيام؛ حتى أقام الله الحجة على الخلق في زمانهم ثم سلموا رايها شامخة إلى من يليهم من التابعين وهكذا توارثها جيل بعد

جيل وهو فخور بها ممّن أراد الله بهم خيراً حتى وصلت لنا جَذَعَةٌ فَتِيَّةٌ، فالموفق من كان له نصيب في رفع راية الدعوة، وسار فيها على منهج سيد المرسلين .

أخي الفاضل وأختي الفاضلة: إنك سوف ترى - في رسالتي هذه الموجهة إلى إخواني الدعاة خاصة وعموم المسلمين - أنني حاولت أن أُبرز جانبي الرفق والحزم في هذه الدعوة وذلك عن طريق الكشف والاطلاع على نصوص شرعية، ومواقف نبوية نادرة لعلها تكون للدعاة نبزاً يهتدون به في ظلمات المحن والفتن فيكملوا السير على هدى ونور، وإن اكفهرت في وجوههم الظلمات، وقد زودتهم - وأنا قليل الزاد - بأمور لا يمكن للداعي أن يستغني عنها، في سيره وسط تلك الأشواك والعوائق ومن تلك الأمور: ما وظيفة الداعية؟ وما الدعوة التي يدعو لها؟ وما منهج الرسل عليهم السلام في الدعوة؟ وبعض وسائل الدعوة وضوابطها، وكيف نعرض دعوتنا؟ وأين ندعو؟ بالإضافة إلى ذلك حاولت أن أبرز شخصية الداعي وأهم ملامحه وصفاته بصور متعددة.

وعلامات أخرى سوف تراها في الطريق، نرى أنها تأخذ بيد طالب الحق إلى النجاة، كما أنني لم أنس أخواتي المسلمات، فذكرت لهن معالم في الطريق ووصايا قيمة استخلصتها من أقلام المخلصين .

وفي الختام أحمد الله الذي منّ على العبد المذنب الضعيف بإعداد هذه الرسالة المتواضعة حول موضوع عظيم نسأل الله أن يقبله عنده خالصاً ويجعله ذخراً في العالمين .



معنى الدعوة

تعريفها لغة واصطلاحاً:

من معاني الدعوة لغة:

١- النداء يقال دعا فلان فلاناً، إذا ناداه، ودعوت الرجل إذا صُحِتَ به واستدعيته .

٢- الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده .

٣- الدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها سواء كانت حقاً أو باطلاً .

فمن الحق قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] .

ومن الباطل دعوة النساء يوسف الصديق: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] أي طاعة النسوة والوقوع في الإثم .

٤- المحاولة القولية أو الفعلية والعملية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة .

٥- الابتهاال والسؤال، كما جاء في المصباح المنير .

قال في اللسان: والدعاة يدعون الناس إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين أدخلت الهاء فيه للمبالغة .

يقول الإمام ابن القيم: «الدعاة جمع داع كقاض وقضاة وإضافتهم إلى الله للاختصاص: أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء هم خَوَاصُّ خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلامهم قدراً» .

معنى الدعوة اصطلاحاً:

سبيل يسلكه الدعاة بقصد إمالة الناس إلى دعوتهم حقاً كانت أو باطلاً .

والدعوة الإسلامية تشمل كل ما يقصد به رفعة الإسلام ونشره بين الناس ، ولا يخالف الحكمة .

الرفق لغة :

يقول ابن فارس : الرفق خلاف العنف .

يقول الليث : الرفق لين الجانب ، ولطافة الفعل ، وصاحبُه رَفِيقٌ .

اصطلاحاً : هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف .

قال سفيان الثوري لأصحابه : «أتدرون ما الرفق؟» قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيوف في موضعه والوسط في موضعه .

قال الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلأ مضر كوضع السيف في موضع الندى

وجاء في المصباح المنير من معاني الحزم :

(حَزَمَ) فلان رأيه (حزماً) أي أتقنه و(حزمت) الشيء جعلته (حُزْمَةً)، والجمع (حُزَمٌ) مثل عُزْفَةٌ وعُزْفٌ .



موضوع الدعوة «ما يدعو إليه الداعية»:

موضوع الدعوة: هو دين الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهذا ما فصله حديث جبريل عليه السلام في ذكر أركان الإسلام: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» وأركان الإيمان: «أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». والإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

ولا شك أن الإسلام اختص بخصائص عظيمة منها:

١- الإسلام من عند الله تعالى.

٢- شامل لجميع نظم الحياة وسلوك الإنسان، ومن هذه النظم:

نظام الأخلاق، ونظام المجتمع، والإفتاء، والحسبة، والحكم والاقتصاد، والجهاد، ونظام الجريمة والعقاب، وذلك كله قائم على الرحمة، والعدل، والإحسان.

٣- عام لجميع البشرية في كل زمان ومكان: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّيْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٤- وهو من حيث الجزاء: الثواب والعقاب الذي يصيب مُتَّبِعُهُ أو مخالفه ذو جزاء أخروي بالإضافة إلى جزائه الدنيوي إلا ما خصّه الدليل.

(١) مسلم الإيمان (٣٩/١).

٥- والإسلام يحرص على الارتقاء بالناس إلى أعلى مستوى ممكن من الكمال الإنساني: وهذه مثالية الإسلام، ولكنه لا يغفل عن طبيعة الإنسان وواقعه، وهذه هي واقعية الإسلام.

٦- الإسلام وسط: في عقائده، وعباداته، وأخلاقه، ونظمه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

كما يلزم الداعية فهم مقاصد الإسلام التي دلت عليها الشريعة الإسلامية: وهي تحقيق مصالح العباد ودرء المفسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفسد وتقليلها»^(١).



(١) منهاج السنة النبوية (١/١٤٧).

أدلة وجوب الدعوة

الدعوة إلى الله فريضة شرعية والأدلة على وجوبها كثيرة نذكر منها:

١- قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

والآية واضحة في الدلالة على الوجوب لمجيء لام الأمر في قوله ﴿وَلْتَكُنْ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إلا أن قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٦٥] دال على أن الوجوب على الكفاية، إذا وجد من يقوم بالدعوة من أهل العلم الشرعي الحق وإن لم يقم أحد بالدعوة أثمت الأمة كلها.

٢- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَالْأُمَّةَ دَاخِلَةً فِي عَمُومِ الْخُطَابِ .

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠] .

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] .

٥- ولذلك ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١) وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

٦- وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال خطب علي بن أبي طالب

(١) مسلم (٤٩).

ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما أهلك من قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً» [تفسير ابن كثير ٧٤/٢].



فضل الدعوة إلى الله

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ففي هذه الآية الكريمة الثناء العطر على الدعوة، وأنه لا يوجد في الكون أحسن قولاً منهم وعلى رأسهم الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه، ثم أتباعهم على حسب مراتبهم في الدعوة والعلم.

أخي: انظر إلى بشرى رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١) فأين الباحثون عن الأجر المضاعف؟ هذا ميدانه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(٢) رواه مسلم.

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها والحيتان في البحر يصلون على معلم الناس الخير»^(٣).



(١) مسلم (٢٦٧٤).

(٢) مسلم (١٦٣١).

(٣) الترمذي (٢٦٨٦).

الرفق وأهميته

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَآتِيَنَّهُمْ نَارٌ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ومعنى ﴿لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ﴾ [آل عمران: ١٥٩] : سهلت لهم أخلاقك، وكثر احتمالك، ولم تسرع إليهم بالغضب فيما كان منهم .

تفسير الآية :

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي : فبسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ . . . [آل عمران: ١٥٩] الآية أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك .

الآيات الكريمة قبل هذه الآية تتحدث عن غزوة أحد، وما أصيبوا به من غم واضطراب وقد أرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، أما هذه الآيات ففيها الإشادة بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ «في معركة أحد» فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة إنما خطابهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته وتوحدت تحت قيادته والآيات تحدثت عن أخلاق النبوة .

وهذه الرحمة نتج عنها الرفق بالمدعوين فظهر في واقع الحياة .

١- عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنه قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»^(١) .

(١) مسلم (٢٥٩٣) .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من يُحرم الرفق يُحرم الخير»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله - عز وجل - بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»^(٢).

* * *

(١) مسلم (٢٥٩٢).

(٢) أحمد في المسند (١٠٤/٦) والمنذر (٢٦٢١٢) وهو في الصحيحة للألباني (٥٢٣).

أمثلة تطبيقية في الرفق

المثال الأول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترموه دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشبه عليه^(١).

وقد ثبت في البخاري وغيره أن هذا الرجل هو الذي قال: «اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً» ولما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجرت واسعاً» يريد رحمة الله^(٢).

يقول الأعرابي بعد أن فقه: «فقام النبي ﷺ إليّ بأبي وأمي فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب».

ونلاحظ تلميح الرسول ﷺ بهذه الكلمات خاصة إذا ثبت أنه ذو الخويرة، مع ما أظهره في وجه النبي ﷺ يوم حنين حيث قال ذو الخويرة التميمي: اعدل فإنك لم تعدل حتى قال له النبي ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل...» الحديث.

(١) البخاري مع الفتح (١٠: ٤٣٨ - ٦١٢٨).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠ / ٦٠١٠).

شرح المفردات :

«جاء أعرابي» قيل إنه ذو الخويصرة اليماني وكان رجلاً جافياً. حتى قال البدر العيني في «عمدة القاري» ولا يبعد ذلك منه بجلافته وقلة أدبه.

مه مه . قول : «مه» كلمة بنيت على السكون وهو اسم يسمّى به الفعل ومعناه اكفف . لأنه زجر .

«لا تزرموه» يعني لا تقطعوا عليه بوله، يقال : أزرمت الدمع والدم انقطعا .

«دعوه» أي اتركوه وهو أمر بصيغة الجمع .

«فشّنه عليه» : أي صب المياه عليه .

«أهريقوا» أصله أريقوا من الإراقة ويروي «أهريقوا» .

«الذنوب» الدلو العظيمة، وقيل لا تسمى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماء .

ما يفهم من الحديث الشريف :

هذا الأعرابي قد عمل أعمالاً تثير الغضب ولذلك همّ الصحابة عليهم السلام بعقابه فنهاهم النبي صلى الله عليه وآله أن يقطعوا عليه بوله، وهذا غاية الرفق والرحمة بهذا الجاهل، فإن هذا الأعرابي شرع في المفسدة الظاهرة، فلو منع لزادت المفسدة فدار الأمر بين مسألتين :

١- إما أن يقطع عليه بوله، فيتضرر الأعرابي بحبس البول بعد الخروج مع الخوف .

٢- وإما أن يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه، أو موضع آخر من المسجد، فأمر النبي صلى الله عليه وآله بالكف عنه للمصلحة الراجحة وهي دفع أعظم المفسدتين .

ما يستفاد من أحكام:

- ١- بروز خلقه ﷺ فلا سب ولا شتم ولا إيذاء.
- ٢- فيه دفع أعظم المفسدتين بارتكاب أيسرهما وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما، فإن البول فيه مفسدة وقطعه فيه مفسدة أعظم منها فدفع أعظمها بأيسر المفسدتين، وتنزيه المسجد عنه مصلحة، وترك البائل إلى الفراغ مصلحة أعظم منها فحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما.
- ٣- وجوب صيانة المساجد، وتنزيهها عن الأقدار والنجاسات.
- ٤- الرفق بالجاهل وتعليمه فيه خير كثير.
- ٥- الشدة وتعنيف الجاهل بالحكم الشرعي يجلب مفاسد «تأخذه العزة بالإثم».
- ٦- إن الأرض إذا أصابتها نجاسة، وصب عليها الماء طهرت.
- ٧- ظهور أثر الرفق في حياة الأعرابي، إذ علم أنه من أخلاق النبوة!

المثال الثاني:

عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَأُتْكَلُ أُمِيَاءُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكْتُ، فَلَمَّا صَلَّى ﷺ فَبَآبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالاً يأتون الكهّان، قال: «فلا تأتهم».

قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدّ عنهم» قال ابن الصّباح: «فلا يصدّ عنكم» قال: قلت: ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمّن وافق خطّه فذاك، قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانيّة، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف (أي: أغضب) كما يأسفون لكنني صككتها صكةً، فأتي رسول الله فعظّم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله! أفلا اعتقها، قال: اتّني بها.

فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة».

المفردات وغريب الألفاظ:

«واثكل أمياه» الثكل بضم التاء وإسكان الكاف وفتحهما لغتان كالْبُخْلِ والبَخْلِ حكاهما الجوهري وغيره وتعني فقدان المرأة ولدها.

«أمياه» هو بكسر الميم «فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم» فعلوا هذا ليسكتوه.

«فوالله ما كهربي»: أي ما انتهرني.

«بادية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانيّة» والجوانيّة موضع في شمال المدينة قرب أحد.

ملاحح الحديث الشريف العامة:

إن هذا الصحابي جاء بعدد من الأمور المنكرة فواحدة منها تكفي للغضب والزجر لكن الذي يلفت النظر، والكل بحاجة إليه، كيف احتوى الرسول ﷺ هذه

الجهالات بصدر رحب وتعليم فذ فيه درس للدعاة المخلصين .

فأول تلك الطامات أنه تكلم في الصلاة المكتوبة حيث شمت العاطس ثم جراته، حيث إنه وجه أسئلة للنبي ﷺ عن أمور تجيش في نفسه مع أن ظاهره الإسلام، فسأل عن الكهان وعن التطير وعن الخط، وهذه من أمور الجاهلية فالفؤاد لم يتطهر منها بعد، ولو كان غير محمد ﷺ كأي به يقول له: تدعي الإسلام، وصدرك مملوء بهذه الشراكيات، اخرج من صفوفنا، لكنه الرءوف «فهذا الرسول ﷺ استمع إلى ما أباح به بكل رحابة صدر وحسن توجيه، واسمع الجواب المذهل الهادي اللين عندما سأل عن الكهان: «ومنا رجال يأتون الكهان».

قال ﷺ: «فلا تأتهم» جواب بسيط يناسب الجاهل بأمر الشرع، وكذلك نهاه عن التطير وعن الخط ونهاه عن الغضب.

ثم وجهه إلى ما يصلح حاله ويغفر ذنبه «اعتقها فإنها مؤمنة» وذلك رجاء المثوبة من الله، وتكفير عن تلك الصكة التي نالتها الجارية الضعيفة.

ما يستفاد من أحكام:

١- بيان ما كان عليه ﷺ من عظيم الخلق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] «فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله وبعده أحسن تعليماً منه» هذه مقالة الأعرابي.

٢- جواز الفعل القليل في الصلاة، وأنه لا تبطل به الصلاة وأنه لا كراهة فيه عند الحاجة.

٣- رفقه بالجاهل، ورأفته بأمرته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلق ﷺ.

٤- عدم ذكر اسم الرجل العاطس فيه فائدة حيث إنه لا جدوى من ذكره «عطس رجل من القوم».

- ٥- تحريم الكلام في الصلاة سواء كان لحاجة أو غيرها وسواء كان لمصلحة أو غيرها.
- ٦- ثبت في الأحاديث الصحيحة بخصوص التنبيه أو الإذن للداخل ونحوه، بأن يسبح إن كان رجلاً وتصفق إن كانت امرأة هذا ما عليه الجمهور.
- ٧- إنكار المنكر بما يناسبه «فرماني القوم بأبصارهم».
- ٨- ذهول الصحابي رضي الله عنه ودعاؤه على نفسه «واكل أمياه».
- ٩- ثبت الصحابي رضي الله عنه ، ولم تأخذه العزة بالإثم. «فلما رأيتهم يصمتونني لكن سكت».
- ١٠- إن التسبيح والتكبير وقراءة القرآن والتشهد والدعاء والتسليم من الصلاة فلا يبطلها.
- ١١- لين الجانب جراً للصحابي على السؤال عن أمور أخرى، تجيش في صدره.
- ١٢- اعتذار الصحابي عن بعض ممارسات الجاهلية «وإنّ منا رجلاً يأتون الكهان».
- ١٣- تنكير لفظ «رجالاً» كي لا يخدش الناس ولا يخرجهم بذكر أسمائهم وقبائلهم.
- ١٤- غبطة الصحابي بالإسلام «وقد جاء الله بالإسلام».
- ١٥- تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم، وتحريم ما يُعطون من الحلوان، وهو حرام بإجماع المسلمين.
- من حديث عمران بن حصين مرفوعاً وفيه «ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد

كفر بما أنزل على محمد ﷺ البزار بإسناد جيد.

١٦- نهى النبي ﷺ عن التطير، والامتناع من تصرفاتهم بسببها عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه، ومن حديث أنس قال ﷺ: «ويعجبني الفأل» قال: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

١٧- وأما قوله: «ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء عليه السلام يخط فمن وافق خطه فذاك». [اختلف العلماء في معناه فالصحيح أن معناه ومن وافق خطه فهو مباح له ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: «فمن وافق خطه فذاك». ولم يقل هو حرام بغير تعليق على الموافقة لثلاث يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه وكذا لو علمتم موافقته ولكن لا علم لكم بها. وقال الخطابي: هذا الحديث يحتمل النهي عن هذا الخط إذ كان علماً لنبوة ذاك النبي وقد انقطعت فنهينا عن تعاطي ذلك وقال القاضي عياض: المختار أن معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول لا إنه أباح ذلك لفاعله. قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن هذا ما ذكره النووي رحمه الله تعالى^(١).

١٨- جواز استخدام السيد جاريته في الرعي إذا أمن عليها.

١٩- من طبع الإنسان أنه يغضب ويأسف على فقدان الشيء حتى وإن كان ذا مكانة كالصحابي رضي الله عنه المذكور.

(١) مسلم بشرح النووي (٢٠/٥).

٢٠- سرعة رجوع المسلم إلى الحق، عندما يشعر أنه ابتعد عنه وتألمه لتقصيره قوله: «أفلا اعتقها».

٢١- جواز السؤال عن الله تعالى: «أين الله» قالت: في السماء.

٢٢- إثبات الفوقية لله تعالى وأنه مستوٍ على عرشه بائن من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أثبت سبحانه أن له سمعاً وبصراً، ولكن ليس كسمع المخلوق وبصره، تعالى شأنه وتقدس أسماءه، فسمعه وبصره يليق بجلاله وعظمته، وسمع وبصر المخلوقات على قدر ضعفهم وعجزهم، فلاشتراك في المسمى لا يعني الاشتراك بالذات هذه عقيدتنا والحمد لله رب العالمين وهي عقيدة السلف من الأولين.

٢٣- إعجاب الرسول ﷺ بجوابها وأمره أن يعتقها.

٢٤- في أحكام الشرع، يجب معرفة من تأخذ عنه: «من أنا؟ قالت: رسول الله ﷺ».

٢٥- طاعة الرسول ﷺ واجبة على كل مسلم «اعتقها فإنها مؤمنة».

٢٦- الثبوت من الأخبار حتى وإن وصلت من أشخاص ثقات كالصحابي رضي الله عنه «أتني بها».

المثال الثالث:

فاسمع إلى ما جاء في الصحيح:

«أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا أحسنت ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه «وكادوا أن يوقعوا بالرجل» فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئاً ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم

فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال الأعرابي: نعم فلما كان الغد أو العشي جاء الأعرابي فقال صلوات الله وسلامه عليه: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضى، كذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبي ﷺ، مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»^(١).

* من الآثار وأقوال العلماء في الرفق:

١- قال حماد بن سلمة أن صلة بن أشيم: «مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره [إشارة إلى تكبر] فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال أشيم للرجل: ابن أخي؟ إن لي إليك حاجة قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك قال: نعم وكرامة، فرفع إزاره. فقال لأصحابه: لو قرعتموه لقال: لا ولا كرامة وشتمكم».

٢- قال عمرو بن العاص لابنه عبد الله رضي الله عنه: «ما الرفق؟» قال: «تكون ذا أناة فتلاين الولاية» قال: «فما الخرق» قال: «مُعَادَاةُ إِمَامِكَ وَمَنَاوَأَةٌ مِنْ يَقْدَرُ عَلَى ضَرْبِكَ»^(٢).

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ٩٣).

(٢) أحياء علوم الدين (٣/ ١٨٨).

٣- وعن قيس بن أبي حازم قال: «كان يُقال من يُعطى الرفق في الدنيا نفعه في الآخرة»^(١).

٤- قال ابن أبي خالد: «الرفق يُمنُّ والحرَقُ شؤمٌ».

من فوائد الرفق^(٢):

- ١- الرفق طريق موصل إلى الجنة.
- ٢- دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- ٣- يثمر محبة الله ومحبة الناس.
- ٤- ينمي روح المحبة والتعاون بين الناس.
- ٥- دليل على صلاح العبد وحسن خلقه.
- ٦- ينشئ مجتمعاً سالماً من الغل والعنف.
- ٧- عنوان سعادة العبد في الدارين.
- ٨- رفق الوالي بالرعية مدعاة لأن يرفق الله بالرعية.
- ٩- الرفق بالحيوان في إطعامه أو ذبحه من مظاهر الإحسان.
- ١٠- الرفق دليل على فقه الرجل وأناته وحكمته.

* * *

(١) أخرجه وكيع في الزهد (٣/٧٧٧).

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ بإشراف صالح بن حميد.

الحزم وأهميته

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك...» الحديث.

إلى أن قال عليه السلام: «كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»^(١).

أمثلة تطبيقية في الحزم

المثال الأول: [قصة المرأة المخزومية]

عن عائشة رضي الله عنها، إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجروا عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكلّمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أشفع في حدّ من حدود الله؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله! فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله، فقال: «أما بعد، أيها الناس: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ وأناي والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فُقطعت يدها.

قالت عائشة: فحسنّت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتيني فأرفع حاجتها إلى

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٥٠).

رسول الله ﷺ. وفي رواية عند أحمد أنها قالت: «هل لي من توبة يا رسول الله! فقال: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك».

سبب القصة:

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح إليه: أن امرأة جاءت امرأة فقالت: إن فلانة تستعيرك حلياً فأعارتها إياه فكانت لا تراها فجاءت إلى التي استعارت لها فسألتها فقالت: ما استعرتك شيئاً فرجعت إلى الأخرى فأنكرت فجاءت إلى النبي ﷺ فدعاها فسألتها فقالت: والذي بعثك بالحق ما استعرت منها شيئاً فقال: اذهبوا إلى بيتها تجدوه تحت فراشها. فأتوه فأخذوه، وأمر بها ففُطِعتَ يدها.

وأخرج النسائي في رواية له: أن امرأة كانت تستعير الحلي في زمن رسول الله ﷺ فاستعارت من ذلك حلياً فجمعته ثم أمسكته، فقام رسول الله ﷺ فقال: لتتب امرأة إلى الله تعالى وترد ما عندها، مراراً فلم تفعل فأمر بها ففُطِعتَ.

معاني المفردات:

«أهمتهم المرأة» أي أجلبت إليهم همّاً أو صيرتهم ذوي همّ بسبب ما وقع منها.

اسم تلك المرأة فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عمرو بن مخزوم.

«فقالوا: من يكلم فيها رسول الله» أي: يشفع عنده فيها أن لا تُقَطَعَ إما عفواً وإما فداءً وقد وقع ما يدل على الثاني في حديث مسعود بن الأسود ولفظاً بعد قوله أعظمنا ذلك «فجئنا إلى النبي ﷺ فقلنا: نحن نفديها بأربعين أوقية» فقال: تُطَهَّرُ خير لها وكأنهم ظنوا أن الحد يسقط بالفدية كما ظن ذلك من أفتى والد العسيف الذي زنى بأن يفتدي فيه بمائة شاة ووليدة.

«ومن يجروا عليهم» والجرأة هي الإقدام بإدلال (يعني فهو يجسر إلى ذلك).

«حب رسول الله» وذلك لقوله ﷺ: «اللهم إني أحبه فأحبه».

«وأيم الله» فيه دليل لجواز الحلف من غير استحلاف وهو مستحب إذا كان فيه تفخيم لأمر مطلوب كما في الحديث.

ما يستفاد من أحكام:

- ١- منع الشفاعة في الحدود إذا بلغت السلطان.
- ٢- ذكر الخطابي عن مالك أنه فرّق بين من عرف بأذى الناس ومن لم يُعرف فقال: لا يشفع في الأول مطلقاً سواء بلغ الإمام أم لا وأما من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام.
- ٣- دخول النساء والرجال في حدّ السرقة.
- ٤- قبول توبة السارق.
- ٥- ظهور منقبة فاطمة عليها السلام وعلو منزلتها.
- ٦- ظهور منقبة أسامة بن زيد عليه السلام، فنعم الولد والوالد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] ومن ذلك الحين أصبح زيداً إذا سُئِلَ: أنا زيد بن حارثة بعد أن كان يقول مزهواً زيد بن محمد وشاء الله أن يعوضه عن هذا النسب الشريف الذي كان يأنس به فخضه وحده دون أصحاب رسول الله بتسجيل اسمه في الذكر الحكيم، فأصبح (زيد) مسجلاً في القرآن يتلى في المحاريب ويرتله المؤمنون في كل زمان ومكان.
- ٧- ترك المحاباة في إقامة الحدود ولو كان ولداً أو قريباً.
- ٨- فيه إشارة إلى التحذير من فعل الشيء الذي جر الهلاك إلى الذين من قبلنا.

موضع الحزم في هذا الحديث:

فمع مكانة المرأة وأنها من بني مخزوم الفرع المعروف بالشجاعة والمكانة في قريش إلا أن النبي صلى الله عليه وآله، غضب لله عندما أراد أسامة أن يشفع فيها فلم تأخذه صلى الله عليه وآله

لومة لائم مهما كانت النتائج حتى لو غضب قومها؛ لأن المسألة مسألة دين وحدود شرعية، فظهر حزمه الجليّ بدون تردد ﷺ.

المثال الثاني: غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الحزم النبوي في كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية على حد سواء خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء في الداخل والخارج إنه بعد الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين يوم أمس السبت ما راع الناس إلا ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان بن حرب وجيشه، وقال لا يخرج معنا إلا من حضر، معنا معركة أحد أمس، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان، فكان خفيف الجراح يحمل أخاه، فإذا تعب وضعه يمشي ساعة ثم يحمله حتى وصلا معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر ﷺ بحمراء الأسد.

وما زال النبي ﷺ بحمراء الأسد حتى مرّ به معبد الخزاعي، وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ أي موضع سره وثقته لا تخفي عليه شيئاً من الناس في تهامة، فقال معبد وهو يومئذ مشرك: يا محمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أر مثله أبداً، فقال أبو سفيان ويحك ما تقول؟ قال والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل فقال أبو سفيان فوالله لقد أجمعنا الكثرة عليهم لنستأصلهم بقيتهم، قال معبد: إني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر قال أبو سفيان وما قلت؟ قال قلت:

كَادَتْ تُهَدِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ

تَرْدَى^(١) بأُسد كرام لا تنابِلة^(٢) عند اللقاء ولا ميل^(٣) مَعَاذِلِ

المثال الثالث: حزمه في شأن أبو عزة الشاعر:

كان رسول الله ﷺ أسره يوم بدر، ثم منَّ عليه وأطلقه بغير فداء، وأخذ عليه أن لا يعين عليه، فنقض العهد، فأسير يوم أُحُد، فأمر رسول الله ﷺ فضرب عُقْقه صبراً، وقال له: واللَّه لا تمسحُ عارضِيكَ بمكة وتقول: خَدَعْتُ محمداً مَرَّتَيْنِ.

المثال الرابع: إنفاذ أبي بكر جيش أسامة

في هذه الفتنة الحالكة والأنباء بارتداد العرب قام أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة. وذلك أن رسول الله ﷺ كان جهَّز جيشاً لمعاقبة قبائل قضاة الضاربين في جهات الشام مما يلي مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة، وقد استشهد في تلك الغزوة فجهَّز جيشاً آخر لغزوهم وقد جعل رسول الله ﷺ أمير هذا الجيش أسامة بن زيد وكانت سنَّه ثمانِي عشرة سنة وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر وقد حث رسول الله ﷺ على خروج جيش أسامة ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسنَّ منه، وقد توفي رسول الله قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقي بظاهرها.

فخرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيَّعهم ماشياً وأسامة راكب واستأذنه في أن يسمح لعمر بالبقاء معه بالمدينة يستعين برأيه، فسمح له بذلك، وقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، واللَّه لتركن أو لأنزلن؟ فقال: واللَّه لا نزلت ولا أركب، وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله؟ كان في عمل أبي بكر ما حدا القوم على

(١) تردى: تسرع.

(٢) تنابله: غير قصار.

(٣) جمع أميل وهو الذي لا رمح له ولا ترس.

الرضا بإمرة أسامة إذ رآوه ماشياً في ركابه، فكان عمله خيرَ ما دُلِّمَ لهم .
ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذي أُعد له يُشعر قلوبَ العربَ ضعفَ المسلمين عن حماية أنفسهم فيطمع الذي في قلبه مرض وإنَّ إنفاذه إمضاءً لأمر رسول الله ﷺ وتصوير المسلمين في النفوس بصورة القوي الجريء الذي لم يختلج قلبه خوفاً ولم يستشعر الوجل .

وسار أسامة وشنَّ الغارة على بلاد قضاة وأحلافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم، ففتت في أعضاء المرتدين حين تسامعوا به . وقالوا: لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بُعد عنهم من القبائل ذات الشوكة غير أن ذلك لم يثن كثيراً من المرتدين عن الانحدار في مهواة الردة التي زلت فيها أقدامهم .

دروس وعبر من الحادث :

١- تَطَلُّعُ الرسول ﷺ وهو في آخر أيامه إلى خارج الجزيرة لنشر هذا الدين والرغبة في إقامة الحجة على الناس، فدعا الأفراد ثم القبائل وراسل الملوك والأمراء في فارس واليمن والحبشة ومصر .

وهذا فيه درس للدعاة بضرورة تبليغ هذا الأمر إلى الناس جميعاً بكل الإمكانات المتاحة وخاصة في هذا العصر عصر الفضائيات والقنوات المختلفة .

٢- محاولة البعض استبدال أسامة بمن هو أسنَّ منه لخطورة الغزوة وبُعدها، والرسول ﷺ لم يلتفت لذلك .

٣- حرص الصديق على إنفاذ جيش أسامة؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي عقد اللواء، فكان إنفاذه نهاية الحزم .

٤- السنَّ ليس هو المعتبر في القيادة .

- ٥- بقاء الجيش قريباً من المدينة؛ لشحذ الهمم واستعداداً للانطلاق من الحكمة في مكان.
- ٦- وفاة الرسول ﷺ المصيبة الكبرى لم تزعزع تماسك الجيش وقيادته الفتية.
- ٧- خروج الخليفة بنفسه للجيش فيه رفع لمعنوياته.
- ٨- تواضع أبو بكر الجرم وهو ماشٍ تحت رحل أسامة وهكذا يكون القائد المحثك كأبي بكر رضي الله عنه.
- ٩- كان في عمل أبي بكر ما حدا بالقوم على الرضا بإمرة أسامة.
- ١٠- بعد نظر الصديق رضي الله عنه حيث كان بانطلاق ذلك الجيش فوائده عظيمة صريحة في الأثر حيث هاب العرب والمرتدون سطوة المسلمين.

من فوائد الحزم وصفات الحازم:

- ١- هو دليل على اتزان العبد فهو ضابط لأمره كلها في الغالب.
- ٢- تنمية روح الثقة بالنفس.
- ٣- الحزم دليل على فقه الرجل فيضع كل شيء في مكانه.
- ٤- إنه ينمي ثقة الناس بالعبد.
- ٥- الحازم يحسن العبادة ويقوم بها حسب أصولها.
- الحازم يكاد يرى المستقبل لأن تصرفاته ثابتة لا طيش فيها.
- ٧- الحازم لا يخدعه الفسقة وأهل الباطل.
- ٨- لا أنصاف حلول في حياة الحازم.

* * *

من أساليب الأنبياء والرسل في الدعوة

إن من الملفت للنظر أن القرآن الكريم تناول حقائق وخصها بمزيد عناية في بداية دعوة الرسل والأنبياء للناس فمن تلك الحقائق:

الإيمان بالله وحده - الإيمان بالبعث والجزاء - أن الله تعالى أرسل إلى الأمم رسلاً مبشرين ومنذرين .

أولاً: الإيمان بالله وحده:

فكانت الرسل تدعو إلى التوحيد الخالص بأساليب متنوعة .

١- تنزيه المولى تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْجِبَالِ هَدًّا ۝٩٠﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١] .

حيث كانت الأمم منغمسة في الشرك فبعض اليهود قالوا عزيز بن الله وقالت النصراني المسيح ابن الله وقال بعض العرب الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً فكان لابد من رد تلك الفرية المنكرة .

٢- بالحجج العقلية: قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهذه حجة على من له مسكة عقل أن هذه الأصنام والمعبودات لو كانت آلهة حقاً كما يزعمون لحصل الصراع بينها لكن يعرفون أنها غير آلهة حقاً إنما الهوى واتباع الأجداد والأسلاف على باطل .

٣- بالنظر إلى الآيات الكونية:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] .
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٦٤﴾ .

ولقد عُرِضَتْ هذه القضايا وغيرها على الأمم بأسلوب مليء بالصدق والرحمة والإخلاص .

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِذُكُمُ الْيَوْمَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٧] .

وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٩] .

٤- دفع الشبهات التي يثيرها الخصوم، وخاصة الملام منكم، وهم كبراء الناس وأصحاب الأموال والرياسات، كمثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُوتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ... ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧] .

٥- أسلوب الترغيب والترهيب:

قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزمر: ٣٩] .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [التور: ٦٣] .

٦- الصبر والاحتمال عند المجادلة وغيرها:

فهذا فرعون يسأل موسى ﷺ ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ سؤال استفزازي يُريد فرعون به تضييع حجة موسى وإرباكه وهذا من أساليب الدهاة، لتشتيت ذهن الخصم .

فكان جواب موسى أنه ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠] .

ولاحظ الهدوء والثقة عند موسى .

قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] قال: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٢ - ٥٣] .

وإني لأرجو من الحضيف أن يلاحظ الكلمات التالية في هذا الخطاب:

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ﴾ [طه: ٥٣] ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

وما فيه من إثارة الآخرين من حول فرعون، فهو أسلوب من أساليب الدعاة كموسى ﷺ .

فالتحمل والصبر من صفات الناجح خاصة عند المناقشات والأسئلة والسخرية، بحيث لا يضيق صدر الداعي لأن مقصوده نبيل وغايته سامية.

ثانياً: الإيمان بالبعث والجزاء:

واستمع إلى أسلوب القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان بيوم البعث بالاستدلال ببداء خلق الإنسان؛ لأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩] .

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧] .

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّؤْفَقُ

وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ [الحج: ٥ - ٧].

ثالثاً: إن الله تعالى أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً...﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

* * *

هل الدعوة مهمة وضرورية؟

والجواب نعم للأسباب التالية:

١- لإقامة الحجّة على الخلق قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فهي مهمة الرسل عليهم السلام والمخلصين من الأتباع.

٢- لكبح الشر والمطامع والأهواء فأصحاب النوازع الشريرة يحبون أن تشيع الفاحشة في الناس كما ذكر الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

فتراهم يتعاونون مع بعضهم البعض بوسائل لا تخطر أحياناً على بال أحد من الناس، وذلك لإشباع غرائزهم المريضة، فتركهم سفه وهلاك كما في الحديث، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهما وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً»^(١).

٣- الخوف من لعنة الله أن تحل بالمجتمع الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، كما وقع في الأمم السابقة «فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقيه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون

(١) البخاري الشركة (٣ - ١٨٢)، والترمذي الفتن (٤٧٠) وأحمد (٤ - ٢٦٨).

أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض .

ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً^(١).

٤- طلباً للنجاة في الدنيا والآخرة: قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

أسس الدعوة التي ندعو لها:

١- إصلاح العقيدة بالأمر بإخلاص العبادة لله والنهي عن الشرك ثم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الواجبات وترك المحرمات كما هي طريقة الرسل عليهم السلام ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

٢- إن منهج الرسل يقوم على تقديم جانب العقيدة وأي إصلاح في أمور جانبية لا يأتي إلا بالفشل، فإصلاح الحكم والسياسة وإقامة الحدود وتطبيق الشريعة جانب مهم لكنه ليس الأهم، إذ كيف يطالب بتطبيق حكم الله على السارق والزاني قبل أن يطالب بتطبيق حكم الله على المشرك وعلى عباد الأوثان والقبور وما أكثرها في بلاد المسلمين اليوم، فالشرك ونفي الأسماء والصفات إساءة في

(١) أبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٥٠).

حق الخالق سبحانه وحق الخالق مقدم على حقوق المخلوقين يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه الذنوب مع صحة التوحيد خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب».

٣- تعاون على الحق وصبر فيه وتناصح في إخلاص وتمسك بسنة سيد المرسلين في الدعوة إلى الله واقتداء بالصحابة والتابعين كما جاء من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «وأنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

٤- محاولة غير يائسة من إصلاح المجتمع المسلم والتحذير من الانحرافات والمنكرات التي ظهرت في هذا العصر في الوسائل المريئة والمسموعة وغيرها حتى إنها غزت البيوت وبعض المجاهدين هناك في الجبهة الدعوية يظنون أن العدو أمامهم.

٥- لا عشوائية ولا غوغاء في الدعوة.

فلا نظر إلى الكم والعدد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] يقول العلماء: فعله فعل أمة كاملة. بل الاعتبار بالكيف والتصفية ونصح الأمة، وأما الحماس الطائش والمظاهرات والتجمعات والحزبيات فليس من الإسلام في شيء.

ومن المشاهد الملموسة أن المناهج والدعوات المختلفة أخذ بعضها يصارع بعضاً بل ويتقاتلون والعداوة بينهم أشد من عداوة الكفار، مع أن بعضهم في دائرة الإسلام، والحق أن في طريقته وسيرته صلى الله عليه وسلم في الدعوة خير قدوة وأكمل منهج

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨).

حيث مكث ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك قبل أن يأمرهم بالصلاة وقبل أن ينهاهم عن الربا والزنا وقتل النفس بغير حق .



وسائل الدعوة

وسائل جمع وسيلة وهي ما يتقرب به إلى الشيء الآخر.

وتنقسم وسائل الدعوة إلى قسمين:

القسم الأول:

وسائل معنوية: وتمثل الصفات التي ينبغي للدعاة أن يتصفوا بها (صفات الداعي).

القسم الثاني: وسائل مادية:

وفيها أنواع:

أ - الوسائل المادية الفطرية من الخطاب - الحوار - الندوة - الدروس في المسجد.

ب- الوسائل التجميعية الكبيرة - مراكز الدعوة - المساجد والجوامع الكبيرة والجمعيات الخيرية.

ج - الوسائل العلمية والفنية الحديثة كأجهزة الاتصال المختلفة والبث المرئي والمسموع.

ضوابط الوسائل الدعوية:

١- الانضباط بأحكام الشرع:

أي يشترط أن تكون الوسائل والأساليب الدعوية مأخوذة من نصوص الكتاب والسنة أو تكون عن طريق المصادر الشرعية الأخرى مثل القياس بضوابطه فلا مكان للوسائل والأساليب المحرمة والممنوعة، فإنها لا تأتي بخير أبداً.

٢- ألا يؤدي استعمالها في مصلحة إلى الوقوع في مفسدة أعظم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: في هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية وهي إن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها.

٣- التدرج في استخدام الوسائل والأساليب.

وهو التقدم شيئاً فشيئاً، والصعود درجة درجة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] .

وفي سيرة الرسول ﷺ قدوة حسنة، فقد بين للناس دينه ومنهجه ثم الهجرة ثم بعث السرايا فالغزوات، ثم الكتب والوفود إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام.

٤- مراعاة الأولويات.

وذلك بالنظر إلى حال المدعوين، فلا يُؤْمرون بالصلاة وهم كفار معاندون، وحديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واضح فأول ما تدعوهم إلى كلمة لا إله إلا الله فإن هم أطاعوك... الحديث.

وخلاصة الكلام: إن هذه الوسائل وغيرها ليست توقيفية بالكلية ولا اجتهادية منفصلة بعيدة عن الشرع فضوابط الشرع هي الميدان الذي يجول فيه الفارس الماهر.



يا أهل العقول الزاكية

إن الاهتداء إلى الحق نعمةٌ جزيلةٌ وموهبةٌ من الباري (يختص برحمته من يشاء) نسأل الله من فضله.

إن أصحاب الحق بعد أن عرفوه، من الواجب عليهم إبلاغه للآخرين، وألا يحرموا من نفعه أحداً من العالمين، ألم يقل ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(١) فلعل هذه الآية ومعرفتها فيها إنقاذ لآخرين وآخرين وهكذا.

الطريق طويل والنصر وقطف الثمرة قبل نضجها ليس من الكياسة، فقد يكون طعمها مر لا يُستساغ، فما أنت إلا مبلغ ولكن لا تتوان، فالهداية عند الرحمن، قال تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الفصل: ٥٦].

العجب من بعض الدعاة في هذا الزمان أن يطلب من سالكي الطريق كلهم أن يصدر عن نمط واحد، سبحان الله هذا مستحيل بعضهم يمشي والآخر يزحف ومنهم كالجواد السريع، فهذا بما أوتي من العلم يحمل قيساً وهذا بماله يحمل كل المحتاجين والآخر برأيه السيد يهتدى به من الفتن وبما أوتي من الحكمة الربانية، وهذا أكثر للسواد لعل الله يلحقه بالركب. ألم تكن دعوة الرسول ﷺ فيها كثير من هذه النماذج إذن لماذا التباكي؟

فمن الواجب على الداعي أن يثق بطريق الله وإن كانت فيها مخاطر لكن نهايتها النصر قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

(١) البخاري (٦/٣٦١).

وكذلك من الواجب عليه تبصير السائرين معه ما دام أنه أصبح قدوة بوضع العلامات في الطريق حتى لا يتعرضوا للضياع وتخطفهم الأهواء والأفكار المتسربة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] وها هو ذا معاذ بن جبل في موقف من هذه المواقف يقول: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال يا معاذ: هل تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله، قلت الله ورسوله أعلم.

قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشّرهم فيتكلوا».

إذن تحقيق المنهج وخلوه من الشوائب هو المنهج المنقذ. فهذا سيد الورى في أحلك الظروف يوم غزوة أحد، عرض أحد المشركين من غير المهاجمين أن يشارك في المعركة فكان جواب الرسول ﷺ: «إننا لا نستعين بمشرك».

اليوم عشوائية ويستعجلون النصر، نقول لهم: التصفية أولاً، كما فعل الرسول ﷺ في مكة، أفراد مع حسن انتقاء كان يعرض عليهم دعوته فأصبحوا فيما بعد هم القادة.

اليوم كم عدد من ينتسب إلى الإسلام؟ ملايين لكن مع الأسف غشاء كغشاء السيل لماذا؟ لأن النخر كاد يصل إلى العظم في أدعياء الملة فقد تفشى الشرك وعبادة القبور والأشجار والأحجار جهلاً في أساسيات هذا الدين.

ألم يكن العرب في الجاهلية يعظمون البيت العتيق؟ الجواب: نعم، بل لا يرفعون منازلهم فوقه تقديراً له! ألم يقفوا في المناسك كلها؟ الجواب: بنعم، ومع ذلك أرسل إليهم رسولاً منهم كي يصحح المفاهيم الخاطئة التي كانت عندهم من عبادة للأصنام وتقديس اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وعبادة

القبور والأشجار واليوم يطالب بعض قصيري النظر أن تضع يدك وروحك مع تلك الفلول الخاسرة لرفعة الدين أي دين هذا؟ لا بل والله لقد أشهرت كل الطوائف الضالة من أهل القبور، والصوفية والروافض ودعاة الإباحية والعلمانية سلاحها وشحنته لحرب التوحيد وأهله بوسائل جديدة وسلاح فتاك من الفضائيات وممارسات وضغوط على أهل التوحيد للتخلي عن المنهج الحق بحجج الإرهاب والتطرف الديني وضرورة مسايرة العصر وإن العالم أصبح كالقرية، كل تلك من أجل أن تلين قناه المسلم. نقول لا وكلا يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوراً لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

ومع ذلك الثبات يجب أن يكون في ذهن كل داعية أن دعوتنا دعوة رحمة فمن أعظم المسرات أن يهتدي على يدك من ضل الطريق، وأن النفوس الكبيرة ترى سعادتها في إرجاع الناس إلى الفضيلة، وليس الدعاء عليهم بالهلاك، وأن العمل المقرب إلى الله يكون خيره أسبق من حكمة الدعاء عليهم بالثبور، وذلك حتى مع المخالفين والنظر إليهم نظرات شفقة وتأسف على حالهم، وتقديم النصح على قدر المستطاع، والتدرج في التكاليف حتى تألف نفوسهم.

إن التعامل مع النفوس من أصعب الأمور ولذلك وجدنا أن الرسول ﷺ يعطي كل إنسان حسب حاجته وقدرته، فيوصي هذا «لا تغضب» وهذا «قل آمنت بالله ثم استقم» والآخر «عليك ببر والديك».

فكان هذا منهجه في العلاج والتدرج حتى قوى كيان الأمة ﴿يَخَيِّقُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مریم: ١٢] «والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير» وهكذا.

فلو كانت التكاليف دفعة واحدة: لا تغضبوا، استقيموا، أحسنوا إلى والديكم

لا تشربوا الخمر مثلاً لتفرق الناس لعجزهم عن ذلك . فالرحمن له الحكمة في ذلك ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْتَهُ لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُزِّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] لاحظ ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ كذلك من الرشد مخاطبة الناس على قدر عقولهم فإن في هذه الدنيا مغريات وشهوات تعمي عن الحق ، وليعلم الداعي أن حاله كحال هو من قبل ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩٤] فلا تعاملهم على مستواك أنت اليوم ، أنت قطعت أشواطاً وهم لم يبدأوا ولا خطوة فمن الغبن طلب التساوي بينك وبينهم إذا كنت حريصاً على هدايتهم .

قال ابن الجوزي : لا ينبغي لعالم أن يملي ما لا تحتمله عقول العوام .

وقال البخاري : قال علي رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله» .

فبعض دعاة اليوم دفعه الحماس غير المحمود إلى التهور فيكلف المدعو ما لا يطيق مما يجعله بنفر من الدعوة ويهرب من التكاليف فيأمره بالفرائض ثم السنن والنوافل والتطوع دفعة واحدة بل بعضهم يلوم إذا لم يأت بالنافلة ، والدعوة الحق : البدء بالفرائض ثم السنن الراتبة والترغيب بالنوافل ، ومن حديث مالك عن حميد بن قيس وثور أنهما أخبرا أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس ، فقال : «ما بال هذا؟ قالوا : نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم فأمره أن يستظل ويتكلم ويصوم ويفطر» .

أما جانب المعاملات والأخلاقيات فهي بحاجة إلى سياسة شرعية أظن أنها لا يمكن أن تكتب بورقة وكل من يدعي أنه داعية يقرأها ويطبقها على الناس ، لا ، الداعي الحصيف يتعامل مع كل حالة على حدة ، مثال على ذلك هذا الذي يتعامل بالربا وهو غارق فيه عزيز عليه فراقه ، ولكن تجد في قلبه حرقه قد أزعجه ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] حرب مع من؟؟ هو الآن في حيرة ولا يستطيع

أن يقطع المسافة ضعيف، يحتاج إلى طبيب حاذق.
قصة الغلام الذي جاء النبي ﷺ يستأذنه في الزنا فيها عبرة وتعليم لفن الدعوة والإقناع.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: «يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به فقال النبي ﷺ قربوه، أدن فدنا حتى جلس بين يديه، فقال عليه الصلاة والسلام: أتجبه لأملك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال ﷺ: فكذاك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتجبه لابنتك؟ قال: لا جعلني الله فداك. قال ﷺ: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتجبه لأختك؟ قال: لا، جعلني الله فداك. قال ﷺ: فكذاك الناس لا يحبونه لأخواتهم وزاد الراوي ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة. لا جعلني الله فداك، والنبي ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه، ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه وحسن فرجه فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا» رواه أحمد^(١).

الترغيب قبل التهيب:

يدعو القرآن الناس للإيمان ويظهر الجائزة المنتظرة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: «ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يرخص للمرء في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا خير في علم لا فقه فيه ولا خير لقراءة لا تدبر فيها».



(١) رواه أحمد في المسند (٥/٢٥٦، ٢٥٧) الأحاديث الصحيحة للألباني (١/٣٧٠).

وظيفة الداعية

وظيفة الداعية إلى الله تعالى هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل هم قدوة الدعاة إلى الله، وأعظمهم محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٢٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ﴾

[الرعد: ٣٦] .

والأمة شريكة لرسولها في وظيفة الدعوة إلى الله، فالآيات التي تأمره ﷺ بالدعوة إلى الله يدخل فيها المسلمون جميعاً؛ لأن الأصل في خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ دخول أمته فيه إلا ما استثنى، وليس من هذا المستثنى أمر الله تعالى بالدعوة إليه، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

إنَّ الداعية متحرك في كل صوب^(١)، متقن لدعوته في كل ثوب، إن كان في بيته فنعم العائل والمربي، فإن نزل الشارع وخالط الناس، وسعهم بدعوته، فإن ركب وسيلة مواصلات تناثرت بركات دعوته على من حوله، فهذه نصيحة يساير بها موظفاً أو موعظة يسمعها مسلمة، أو كلمة معروفة يُذكر بها من يقف معه في الطابور، إنه المبارك في حله وترحاله، كالغيث أينما وقع نفع.

قلب عامر وعقل يثابر، تقي حفي، نقي أبي نفعه متعد وخيره عام إذا قال أسمع،

(١) كلنا دُعاة/ عبد الله العلاف الغامدي.

وإذا وعظ أخضع دؤوبُ الخطو، بدهي التصرف فيه رحمة وشفقةً فيه جد وحزم. إن مظهره متناسق مع وظيفته السرمدية، هندام نظيف ومتواضع وهيئة نقية، وإخباتٌ غير متكلف، إذا رآه الخلقُ ذكروا الله تعالى.

وهو داعية متعالٍ على السفاسف، إنه لا يساوم الباعة ويلح في خفض الأسعار، ولا يأنف من إماطة الأذى عن الطريق، يبتسم في وجوه الناس أجمعين، ويحفظ حشمته من نزق الطائشين.

مستعد للدعوة في كل ميدان، يصطحب معه في سيره أشرطة الدعاة والخطباء، بل وأشرطة القرآن الكريم، يحمل العطر والطيب دوماً فإذا ما رأيته أقبل بوجهه الضحوك وقلبه المملوء بالرحمة والشفقة وَسِعَ الخلقَ كلهم بحنانه المتدفق كالسيل، أنه حب الخير الذي يملأ جوانحه.

يعتمد الداعية الحي على كل الإمكانيات المتاحة، ويستغل الظروف لصالحه، لا يلعن الظلام، ولكنه يشارك في إيقاد شمعة، إذا قصرت به وسيلة نزل إلى التي دونها، إنه مثابر لا يمل أبداً، الثقة بالنصر نور فيه. إن الداعية الحي يترقب الفرص ويسعى إليها ولا ينتظر مجيئها إليه، من سماته الجدية حيث يعمل بصمت ليس بالمنان ولا بالمعجب أنه يعمل يده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إنه يعمل ببصيرة نافذة قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إنه عظيم الأثر إنه أمة كاملة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. أي عمله عمل أمة.



منهج الدعوة السائرين

١- على الداعي أن يتحرى الإخلاص في عمله فيكون قصده وجه الله والدار الآخرة كما جاء في الصحيحين «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث المشهور فيحاسب النفس ويعالج النية ويحافظ عليها خوفاً من الشطط من حب الظهور والرياسة والمال فإنها سهام تُرمى بها النية الحسنة فتمرّض ثم تموت، فيكون العمل هباءً منثوراً، نسأل الله العافية.

٢- التحلي بمحاسن الأخلاق وكذلك يتحلى بالصبر وبُعد النظر وأن لا يفارق الأمل قلبه ولا الابتسامة محياه، فهناك تأنس النفوس البشرية فتقبل ما معك من الحق.

٣- صاحب الدعوة يدفع بالتي هي أحسن وليس بمنتقم ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فتحمل الإيذاء والسخرية كان من دأب المخلصين في الدعوة وفي سبيلها، فهذا رسولكم أخرج في سبيلها، عاداه قومه في مكة وأدميت أقدامه في الطائف، وشجت رأسه الشريف في المدينة.

٤- أن تبدأ بأقرب الناس لك ومن لديه استعداد للاستجابة ثم الذي يليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فكثر الأنصار في بيته في عمله في سوقه في مدرسته وهكذا حتى يشتد عودُ الدعوة في نفسه وعند الآخرين وبالله التوفيق.

٥- ألا ينظر إلى المخالف نظرة اليأس من إصلاحهم، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فالله يقلب القلوب والأبصار كما يشاء والهداية من الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصص: ٥٦].

٦- توجيه الدعوة إلى كل طبقات المجتمع حسب الاستطاعة، فلا يخص فئة ويترك الآخرين، فلعل هذا الذي تزهد فيه يجعل الله فيه خيراً كثيراً، فدعوتنا لكل

الأجناس للأحمر والأسود للشرقي والغربي، فلعل هذا الخادم عندك كبير قوم في بلده وله أثر هناك من الواجب ألا تتخطاه الدعوة فهي دعوة رحمة كالغيث.

٧- المدعوون طاقات مختلفة، الحكيم من يوظف كلاً حسب إمكانياته فيشعر المدعو أنه قدم عملاً جليلاً فيزيد رسوخه في الحق عندما يجد التشجيع والثناء على عمله وإن كان في نظرك أنه بسيط فلا تُسفه أي عمل فهو بذرة في طريق الخير.

٨- قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] التواضع مهما قدمت من عمل وعدم السخرية من الآخرين فإن احتقار أصحاب الرياسات والمناصب يوغر صدورهم ضدك فتزيد الشقة بينك وبينهم فتكون سبباً في بعدهم عن الحق.

٩- الهدية لها دور في نشر الدعوة، حث على ذلك الشرع «تهادوا تحابوا...» والهدية تنم عن تقدير للمهدي إليه ورفع مكانته، فلعل الله يفتح قلبه.

١٠- كرر الدعوة مرات عديدة فأنت لا تعرف متى يفتح هذا القلب اليوم أو غداً، الله أعلم، عليك أن تواصل الجهد واعلم أن أجرك محفوظ عند ربك.

١١- الداعي الحكيم من ينزل الناس منازلهم ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة^(١).

١٢- إن المخالف واقع في مشكلة ومرض هو أحياناً كثيرة لا يحس به، فتعامل معه برفق.

١٣- احتفاظ الداعي بعزته وكرامته قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦] وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ الآيات أيها الداعي ابحث عن حقل آخر.

(١) وابحث في السيرة للاستزادة.

١٤- الداعي بعيد النظر عفا اللسان والجنان نسي للماضي المظلم عند الآخرين خاصة إذا كانوا مقبلين تائبين .

١٥- الداعي الناجح لا يصدر أحكاماً على عباد الله إذا لم يستجيبوا لدعوته فبعض الدعاة لا يخلو من الطعن : هذا أبوه كان فاسقاً، وهذا والدته رافضة، وهذا عشيرته ما تعرف الله أصلاً، وهكذا فهذا المسلك ينفر الآخرين من الداعي وخاصة ممن يسير معه فيخاف أن يناله سوط لسانه بأي زلة فيؤثر الهروب ابتداءً .

١٦- الداعي الناجح كل يوم يتقدم ويستفيد من المواقف التي تمر، به فلا يكرر الأخطاء، فيتعلم منها ولا يستنكف عن أخذ الفائدة من الكبير والصغير، وحتى أحياناً من الجاهل، هناك مواقف يستفيد منها الناجح عندما يشاهدها على أرض الواقع .

١٧- الداعي الناجح يشخص ويحدد الداء في المدعويين، فهو طبيب القلوب والأرواح .

١٨- الموفق يزيل الشبهات ويقمع الشهوات التي تمنع المدعويين من رؤية الداء والإحساس به .

١٩- الناجح يتعهد المستحيين من الدعويين، بالتربية والتوجيه والاتصال بكتاب الله وتدبره والاتصال كذلك بالسنة النبوية وسيرة السلف من الصحابة .

٢٠- الداعي يرغب المدعويين ويشوقهم إلى استعمال الدواء والاستجابة وقبول الحق والثبات عليه .

٢١- ثق في نصر الله وأن الدعوة ستنصر فلا تخش على الدعوة من الضياع قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْخَفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ولكن ليخش كل واحد على نفسه، أما سفينة الدعوة فهي سائرة والسعيد من وجد له مقعداً فيها .

كيف ندعو؟

١- يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] .

٢- ندعو بكل وسيلة مشروعة وبأسلوب فيه الحكمة والموعظة الحسنة ترغيباً وترهيباً، وهذا خاصة في الدعوة القولية .

يقول البدر العيني: «الحكمة تحتاج إلى علم دقيق بأسرار الحياة وطبائع النفوس وأوضاع المجتمع وقد أمرنا الله تعالى سبحانه وتعالى بتعلم الحكمة وكيف لا وقد أرسل الله رسوله ﷺ بها هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] .

بل إن كل رسول ونبي ما أرسله الله إلى قومه إلا وآتاه الحكمة ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] .

يقول تعالى لعيسى عليه السلام: «وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» .

ويقول عن داود: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وعن لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢] .

٣- الدعوة بالمجادلة بالتي هي أحسن، وخاصة عند مناقشة بعض الأفراد .

٤- ندعو عن طريق الكتاب والرسالة، والشريط الإسلامي .

٥- ندعو عن طريق العلاقات الشخصية والصداقات .

٦- ندعو عن طريق الهدية الخالصة لوجه الله والمحبة فيه .

٧- ندعو عن طريق وسائل الإعلام العصرية بكل كفاءة وعلى قدر المستطاع [الإذاعة - الصحافة - المحطات الفضائية]، وذلك لإبلاغ دعوتنا للآخرين .

٨- الدعوة بالمال لتأليف القلوب وجمع الناس على الحق كما قال ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبّ في النار على وجهه»^(١).

* * *

(١) البخاري مع الفتح (١/٧٩).

أين ندعو

ليست الدعوة محصورة في مكان محدد بل إنها في كل مكان ملائم وعلى هذا النهج قام الأنبياء ومن سار على دربهم فمن أماكنها الأماكن العامة التي ينتشر فيها الناس، في المساجد - والأسواق - والديوانيات - والمخيمات التي يرتادها الشباب في البر، فكم من شاب هداه الله على يد داع مخلص جاءه في عقر داره، وذلك الشاب ممسك بآلة اللهو، فتاب وتاب الله عليه وصلاح حاله .

بل في صالات الأفراح التي يغشاها الرجال والنساء، وما أكثر المناكر فيها: أما من مخلصين يأخذون بأيدي هؤلاء الغافلين، فإن في أكثرهم خيراً وهم بحاجة إلى التذكرة ولعلمهم يهتدون؟ .

إلى متى ونحن ندعو:

كفعل يعقوب عليه السلام ، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «فقال لنبيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾» .

ندعو عند الغرغرة . . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» .

بل لو استطعنا لدعونا الناس بعد مماتنا . . .

كما فعل العبد الصالح في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا

أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَاتَاكَ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ
عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِيَّتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ [يس : ٢٠ - ٢٧].

* * *

التعريف قبل التكليف

أخي العزيز: إن التكليف لابد وأن يسبقه تعريف ولذلك قال تعالى يخاطب رسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [مَحَمَّد: ١٩] فالعلم هنا سبق التكليف: تعريف بالله أولاً ثم العمل تكليف واستغفار، فإن المرء إذا عرف مولاه معرفة حقيقة خالية من الشرك والانحراف وَصَدَقَ في اتباع منهج النبوة ظُنَّ له الفلاح في الدارين قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣١] .

وجاء في الكتاب العزيز مواقف يكاد العقل لا يصدقها لو لم تكن فيه، فمنها:

١- إن نوحاً ﷺ صنع الفلك في أرض صحراوية وقومه يسخرون منه ويرمونهم بالسفه والجنون، سفينة على اليابسة تضييع للوقت وعبث وسفه في نظرهم وكأنني بهم يقول بعضهم لبعض: انظروا إلى هذا! ..

وماذا يصنع؟ لكن نوح ﷺ عنده يقين أن هذه السفينة سوف تجري لكن كيف؟ الله أعلم قال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هُود: ٣٨] .

٢- الموقف الثاني: إبراهيم ﷺ أسكن في مكان خالٍ بعض ذريته قال تعالى: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٨] قالت زوجته الصالحة: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا.

٣- وحين رأى إبراهيم في المنام أنه يؤمر بذبح ابنه كان جواب الابن ﷺ: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ أَطِيعْتُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

٤- موقف رابع : أم موسى عليها السلام تلقي بلفذة كبدها في اليم، حين خافت عليه طاعة لله، الْحَرَمَ رَبِّيَ لَقِيمُوا الصَّلَاةَ جَعَلَ أَفْئِدَتِ النَّاسِ هَوًى إِلَيْهِمْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [القصص: ٧] .

٥- موقف خامس : قوم موسى عليها السلام يشكون قلة العدد وخوف الهلاك قَالَ وَصَنَعُ الْفُلُوكُمْ مِمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ خُرُوءًا مِنْهُ قالها عليها السلام لأنه عالم بالله أنه لن يترك جنده، فكان النصر كما تعلمون.

فلاحظ في هذه المواقف أن المعرفة بالله والثقة به كانت دافعة إلى تنفيذ الأوامر وإن لم تظهر لهم الحكمة في الحال.

* * *

المرأة الداعية كيف تنجح^(١)؟

لمحات يسيرة فيما يجب أن تكون عليه لتنجح دعوتها إلى الله في عشرين مضيئة .

١- الداعية الناجحة قرءة عينها في الصلاة قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» .

٢- الداعية الناجحة تظهر الود لكل واحدة من أخواتها حتى تظن كل واحدة منهن أنها أحب الأخوات إلى قلبها .

٣- الداعية الناجحة عرفت الحق فعرفت أهله وإن لم تصورهم الأفلام أو تمدحهم الأقلام قال تعالى: ﴿تَرْتَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] .

٤- الداعية لا تنتظر المدح في عملها من أحد إنما تنظر في عملها هل يصلح للآخرة أم لا يصلح! .

٥- الداعية إذا رأت اختاً مفتونة لا تسخر منها وشعارها «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» .

٦- الداعية تعطي حق زوجها كما لا تنسى حق دعوتها .

٧- الداعية مصباح خير وهدى في دروب التائبين . . . تحرق نفسها في سبيل الله «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم» .

٨- الداعية تحقق العلم على أرض الواقع، كان خلق رسول الله ﷺ القرآن فهي تعلم أن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر .

(١) من كتاب كلنا دعاء . أحمد العلاف الغامدي (بتصرف يسير) .

- ٩- الداعية تبحث عن الوسائل الجديدة والمشوقة في تبليغ دعوتها.
- ١٠- الداعية تعلم أن المال قوة، فلا تسرف في مطالبها لكماليات المنزل ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يُتَابَتُ أَعْمَلُ﴾ [الفرقان: ٦٧] .
- ١١- الداعية تمارس الدعاء للناس، وليس الدعاء عليهم، لأن القلوب الكبيرة قليلة كما في قوله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».
- ١٢- الداعية تكون دائماً على التأهب للقاء الله وإن نامت على الحرير والذهب.
- ١٣- الداعية يجتمع فيها حسن الخلق فهي ودودة كريمة جوادة.
- ١٤- أولادها مؤدبون، دعاة، قدوة، تربوا في بيت دين وعلم.
- ١٥- الداعية منضبطة تعرف متى تزور ومتى تزار حريصة على وقتها ليست بخيلة بزمانها وليست ثقيلة فتمل ولا خفيفة فيستخف بها.
- ١٦- الداعية تسعى إلى تزويج أخواتها في الله، لأنها تعلمت من حديث النبي ﷺ أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً فلا تترك أخواتها للههم والوحدة والأحزان، ولا تهدأ الأخت حتى يتم لأختها الخير والسعادة.
- ١٧- الداعية إن وقع عليها بلاء كغضب زوج، أو إيذاء جار تعلم أن ذلك وقع لذنب سبق فعلها التوبة والاستغفار.
- ١٨- الداعية لا تنسى الفقراء وهي تلبس ولا تنسى المساكين وهي تطبخ ولا تنسى الأرامل وهي تشتري حاجياتها.
- ١٩- الداعية تنقل الأخوات من الكون إلى مكوّنه، تُفكر في مخلوقات الله في هذا الكون مما يزيد الإيمان.
- ٢٠- الداعية توصي أخواتها ألا يعارضن سنن الشرع والحياة.

كيف تجمع القلوب؟ (الخلاصة)

١- إشعار من تدعوهم بأنك لا تريد منهم جزاء ولا شكوراً إنما تريد لهم الفلاح وتريد الله والدار الآخرة ونعيمها، أنت عنده إذن صاحب مبدأ ودعوتك بريئة ونزيهة فيقبل عليك قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] .

تكرر هذا الخطاب على السنة كثير من الرسل .

٢- إشعار المدعو بأنك حريص عليه تحب له الخير وبينك وبينه أخوة فيها الرحمة والعطف والثقة بالله تعالى، ألم تر ما قاله كل رسول ونبي لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] .

فهو الأخ الوجل عليهم ﴿وَإِلَىٰ قَالٍ وَصَلْنَا لَوْلَا كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ خِرُوءًا مِنْهُ قَالِ إِنِّي تَسْخَرُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] والآيات في هذا الباب كثيرة جداً.

٣- الملاطفة والرقّة في المعاملة لعل الله يفتح قلبه .

قال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(١).

وليتذكر الداعي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: حالكم كحال هؤلاء من البعد عن الله ولكن الله منّ عليكم وجعلكم مسلمين، فتذكروا حالكم السابقة وتلطفوا، ورفقوا للناس، وابتعدوا عن الغضب حين تخالطونهم... فاسمع إلى نداء إبراهيم لأبيه، فلم يقل له: يا كافر أو يا مشرك كما يقول بعض الشباب اليوم ولكنه يقول: ﴿مِنَ الْإِسْجُودِ وَإِلَىٰ قَالٍ وَصَلْنَا لَوْلَا كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ خِرُوءًا مِنْهُ قَالِ إِنِّي تَسْخَرُونَ﴾ [مريم: ٤٢] فذكره برباط الأبوة التي تشعره

(١) البخاري (١٠ / ٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١٨).

بحرص الابن على أبيه فتدفعه إلى تقبل ما يسمع لحرصه عليه .

واسمع لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه فيقول: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فإن كان إبراهيم عليه السلام يستشير أباه برباط الأبوة، فإن لقمان يستشير همة ابنه برباط البنوة التي تحرص على الولد وتتمنى له الخير .

وها هو ذا كل من هود، وصالح، «ينادي كل منهما قومه» ﴿وَإِلَى قَالِصَنْعِ أَفْلَوكُكُلْمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ خِرُوءًا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي مَكِيدٌ لَكُمْ وَلَئِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ بَنِينَ وَأَخَوَهُمْ، لِيَكُونَ كَلَامُهُ أَحَبَّ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَقْرَبَ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَالنَّدَاءَاتِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا النُّوعِ كَثِيرَةٌ لِمُشَارَةِ الْهَمِّ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، يَا أَيُّهَا النَّاسُ» .

٤- لا تتألى على الله :

إن بعض الناس وهم يدعون الناس للخير يسمح لنفسه أن يتألى على الله فيحكم بحرمان مسلم من مغفرة ربه وينصب نفسه قاضياً يحكم في تصرفات الخلق فيكفر هذا، ويبدع هذا لمجرد أنه لم يسمع كلامه، لكن الواجب أن يتهم المرء نفسه : لعنني لم أوصل المعلومة الصحيحة .

واسمع إلى الإمام مسلم يروي وهو يقول : «قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى على ألا أغفر لفلان، إني غفرت له وأحببتُ عملك»^(١) .

٥- ليكن قلب الداعي من أوعية الحب ونفسه ترغب في ستر العاصي :

إن من مهمة الداعي الأساسية تطهير نفسه من الغيظ وشهوة الانتقام من مخالفة في دعوته يقول تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ هُمْ أُولَئِكَ عَلَى رَبِّكَ أَعْيُنٌ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ هَدَى﴾ [الممتحنة: ٧] .

(١) مسلم (٢٦٢١) .

وكذلك على الداعي العاقل أن يستر العاصي ولا يفضحه لكن يعينه على ترك المعاصي بفتح باب التوبة له ﴿وَعَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمٍ يَخْرُؤُا مِنْهُ قَالُوا تِلْكَ خُرُوءًا مِنَّا فَاثْلَحُونَا كَمَا تَسْخَرُونَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ﴾ [الرؤم: ٥٣] .

٦- إنزال الناس منازلهم:

كان رسول الله ﷺ ينزل الناس منازلهم فكان يوقر الكبير ويعطف على الصغير ويكرم من كان له سبق في الإسلام.

ذكرت كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين طلب الجوار من الحليس بعد عودته من الطائف رفض، فطلبها من سهيل بن عمرو فرفض، ورحب المطعم بن عدي فدخل رسول الله ﷺ في جواره (حمایته).

فلم ينس رسول الله ﷺ للمطعم هذا الموقف النبيل وإذا به يتذكره يوم بدر يوم أن وقع عدد من المشركين أسرى في يدي رسول الله ﷺ، يتذكر فضل المطعم يوم عودته من الطائف، فيقول ما معناه: «والله لو أن المطعم حياً وطلب مني فك أسرهم لأجبت» إنه ينزل هذا المشرك حتى بعد موته منزلته، انظر إلى الأخلاق العالية له ﷺ والموقف الآخر قال العباس يا رسول الله: إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وذلك يوم فتح مكة.

٧- الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان بها:

النصيحة طعمها مرٌّ أحياناً، وقد تنقلب إلى فضيحة، فمن شروط النصيحة الإخلاص فيها لله تعالى، وسترها عن الخلق.

أخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت مع عمر في حج أو عمرة.

فإذا نحن براكب فقال عمر: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل فبكى، قال: ما

شأنك إن كنت غارماً أعناك، وإن كنت خائفاً آمناك إلا أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وإن أبا موسى جلدني وسود وجهي وطاف بي في الناس وقال: لا تجالسوه ولا تؤاكلوه، فحدثت نفسي بأحد ثلاث: إما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام، فإنهم لا يعرفونني، وإما أن ألحق بالعدو فأكل معهم وأشرب، فبكى عمر، وقال: ما يسرني أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية، وإنها ليست كالزنا وكتب إلى أبي موسى: سلام عليك أما بعد، فإن فلاناً بن فلان أخبرني بكذا وكذا، وإيم الله، إني إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه، فإن تاب فاقبلوا شهادته، وحمله وأعطاه مائة درهم.

٨- تأليف بعض القلوب بالهدايا:

قال الإمام البخاري بسنده حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرنا عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إلى: فقلت يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال: أو مسلماً، فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتني فقلت: مالك عن فلان؟ فوالله إن لأراه مؤمناً فقال أو مسلماً ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتني، وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار^(١).

وحاصل القصة السابقة أن النبي ﷺ كان يعطي لمن أظهر الإسلام تأليفاً وخوفاً

(١) البخاري مع الفتح بنحوه/ كتاب الإيمان (٧٩/١)، ومسلم في الإيمان (١٣٢/١).

عليهم من الفتنة والردة، فيكونون من أصحاب النار، فأين هذه الحكمة عن بعض شباب اليوم ودعاته؟ فإن بعضهم يوزع التهم، ويرمي الناس بعظائم الأمور من غير تثبُّت: قال فلان، وشاهد فلان.

٩- أن تعطي المدعو وجهك ولا تقاطعه ولا تستهزئ بقوله:

فلا شك أن أدب الداعي وأخلاقه يجذب المستمع ويملك قلبه، فإذا رأى كل هذا الاهتمام والرفق به ثبت وأحب، فالمخلص ينتقي كلماته انتقاءً لعلها تجد أذنًا سليمة عند المدعو فلا إزعاج أو إيذاء، ويكسب موقفًا ويترك أثرًا، روي الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «ما كان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسر دكم هذا، يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه» وفي رواية أبي داود «كان كلام رسول الله ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه».



الرسالة السابعة

«من صفات أولياء الرحمن...»

جمع وإعداد/ أبي مصعب
سعيد بن عماش السعدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنه ظهر في كتاب الله العزيز وسنة نبيه الأمين ﷺ أن لله أولياء وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان!! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] والآيات في الباب كثيرة .

إن لولاية الله تعالى مكانة عظيمة ومرتبة عالية مرموقة لا تتحقق إلا بأمور:

منها: تفضل منه سبحانه وتعالى فيخص بولايته بعض عباده المتقين قال تعالى: ﴿يَخْنُصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

ومنها: معرفة الحق بيقين كالجبال، ولا تكون معرفة الحق إلا في مظانه والأخذ بالأسباب المؤدية إليه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، الصديقة (مريم) في حالة وَضَعُ تُؤْمَرُ بهز جذع نخلة كبيرة، أخذاً بالأسباب، فالعجب ممن يريد السلعة الغالية (الجنة) وهو جالس على أريكته.

ومنها: اتباع الحق بثبات وبصيرة، وما كان إبليس الرجيم غافلاً، ولا قليل معرفة بالله تعالى، مع العلم أن هذا يحتاج إلى تعدي حواجز كثيرة بثبات وثقة بالنفس؛ فحواجز الشهوات [المال، الجاه، النساء...] بأنواعها، تحتاج إلى جهاد طويل حتى تقهر النفس الجموح، وتخضع إلى الضوابط الشرعية، وكذلك حواجز الشبهات أخطر وأعظم، والمعصوم من عصمه الله.

وفي الحقيقة أذهل الحكماء والبلغاء هذا المدح من الجبار لبعض خلقه فأخذ بعضهم يتتبع تلك الينابيع الفياضة لعلمهم يشربون منها، ويرتعون برياضها الغناء.

فحاولت متقرباً إلى الكريم المنان جمع بعض تلك المدائح تسهيلاً لطريق السالكين، مستلهماً قول المصطفى ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(١).

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وقد اخترت سبع سور كريمة جاء فيها ذكر بعض صفات أوليائه
المتقين [البقرة - آل عمران - الأنفال - المؤمنون - الفرقان -
الذاريات - المعارج] وقد راجعت كتباً عدة في التفسير ظهرت من
خلالها تلك الصفات المشرقة والتي تجلت بأبهى حلة تسر الناظرين،
وكذلك بعض ما كتب في هذا الباب من المتقدمين .

أرجو المئان الكريم أن يقبله خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعلنا
وإياكم منهم، إنه ذو الفضل العظيم .



توطئة

معلوم أن كمال الإنسان كما قرره المحققون يقوم على أصليين:

الأصل الأول: معرفة الحق من الباطل.

الأصل الثاني: وإيثار الحق على الباطل.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثنى رب العزة بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوة المنفذة للحق، والأبصار: البصائر في الدين.

فسبحانك ربي لك الحكمة البالغة خلقت وصورت وبريت، فجعلت الاختلاف بين المخلوقات من سنن صنعك، فريق في الجنة وفريق في السعير، أولئك أولياؤك رفعت مكانتهم في دار الدنيا قبل الآخرة فأخرجتهم من الظلمات المهلكة إلى النور الرباني الواحد، أما هؤلاء لدون منزلتهم أشير لهم بذلك فالبعد لهم لأنهم استحبوا الضلال على الهدى بعد ما أقام الله تعالى الحجة عليهم فمكنهم وأعطاهم من وسائل الهداية على ما مثله استقام الآخرون ولكنهم تنكبوا الطريق وجعلوه وراءهم ظهرياً.

إن الاختلاف بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان قديم قدم الخليقة نفسها وذلك لحكمة ربانية بالغة، ففي كثير من السور الكريمة

بنزغ نجم الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله تعالى ورسله المبعوثين رحمة للعالمين ، وأفل نجم أولياء الشيطان وإن كانوا أوقدوا حوله النيران . إن صفات أوليائه ذكرها تعالى فضلاً منه في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ثناءً منه عليهم ونبراساً للسائرين .

وفي الحقيقة أن جند الحق يضمهم موكب مشرف وضاء في طليعته الأنبياء والمرسلون ودعاة الإصلاح الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر في كل زمان ومكان .

ويحسن بنا قبل مناقشة الموضوع أن نتعرف على كلمة (الولي) لغةً وشرعاً . . .

الولي من ناحية اللغة : اسم من الولي . . . والولي هو القرب والدنو ويطلق على النصير ، والصديق والمحب لقربه ودُنُوهِ من صديقه أو نصيره ومُحِبِّهِ ويقال : إن فلاناً تولى أمر فلان ، أي تعهده بالرعاية والتربية .

وشرعاً : الأولياء الحقيقيون هم الذين أحبوا الله فأفردوه بالعبادة الخالصة وأحسنوا التوكل عليه واتخذوه وحده ولياً لهم ونصييراً كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وهم لا يعلنون عن أنفسهم لأن الولاية الحقة إنما تكون في القلوب إيماناً وتقوى . ولا يظهر لها آثار معروفة أو ملموسة إلا الاستقامة والحب لله ورسوله ، والانقياد لأوامر الدين والاجتناب لنواهيه .

فهم الذين آمنوا بالله إيماناً صادقاً ، وعرفوه حق المعرفة فتمسكوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وعملوا الصالحات ابتغاء مرضات الله وتركوا السيئات مخافة غضبه .

وهم الذين آمنوا بسنن الله الكونية، ومنها الأخذ بالأسباب والتوكل على الله فساروا في دنياهم على هدى هذا الإيمان.

وهم الذين عرفوا دين الله على حقيقته، فتولّوه بالنصر والتأييد فبلغوه للناس بأمانة وحق كما أمر الله تعالى، ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم مهما أصابهم في سبيل ذلك من إساءة وأذى لاعتقادهم أن ذلك اختبار وتمحيص لإيمانهم.

فلما كانت هذه حالهم أحبهم الله فتولاهم فأخرجهم من الظلمات الكثيرة، ظلمات الجهل والشرك والشهوات المحرمة وحب الدنيا المطفئي والبغي والتعدي على الحدود الشرعية فأصبحوا على بصيرة كضوء النهار ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْذَ وَلِيٍّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فالله تعالى ليس له ولي من الذل بل لله العزة جميعاً خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذلّه وحاجته إلى ولي ينصره.

كيف فهمت الولاية؟

يفهم بعض الناس اليوم الولاية فهماً يخالف حقيقتها ومعناها فإنهم لجهلهم بأمور الدين وعدم معرفتهم لحقيقة الولاية نسبوا الأمر إلى غير أهله فأطلقوا لفظ الولي على من لا يستحق من الخاملين الذين

عطّلوا عن العمل والسعي بحجة التوكل والزهد والانقطاع للعبادة .

وادعوا تطليق الدنيا بالثلاث وهذا خلاف المنهج الصحيح قال تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٧٧] .

فالإسلام لا يأمر الإنسان بالتعطل والانقطاع في البيت أو العكوف والتبتل في المساجد للعبادة وترك السعي إلى كسب الأرزاق بحجة التوكل على الله ، فالرسول ﷺ حضّ المسلم على العمل في أي مهنة حتى لا يذل نفسه فقال : «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب ويبيعه فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس» رواه البخاري ومسلم بنحوه .

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

أغرب من ذلك من ينتقد المسلم العامل النشط بالتجارة والأعمال الحرة المباحة : بحجة أنه مسلم من المفترض أن يلزم المسجد .

والحقيقة أن المسلمين اليوم بأمس الحاجة إلى الدكتور المسلم والمهندس المؤمن الأمين .

المؤمنون بعضهم أولياء بعض :

والمؤمنون يتخذ بعضهم بعضاً أولياء ، وولايتهم لبعضهم هي أن يتناصروا فيما بينهم في سبيل إحياء دين الله وإظهار الحق وإعلاء كلمته

والدفاع عن عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك ومقاومة البدع والخرافات المنتشرة في الناس باسم الدين، وأن يعاون بعضهم بعضاً فيما يعود عليهم بالخير، وأن يكون حبه لله هو أسمى غاياتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثِّمُونَ الصَّالَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحة، فلا يميزون بلبس دون لباس ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره لا يميزون إلا بالإيمان الذي خالط قلوبهم، فظهرت الحكمة والرأي الصواب الموافق للحق، ويدل على هذا قول قيس بن طارق رضي الله عنه: كنا نتحدث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه ملك. وكان عمر رضي الله عنه يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة. وعمر رضي الله عنه نفسه يشاور الصحابة وينظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويقرّ على منازعته ولا يقول: أنا مُحدث أنا ملهم أنا مُخاطب. ولكن للأسف كيف من يدعي الولاية ويقول الطامات التي تخالف الشرع، وهو وأتباعه على ضلالهم سائرون قد قادهم الشيطان بالأمانى الكاذبة.

مع العلم أنه ليس من شروط ولي الله أن يكون معصوماً فلا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشبهه عليه بعض أمور الدين.

لا يتخذ المؤمنون أعداء الله أولياء :

وقد نهى الله جل شأنه المؤمنين أن يتخذوا أعداءه من الكافرين والمشركين أولياء، يتوددون إليهم لجلب منافع شخصية أو غيره ويستعينون بأفكارهم ونظمهم في الحياة ويناصرونهم ضد إخوانهم المؤمنين الذين يعملون لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق. وغير ذلك من كافة أنواع التعاون والمناصرة. خلافاً لما يحبه الله ويرضاه، وهؤلاء يقول الله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] ويقول جل وعلا: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١].



أدعياء الولاية

هناك أمور كثيرة من مُحدثات الصوفية ألبسوها ثوب الشريعة وجعلوها للشريعة مقابلاً سَمَّوه الحقيقة، فالشريعة هي الممثلة في الأحكام الفقهية التي يسير عليها العامة أما الحقيقة فهي زندقة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود. وهذا باطل من القول وزور فإن الإسلام لم يأت بحقيقة يختص بها قومٌ دون آخرين بل الإسلام جاء للناس جميعاً، وليس من الحقيقة أن الله يحل في الكائنات أو يتحد بها وإنما هو من الكفر السحيق. ومما كان يقوله الدسوقي لمريد: «... وإن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وقال لي رسول الله ﷺ: يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان. ففعل مالك ما أمر به ورضوان ما أمر به... إلخ» وهناك ما هو أغرب منه^(١).

ومن ذلك ما ينسب إلى أحمد الرفاعي شيخ الطريقة:

لي همة بعضها تعلو على الهمم	ولي هوى قبل خلق اللوح والقلم
أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت	والأرض في قبضتي والأوليا خدمني
فالجأ بأعتاب عزي والتمس مددي	وطف ببابي وقف مستمطراً نعلي ^(٢)

وهناك من الأمور والخوارق التي ما أنزل الله بها من سلطان بل ناقضة للإسلام والإيمان، كلها تقال بدعوى الولاية المارقة.

(١) «صراع بين الحق والباطل» لصديق سعد (ص ٢٤).

(٢) الكشف عن حقيقة التصوف. محمود عبد الرؤوف.

بعض ما خُصَّ به الأولياء

- ١- كلام الله ورؤيته يوم القيامة: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ﴿وَجُوهٌ يُّوَمِّدُ نَاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢ - ٢٣].
- ٢- الود والمحبة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].
- ٣- مكانة عالية في الدارين: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
- ٤- كرامة وعزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين: ٨].
- ٥- معية خاصة دون الخلق: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
- ٦- آمْنهم من الخوف والحزن: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ٤٨].
- ٧- يدافع عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].
- ٨- الفضل والأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].
- ٩- أمر ملائكته بتبشيرهم: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].
- ١٠- استغفار حملة العرش: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].

١١ - يعطيهم نوراً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

١٢ - الهداية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

١٣ - الشفاعة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] يعني: قول لا إله إلا الله.

١٤ - البشرى: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

١٥ - إصلاح الأعمال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وهناك فضائل وخصائص تفضل بها الله تعالى على أوليائه لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

دفاع الله عن أوليائه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قال ابن حجر رحمته الله: قد وقع في بعض طرقه أن النبي ﷺ حدث به عن جبريل عن الله عز وجل وذلك في حديث أنس.

قوله: «من عادى لي ولياً» المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وقد استشكل وجود أحد يعاديه حيث من شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه لكن قال ابن حجر رحمته الله: قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر الصديق والمبتدع في بغضه للسنّي، والفاسق المجاهر يبغض الولي لإنكاره عليه وملازمته لنهيهِ عن شهوته.

«فقد آذنته» أي: أعلمته والإيذان الإعلام.

«بالحرب» في رواية «بحرب» وفي حديث ميمونة: «فقد استحل محاربتني» وفي رواية معاذ: «فقد بارز الله بالمحاربة» وفي حديث أبي

أمامة وأنس : «فقد بارزني» قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ : «في هذا تهديد شديد لأن من حاربه الله أهلكه . . .» ونقل أقوالاً أخرى منها : «لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة» .

«وما تقرب لي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه» يدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض الأعيان والكفاية كصلاة الجنازة مثلاً وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته وفي دخول ما أوجبه المكلف على نفسه كالنذر نظراً للتقيد بقوله : «افترضت عليه» إلا أنه أخذ من جهة المعنى الأعم ، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله .
«وما زال» وفي رواية : «وما يزال» .

«يتقرب» التقرب طلب القرب وقرب العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه ، ثم إحسانه .

ووقع في حديث أبي أمامة : «يتحبب إليّ» بدل : «يتقرب» .
«بالنوافل حتى أحبيه» وفي رواية «أحبه» قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ :
«ظاهره أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنوافل .
وقد استشكل بما تقدم :

أولاً : أن الفرائض أحب العبادات المتقرب بها إلى الله فكيف لا تنتج المحبة؟

والجواب : أن المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها ولا قيمة لنافلة إلا بعد أداء الفرض ويؤيده أن في رواية أبي أمامة «ابن آدم أنك لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك» .

وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى. إلى أن قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: فقد جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب كالهدية والتحفة بخلاف من يؤدي ما عليه من إخراج أو يقضى ما عليه من دين».

وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم: «انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته . . .» الحديث بمعناه فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها.

«فكنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وفي رواية عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «عينه التي يبصر بها». وكما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] فظهر توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقف ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه بصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده ومن السعي إلى الباطل برجله إلى أن قال بعضهم: لا تتحرك له جارحة إلا في الله ولله، فهي كلها تعمل بالحق للحق، فوافق سمع المخلوق لمراد الخالق وكذلك سائر الأعضاء.

«وإن سألتني» زاد في رواية عبد الواحد: «عبدي».

قوله: «أعطيته» أي: ما سأل «ولئن استعاذني لأُعِذَنَّهُ» والمعنى أعذته مما يخاف، وفي الحديث عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة

اللَّه للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وربّه ولا شيء أقرّ لعين العبد منها ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح.

«وما ترددت من شيء أنا فاعله...» الحديث .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة^(١)، وهو أشرف حديث روي في الأولياء، وقد ردّ هذا الكلام طائفة وقالوا: أن الله لا يوصف بالتردد. وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب.

والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحد أعلم بالله من رسوله ولا أنصح لأمته منه. ولا أفصح ولا أحسن بياناً منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوأهم أدباً بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم هذا باطل، فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة لا لجعله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه ويكره من وجه.

(١) الفتاوى (١٨/١٢٩).

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح «حَفَّتْ النار بالشهوات، وحَفَّتْ الجنة بالمكاره» وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦].

ومن هذا الجانب يظهر معنى التردد المذكور في هذا الحديث فإنه قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوباً للحق محباً له يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو محبها ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة بحيث يحب ما يحبه محبوبه ويكره ما يكرهه محبوبه والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه.

والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بد منه فالرب يريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مراداً للحق من وجه مكروهاً له من وجه، وهذا حقيقة التردد وهو: أن يكون الشيء الواحد مراداً من وجه مكروهاً من وجه وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين. كما ترجح إرادة الموت، ولكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته. . . هذا ما نص عليه شيخ الإسلام رحمه الله.

إيمان وعقيدة راسخة

﴿الْمَ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ ٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ١ - ٥].

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هاد للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه.

قال الحسن البصري: اتقوا ما حُرِّمَ عليهم، وأدوا ما افترضَ عليهم. ثم بين تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث، والجنة، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبرهم عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام.

فالعقل البشري طاقته محدودة، وعليه أن يتلقى العلم من العليم الخبير الذي يعلم الغيب والشهادة؛ وفي هذا احترام للعقل وهو ما يتحلَّى به المؤمنون ولذلك كثيراً ما يذكر الله تعالى الذين: يعقلون -

يتفكرون - يتذكرون، في خطابه لبني الإنسان كي تكتمل الصورة في الأذهان.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها وخشوعها فهم يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود، يتجهون بالعبادة لله وحده فيترفعون بذلك الفعل الكبير الذي فرضه عليهم ربهم تعالى بنفس راضية مطمئنة راجية لثواب مولاها الكريم. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال يتصدقون في وجوه البر والإحسان وتظهر قيمة هذا كله في تطهير النفس من الشح، وتركيتها بالبر والإحسان، فيعيش المجتمع في تعاون ومحبة فريدة يقل جنسها في المجتمعات الأخرى.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى، وبما جاءت به الرسل من قبلك فهذه هي من الصفات اللائقة بالأمة المسلمة وارثة العقائد السماوية، وارثة النبوات منذ فجر البشرية فتحمل حملها وترفع رايتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هذه السمة التي تربط الدنيا بالآخرة، والتي تشعر الإنسان أنه لم يخلق عبثاً، بل هذه الدنيا لها رباط مع الدار الآخرة، وأن الدنيا ابتلاء وهناك الجزاء الأكبر إلى إحدى الدارين، فالإيمان باليوم الآخر كان له نصيب في بداية الدعوة المحمدية لعظم هذا الأمر وما سترتب عليه بحيث تكون الدار الأولى امتداداً للدار الآخرة فتستقيم البشرية خاصة لمن أراد الله له النجاة.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المتصفون بما تقدم
من الصفات الجليلة على نور وبصيرة من الله.
﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالدرجات العالية في
الجنة.

ملخص صفاتهم في سورة البقرة الكريمة:

- ١- إيمان بالغيب وفي هذا مدح لهم لقوة إيمانهم.
- ٢- تأدية للصلاة بأركانها وشروطها.
- ٣- إنفاق في وجوه البر والخير.
- ٤- إيمان بما جاء به محمد ﷺ.
- ٥- إيمان بما جاء به الرسل قبل محمد ﷺ.
- ٦- العقيدة الراسخة باليوم الآخر.

* * *

زهد الدنيا . . . وحب الآخرة

قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات،
﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمون من الأعمال
الشاقة، ﴿وَالْقَنِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أي:
من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام
والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾
بِالْأَسْحَارِ دليل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن
يعقوب عليه السلام لما قال لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾
[يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر، وثبت في الصحيحين
وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة، أن
رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء
الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل
من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟...» الحديث، وقد
أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطني في النزول الرباني جزء، فرواه من
طرق متعددة، وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «مِنْ كُلِّ
الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره، فأنتهى وتره إلى
السحر»، وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما يصلي من الليل، ثم يقول:

يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح، رواه ابن أبي حاتم^(١).

ملخص صفاتهم في السورة الكريمة:

- ١- وُصِفوا بالصبر، وهو لفظ عام فهناك صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي وصبر على الأقدار.
- ٢- وُوصِفوا بالصدق فنعم المطية هو.
- ٣- وُوصِفوا بالقنوت: وهو طول القيام بين يدي الله تعالى.
- ٤- وُوصِفوا بالإنفاق في سبيل الله تعالى: فلم يسيطر حب المال على أنفسهم بل سخره في وجوه الإحسان.
- ٥- ووصفوا بالمتقربين المستغفرين وقت السحر.

* * *

(١) نقلًا عن تفسير ابن كثير (حسن التحرير للشيخ محمد الحمود النجدي).

أعمال صالحة . . . وجوائز ربانية

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون عليه ولا يصلون إذا غابوا، بخلاف المؤمن الحق إذا استمع إلى كلام ربه خاف وفزع فأدى فرائضه وفعل الأوامر وترك الزواجر وقد استدلل البخاري وغيره في هذه الآية على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه ولا يلوذون إلا بجنابه ولهذا قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله جماع الإيمان.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إقامة الصلاة وهي المحافظة على مواقيتها ووضوئها وتمام أركانها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قال عمرو بن مرة: إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقاً وفي القوم سادة.

ومن صفاتهم في السورة الكريمة:

- ١- قلوب خائفة وَجَلَّةٌ مع ما قدمت من الأعمال الصالحة وهذه الصفة الأولى.
- ٢- إيمان يتوقد ويزيد عند سماع القرآن الكريم وهذه الصفة الثانية.
- ٣- اعتماد وتوكل عليه وهذه الصفة الثالثة.
- ٤- أخذ بالأسباب المنجية من إقامة للصلاة وإنفاق في سبيل الله، فحصل بذلك أخذ الشهادة الربانية ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.
- ٥- وأعد الله لهم جوائز منها:
 - أ - درجات عالية في الجنة.
 - ب - مغفرة للذنوب.
 - ج - رزق كريم.

* * *

عشر آيات . . . ثم الجنة

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون ١ - ١١].

سورة المؤمنون من السور المكية سميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون» تخليداً لهم وإشادة بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوع محله القلب فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لأنه ملكها.

وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى الشيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا فلما نزلت الآيات الكريمة أقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم.

واختلاف الناس في الخشوع: هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها، على قولين، والصحيح الأول، ومحله القلب وهو أول عمل يرفع من الناس قاله عبادة بن الصامت.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال الضحاك: اللغو هنا الشرك، وقال الحسن: إنه المعاصي كلها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ الزكاة مأخوذة من زكى الشيء إذا نما وزاد ويقال زكاة الزروع والمال يزكوا إذا كثر وزاد ورجل زكي أي زائد الخير وهؤلاء المؤمنون أنفسهم وأيديهم مطواعة في بذلها بكل رضى وطمأنينة راجين ما عند الله من المثوبة والجزاء الجزيل.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ قال ابن القيم: إن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء كسائر ألفاظ القرآن الكريم . . . إلا قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وإنما عرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخرى كآيات الإحصان عموماً.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ قال الفراء: أي من أزواجهم اللائي أحل الله لهم لا يجاوزن ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ فسمى من نكح ما لا يحل له عادياً أي «معتدياً» ووجب عليه الحد لتعديه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قرأ الجمهور لأماناتهم بالجمع، وابن كثير بالافراد. والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاملة الناس، والأمانة أعم من العهد.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا من أهم صفاتهم: المحافظة على الصلاة وإقامتها والمبادرة إليها أوائل وقتها وتتمام ركوعها

وسجودها .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ أي : من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهم الوارثون وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ : أي يرثون منازل أهل النار من الجنة .
﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنت اللفظة على معنى الجنة .

ملخص صفاتهم في هذه السورة الكريمة :

- ١- شهادة لهم بالفوز والفلاح .
- ٢- خشوع في الصلاة .
- ٣- الإعراض عن فضول الكلام .
- ٤- تأدية للزكاة .
- ٥- حفظ للفروج من الحرام .
- ٦- حفظ للعهد .
- ٧- بعيثون عن التعدي والعدوان .
- ٨ - مراعاة للأمانة .
- ٩ - حفظ للعهد .
- ١٠ - محافظة على الصلاة في أوقاتها .

* * *

صفات عباد الرحمن

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ في سورة الفرقان لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة، ثنى بذكر عباده المؤمنين، وذكر صفاتهم وأضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم، يمشون بتواضع ووقار وبلا تجبر واستكبار ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء فقد كان ﷺ إذا مشى فكأنما ينحط من صيب.

﴿هَوْنًا﴾ الهون: مصدر الهين، وهو من السكينة والوقار، وفي التفسير يمشون على الأرض حلماً متواضعين قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] وقيل: لا يمشون لإفساد أو معصية أو تكبر على الناس.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ قال النحاس: ليس سلاماً من التسليم إنما هو من التسلم؛ تقول العرب: سلاماً أي تسلماً منك، أي براءة منك وقال مجاهد: معنى سلاماً سداداً. أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ فإذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ولا يقولون إلا خيراً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ قال الزجاج: بات

الرجل إذا أدركه الليل نام أو لم ينم، فهؤلاء في طاعته وعبادته ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، خائفين عذاب الله راجين رحمته .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يتضرعون إلى الله مع ما قدموا من طاعات، خائفين من عذاب الله يقولون ذلك في حالة سجودهم وقيامهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].
﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً غير مفارق قال الزجاج: الغرام أشد العذاب وقال: يعني الهلاك.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بسّ المنزل منزلاً وبسّ المقيّل مقاماً، يهوي في النار. يقولون ذلك عن علم حيث إنهم صدقوا بما أنزل في الكتاب الكريم من الوعيد والتهديد للمخالفين.
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ قال ابن عباس: من أنفق مائة ألف من حق فليس بسرف، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو مسرف ومن منع من حق عليه فقد قتر.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان وقتل النفس ومن الزنى، ومن الملاحظ بدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحليّ تشريفاً لهم ثم أعقبها بصفات التجليّ تبعيداً لها.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الأنفس محصنة ومحترمة، ومن تعدى إلى غير ذلك ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ والآثام في كلام العرب العقاب.
﴿مُهَكَّانًا﴾ معناه ذليلاً خاسئاً.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله ﴿وَأَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فإن الله يتوب عليه.

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال العلماء: فيه قولان أصحهما: إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنة. ما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم، واسترجع واستغفر، وينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره، وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبت بالسنة وصحت به الآثار المروية عن السلف عليهم السلام.

روى أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها هاهنا قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه» انفرد بإخراجه مسلم.

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نام ابن آدم قال الملك للشیطان: أعطني صحيفتك. فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنة فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة، ثلاثاً

وثلاثين تسبيحة فتلك مائة».

روى الطبراني وصححه الألباني عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال: «أسلمت» فقال: نعم. قال: «فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها». وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم» قال: الله أكبر، فما زال يُكَبِّرُ حتى توارى.

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْبُؤُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: أن الله يقبل توبته لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الكذب والباطل والزور، وكل باطل زور وزخرف وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد، ومجالس السوء، وأعياد المشركين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ اللغو: كل سقط من قول أو فعل فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها.

﴿كِرَامًا﴾ معناه معرضين منكبين لا يرضونه ولا يجالسون أهله، يقال: تكرم فلان عما يشينه أي: تنزه وأكرم نفسه عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع.

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قيل: أي: إذا تليت عليهم آيات

اللَّهُ وجلت قلوبهم فخرّوا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صمّاً وعمياناً، وقال الفراء: أي: لم يقعدوا على حالهم الأولى كأن لم يسمعوا.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا﴾ يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم ومن ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير ابن نفيّر عن أبيه - جبير - قال: «جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شهدته كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيئوه ولم يصدّقوه، أولاً تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم، مصدقين بما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشرف حال بعث عليها نبياً من الأنبياء، في فترة جاهلية ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا فُرَّةً أَعْيُنَ﴾. وهذا إسناد صحيح.

﴿فُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فيها أقوال: وأشهرها أن تكون من القرّ وهو الأشهر والقرّ: البرد لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح للبرد وقالوا: دمع السرور بارد ودمع الحزن سخن ويقال: أقرّ الله عينك وأسخن الله عين العدو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أئمة يقتدى بنا في الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع. وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية».

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الغرفة قال الضحاك: الجنة والدرجة الرفيعة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بصبرهم على أمر ربهم وطاعة نبيهم ﷺ فصبروا على الفقر في الدنيا وتحملوا الأذى من أجل هذا الدين، وقيل: بما صبروا عن الشهوات.

﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ التحية من الله والسلام من الملائكة، وقيل: التحية البقاء الدائم والملك العظيم، والأظهر أنهما بمعنى واحد وأنها من قبل الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ ذكر ذلك القرطبي.

﴿قُلْ مَا يَعْبُدُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: إنما خلقكم لعبادته ولا يبالي بكم إذا لم تعبدوه إنما خلق الخلق لعبادته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ : وما استفهاميه . ظهر في أثناء كلام الزجاج وصرح الفراء ، وليس يبعد أن تكون نافية لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهي نفي خرج مخرج الاستفهام كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] إلى أن قال : قال ابن الشجري : وحقيقة القول عندي أن موضع (ما) نصب والتقدير : أي عبء يعبأ بكم أي مبالاة يبالى ربي بكم لولا دعاؤكم .
﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ لِزَامًا ﴾ يعني : عذاباً دائماً لازماً هلاكاً مغنياً يلحق بعضكم ببعض .

ملخص صفاتهم :

- ١- التواضع .
- ٢- إعراض عن السفهاء .
- ٣- قيام بالعبادة وخاصة في الليل .
- ٤- التجاء إلى الله ودعاء أن يجنبهم جهنم .
- ٥- إنفاق في اعتدال .
- ٦- لا يدعون إلا ربهم .
- ٧ - لا اعتداء يصدر منهم .
- ٨- بعيدون عن الزنا .
- ٩ - بعيدون عن شهادة الزور .
- ١٠ - حافظون لأنفسهم من لغو الكلام .
- ١١ - متدبرون لآيات الله غير معرضين عنها .
- ١٢ - خصوا الزوجات والأولاد وتمنوا أن يصلحهم الله .

الإحسان في العمل

قال تعالى: ﴿كَأُنُوفًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَبْتَغُونَ ضَرْبًا مِّنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٩].

نعم قد بين الله إحسانهم في العمل قاله مجاهد وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً. وقال زيد بن أسلم: طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «لما قدم رسول الله صلوات الله عليه المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل فلما رأيت وجهه صلوات الله عليه عرفت أن وجهه ليس وجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته صلوات الله عليه يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحيح وغيرها من جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله صلوات الله عليه أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر».

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لما وصفهم الله

تعالى بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة. فقال سبحانه: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم. أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حق كما روى الإمام أحمد عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس» ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به. وأما المحروم قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو المحارب الذي ليس له سهم في الإسلام. يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين: هو المحارب الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب. «تفسير العلي القدير»



قلوب وجلة من خشية الله

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ . . . ﴾ الآيات

[المعارج]

يخبر تعالى عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الهلع ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: ينخلع قلبه من شدة الرعب وأيس من الخير ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ إذا اغتنى بخل ومنع حق الله الذي لعباده ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: الذين يحافظون على أوقاتها وواجباتها.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوقنون بالميعاد والحساب والجزاء فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يأمنه إلا الذين نفذوا أمر الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: يكفونها عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ سَمَى من نكح ما لا يحل معتدياً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: محافظون عليها لا يزدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: مواقيتها وأركانها افتتح بالصلاة وختمها بالصلاة لأهميتها.

ملخص صفاتهم في هذه السورة:

- ١- من أجل صفاتهم المحافظة على الصلاة.
- ٢- عرفوا أن للمحتاج حقاً في أموالهم.
- ٣- تصديق بيوم الجزاء.
- ٤- استولى الخوف من الله على قلوبهم.
- ٥- لا يأمنون مكر الله إذا خالفوا أوامره.
- ٦- حفظ للفروج من أن يدنسها الحرام.
- ٧- استفادوا من الأخذ بالحلال.
- ٨- من تجاوز الحلال أصبح معتدياً.
- ٩- حفظ للأمانات العامة والخاصة.
- ١٠ - لا يغدرون ولا يخونون.
- ١١ - تأدية للشهادة على أصولها لا مجاملة ولا محاباة.
- ١٢ - محافظون على الصلاة، بدأ بها وختم بها.

الجوهرة الثمنية

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾
[النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

اعلم رعاك الله ولاحظ في الآيات الكريمة التي ذكرناها وما جاء فيها من مدح لأوليائه أن الصلاة جاء ذكرها في الكل وأنها ركن متين وبناء منيف.

كيف لا تكون كذلك ومن ميزتها:

١- أنها افترضت في السماء بخلاف سائر التكاليف لعلو محاسنها وأهميتها.

٢- أن صاحب الرسالة ﷺ استدعى لها من الأرض إلى السماء لعظم المهمة.

٣- أن الله يحبها لهذا افترضها خمسين صلاة في اليوم واللييلة حتى خفف على هذه الأمة (خمس في العمل خمسون في الأجر).

٤- أنها علامة من علامات المتقين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾
[المؤمنون: ٢].

٥- أن تركها أوجحودها يُخرج من الملة «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه أحمد والترمذي .

٦- أنها لا تسقط بأحلك الظروف حتى في الحروب ولو التحمت الصفوف ولا في حالات المرض ما دام المكلّف مدركاً وجبت عليه الصلاة حسب التفاصيل الواردة في كتب الفقه .

فلتحرص على إعطاء الصلاة حقها من التكميل ظاهراً وباطناً «فإن لها تأثيراً عجبياً في دفع شرور الدنيا»^(١)، فما استُدْفِعَتْ شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجْلِبَتْ مصالحها بمثل الصلاة؛ فإنها منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطرودة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاق الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة، وهي حافظة للصحة، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، ممدة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان مقربة من الرحمن، وبالجمله فإن لها تأثيراً عجبياً في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما ودفع المواد الرديئة عنهما وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظّ المصلي منهما أقل وعاقبته أسلم وسرّ ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تُفتح عليه الخيرات أبوابها وتقطع عنه من الشرور أسبابها وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل والعافية والصحة والغنيمة والغنى والراحة

(١) نقلاً عن رسالة الصلاة الخاشعة للشيخ أحمد بن محمد الحواش .

والنعيم والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه .

واعلم يا أخي بأن للعبد بين يدي الله موقفين : موقف بين يديه في الصلاة وموقف بين يديه يوم لقائه ، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَلِيلٌ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿ [الإنسان : ٢٦ - ٢٧] .

فالمتمقون يقولون نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ﷺ : « يا بلال أرحنا بالصلاة »^(١) ولم يقل أرحنا منها وقال أيضاً ﷺ : « جعلت قرّة عيني في الصلاة »^(٢) فقرّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره إنما في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، ومما ينبغي أن يعلم أن الصلاة التي تقرّ بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد^(٣) :

المشهد الأول : الإخلاص :

وهو أن يكون الحامل عليه والداعي إليه : رغبة العبد في الله ومحبته له وطلبه مرضاته والقرب منه والتودد إليه وامتنال أمره واجتناب نهيه .

قال ابن القيم : « العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ

(١) رواه أحمد (٣٦٤/٥) وأبو داود (٤٩٨٥ ، ٤٩٨٦) .

(٢) أحمد في المسند (١٢٨/٣) والنسائي (٦١/٧) من حديث أنس .

(٣) كما ذكر ذلك الشيخ أحمد بن محمد الحواش الإمام والخطيب في جامع خميس مشيط جزاه الله خيراً .

جرا به رملاً يثقله ولا ينفعه».

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح:

وهو أن يفرغ قلبه ويتفرغ جهده في إقباله فيها على الله وجمع قلبه عليها وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهراً وباطناً فإن الصلاة لها ظاهر وباطن فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة وباطنها الخشوع والمراقبة.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء:

وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي ﷺ فيصلّي كما كان يصلي ويعرض عما أحدث الناس في الصلاة من السرقة والنقصان، والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله ﷺ شيء منها ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

المشهد الرابع: مشهد الإحسان

وبعد مشهد المراقبة وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه وتعالى فوق سماواته مستوياً على عرشه بائناً من خلقه يشهد قيوماً حياً سميعاً بصيراً حكيماً آمراً ناهياً يحب ويغضب لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها فإنه يوجب الإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والتوكل والخضوع والذلة له وتقطيع الوسوس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله تعالى .

عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَصْلِيَ الصَّلَاةَ مَا يَكْتُبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرَهَا، تَسْعَهَا، ثَمَنَهَا، سُبْعَهَا، سَدَسَهَا، خَمْسَهَا، رُبْعَهَا، ثَلَاثَهَا، نِصْفَهَا»^(١) .

المشهد الخامس : شهود المنة :

أن يشهد أن المنة لله سبحانه في كونه أقامه في هذا المقام وأهله ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته فلولاً لله سبحانه لم يكن شيء من ذلك .

قال تعالى : ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ...﴾ [الحجرات : ١٧] .

قال تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم : ٤٠] .

فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائماً بطاعته وكان هذا من أعظم نعمه عليه .

قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣] .
وقال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات : ٧] .

(١) أحمد (٣١٩/٤) وأبو داود (٧٩٦) .

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد وكلما كان العبد أعظم توحيداً كان حظّه من هذا المشهد أتمّ، وفيه من الفوائد أنه يحول بين القلب وبين العُجب بالعمل فإنه تعالى هو المَنَّان الموفّق له الهادي إليه .

وكذلك من فوائد ذلك أن يضيف الحمد على وليه ومستحقه فلا يشهد لنفسه حمداً بل يشهده كله لله تعالى .

السادس : رؤية التقصير :

وهو أن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصّر وحق الله سبحانه عليه أعظم والذي ينبغي أن يقابله به من الطاعة والعبودية فوق ذلك بكثير وأن عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بهما .



سبب العداوة

رأيت الخلق كلهم في صفّ محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى ويضربونهم بأسيايف اللذة^(١).

فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء.

وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة فلا بدّ مع طول الوقوف في المحاربة من جراح فهم يجرحون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون بلى إن الجراحة في الوجه شين باق فليحذر ذلك المجاهدون.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

قلت: إذن فلا التقاء بين الفريقين فكل أعد العدة، أولياء الرحمن سلاحهم الإيمان بالله وكتبه، ورسله، والتصديق بوعده بالفوز بالجنان فهم الذين ينتمون إليه سبحانه وتعالى ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره، فلم يجعلوا اللقاء بين الناس على أساس العرق واللون والجنس أو التراب، بل اللقاء على العقيدة والمفاضلة بالعمل الصالح قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . . .﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) نقلاً عن كتاب آثار الذنوب لإبراهيم الحازمي.

وفريق إبليس أعدّ عدة الحرب ومن سلاحهم «العداوة والحسد والمكر والخديعة والكذب والنفاق والوشاية بين الناس وإثارة النعرات وإشغال الخلق بأمور تبعد كثيراً من الهدف الذي من أجله خلق الإنسان ألا وهي عبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فليحذر العاقل أن يزيّن له الشيطان هذه الأعمال الخبيثة لكي يجعله معه بعيداً من رحمة الله، بل فليعلم المرء أن الشيطان سريع الروغان كالثعلب عندما يرى جيوش الرحمن مقبلة بل ويتبرأ من الإنسان في أحلك الظروف، وهذا ليس قول البشر بل ما ذكره القرآن الكريم واصفاً حالة الشيطان عند اللقاء الأول قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ...﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فهل فطن لبيب وفيه ذرة من عقل يسمع ويقرأ هذه الآيات الواضحات ويقبل على متابعة الشيطان، ما يكون ذلك إلا من كان أسيراً للشيطان، فليجتهد بحيل الخلاص، ونهمس بإذن من أراد الفرار إلى فريق الرحمن أولاً وقبل كل شيء: الالتجاء إلى الله أن يخلص لربه حقاً ويبتهل إليه أن يخلصه من ذلك الأسر المقيت. وثانياً: البحث عن مظان النجاة ولا يكون ذلك إلا من تطويع النفس وجبرها على ركوب طريق أولياء الرحمن بالمصابرة ومحاربة الشهوة وكشف الشبهات التي قد تصيب القلب.

وجدير بنا أن نذكر للباحثين عن جادة الحق بعض سمات أولياء
الشیطان كي يتجنبوها.

فمن سماتهم:

الاعتراض على حكم الله وشرعه، واتباع الهوى والشیطان،
يقول ابن القيم: «كل من كذب رسول الله ﷺ وأعرض عن متابعتة،
وحاد عن شريعته ورغب عن دينه، واتبع غير سنته ولم يتمسك بعهدته،
ومكن الجهل من نفسه والهوى والفساد من قلبه والجحود والكفر من
صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو ولي الشیطان».
ونفصل ذلك:

- ١- الاعتراض على حكم الله وشرعه ووصفه بالرجعية والتخلف
حتى ادعى أحدهم في الصحافة أن الرسول ﷺ فشل في الدعوة.
- ٢- سن قوانين ولوائح توافق هوى النفس غير المنضبطة بالشرع.
- ٣- تكذيب الرسول ﷺ وأنه يمكن أن يسعه الخروج من شرعه.
- ٤- ادعاء أن سنة الرسول ﷺ غير ملزمة له يأخذ ما يشاء ويدع ما
يشاء.

٥- لم يرفع بذلك رأساً في محاولة فهم الدين حتى تمكن الجهل
والشك والشرك من قلبه وجوارحه.

وهنا سؤال: ما السبب في إثارة هذه المعركة الشرسة والعداوة؟
ذكر العلماء عليهم رحمة الله بعض أسباب العداوة بين أولياء
الرحمن وأولياء الشیطان منها:

١- **الكبر:** فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسل والرسالات، فهم يرون أنهم أحق في كل شيء مع الخوف على مكانتهم في المجتمع لأن نظرهم دنيوية، ولذلك نلاحظ في خطاب الله تعالى لأهل مكة ركز على الإيمان بالله وحده والإيمان باليوم الآخر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

٢- **استحباب الحياة الدنيا على الآخرة والصلوق بالشهوات.**

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧].

فقد لوحظ أن وجود عباد الله المخلصين حتى ولو لم يظهر منهم أي احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

فوجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبح فعله فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله.

٣- **الحسد:** فتأثرة أولياء الشيطان لا تهدأ فيكتون للمؤمنين

الحسد والحقد ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٤ - سلب الهيمنة والولاء: وهذا أمر يخصّ الملاء، وهم كبار القوم الذين يستعبدون الناس، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرغبة والخوف، فإذا جاء دين الله وشرعه الذي يحرّر الناس من عبوديتهم فهم يعادون دعاة الخير؛ لأنهم يشعرون أن سلطانهم قد سلب وأن شرفهم قد زال.

٥ - الجهل بالشرعية وغايتها ومحاسنها: يجعل بعض الناس يعادون من يسلك طريقها، فمن جهلهم لا يعرفون من الشرعية إلا قطع اليد وإقامة الحدود التي ظنوها ظلماً، مع العلم أنها في الحقيقة حفظ لحقوقهم وحقوق الآخرين إذا اعتدى عليهم.

٦ - ممارسات خاطئة: لبعض منتسبي الإسلام تجعل كثيراً من الناس يهربون، فالشدة في غير مكانها ممارسة خاطئة، فأين هؤلاء المتشدّدون من الذي بال في المسجد في عصره الذهبي عصر النبي فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام أعرابي فبال في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا به فقال النبي ﷺ: دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء . . . الحديث^(١).

وبعد أن ظهرت أسباب العداوة سوف نتحدث عن مداخل الشيطان على الإنسان كما أفاد ابن القيم «بتصرف»:

الكفر والشرك: ومعاداة الله ورسوله ﷺ فإذا حصل ذلك

(١) رواه الجماعة إلا مسلماً.

استراح، وجعله من عسكره ونوابه على أبواب جهنم، فصار أسيراً داعية إلى الباطل قد اغتر بكثرة النياشين على صدره ظنّها جمالاً وفي الحقيقة هي حبال إبليس قد طوّق بها.

وإن وجد منه مقاومة هادئة؛ جامله وزين له بعض الأعمال التي تخالف الشرع قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨].
البدعة: لأنها أحب إليه من الفسوق والعصيان وذلك أن ضررها في الدين يتمدد شرها وتنتشر في الناس لأنها تضاهي الدين فتضيع السنة النبوية وتنقلب الأمور وتلبس إلا على قليل من الخلق وهنا الخطورة.

فإن كان مجازاً نقله إلى مرئية أخرى ألا وهي الكبائر على اختلافها، كشرب الخمر والملاهي والأموال المباحة، وخاصة إذا كان عالماً متبوعاً فإن في ذلك قَصْماً لظهره وظهر من تبعه من الخلائق، ويزيد في شماتة الأعداء، ويظهر النفاق واللمز في الدين وأنه ليس المسلك الذي يوصل إلى برّ النجاة، فيدخل الشك والريبة على المترددين وحديثي العهد في التدين.

وإلا نقل إلى درجة أخرى ألا وهي التساهل في الوقوع في الصغائر التي إذا اجتمعت ربما أهلك الإنسان كما في الأثر الذي رواه أحمد: أن النبي ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب...» الحديث.
فإن أفلس من ذلك نقل الإنسان إلى الاشتغال بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب خاصة إذا المرء لم يصحب النية في أعماله حتى المباحة منها كي تنقلب طاعة، فالكيّس يأكل المباح لكن بنية التقوي

على العبادة. وإلا نقله إلى مرتبة أخرى، الاشتغال بالعمل المفضول على الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوت عليه ثواب العمل الفاضل، مثال ذلك يحجب له قيام الليل ويترك صلاة الفجر المفروضة، وفي الختام مداخله يكاد الإنسان لا يحصيها كيف يمكن ذلك وهو يجري مجرى الدم.

قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم...»
الحديث.

إلا من عصمه الله والله المستعان.



من أحوال المقربين وأقوالهم

أولاً: تعبّد الرسول ﷺ

عن علقمة قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أكان رسول الله ﷺ يخص من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق» متفق عليه.

وعن كريب أن ابن عباس أخبره: أنه بات عند خالته ميمونة زوج النبي ﷺ قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم يقرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فقممت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقممت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني اليمنى ففتلها فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح. متفق عليه.

ثانياً: خشية أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن الحسن قال: قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا ليتني شجرة تعضد ثم تؤكل. وعن أبي عمران الجوني قال: قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لوددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. رواه أحمد.

وعن قيس قال: رأيت أبا بكر آخذاً بطرف لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وعن زيد بن الأرقم قال: كان لأبي بكر الصديق مملوك، فأتاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة، فقال المملوك: مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية، فرقت لهم، فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم، فأعطوني. فقال: أف لك، كدت تهلكني. فأدخل يده في حلقه، فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقليل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء. فدعا بعس من ماء، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقليل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة. فقال: لو لم تخرج إلا معها نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به» فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

ثالثاً: من كلام أبي ذر الغفاري رضى الله عنه

عن أبي ذر رضى الله عنه قال: في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، الوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن، إن الله عز وجل يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدمه لنفسي.

عن سفيان الثوري قال: قام أبو ذر الغفاري عند الكعبة فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق. فاكثفه الناس،

فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً؟ طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حبّوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يوماً شديداً حرّه لطول النشور، وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين: مجلساً في طلب الحلال، ومجلساً في طلب الآخرة، الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده، اجعل المال درهمين: درهماً تنفقه على عيالك من حلّه، ودرهماً تقدمه لآخرتك، الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده، ثم نادى بأعلى صوته: يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبداً.

رابعاً: من كلام السلف

عن بكر بن عبد الله بن أبي ذر قال: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح.

عن عبد العزيز بن سلمان العابد قال: انطلقت أنا وعبد الواحد بن زيد إلى مالك بن دينار فوجدناه قد قام من مجلسه فدخل منزله وأغلق عليه باب الحجرة، فجلسنا ننتظره ليخرج أو لنسمع له حركة فنستأذن عليه، فجعل يترنم بشيء لم نفهمه، ثم بكى حتى جعلنا نأوي له من شدة البكاء، ثم جعل يشهق ويتنفس حتى غشى عليه، قال: فقال لي عبد الواحد: انطلق ليس لنا مع هذا اليوم عمل، هذا رجل مشغول بنفسه.

عن الحارث بن سعيد قال: كنا عند مالك بن دينار وعندنا قارئ يقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فجعل ينتفض وأهل المجلس يبكون ويصرخون حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال: فجعل مالك والله

يبكي ويشهق حتى غشي عليه، فحمله القوم صريعاً.

عن عبد الله بن مرزوق قال: بلغني أن مالك بن دينار دخل المقابر ذات يوم، فإذا رجل يدفن فجاء حتى وقف على القبر وجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن، فجعل يقول: مالك غداً هكذا يصير.

وعن أفلح مولى محمد بن علي قال: خرجت مع محمد بن علي حاجاً، فلما دخل المسجد، نظر إلى البيت، فبكى وعلا صوته، فقلت: بأبي وأمي إن الناس ينظرون إليك فلو رفقت بصوتك قليلاً، قال: ويحك يا أفلح ولم لا أبكي؟ لعل الله ينظر إليّ منه برحمته فأفوز بها عنده غداً، قال: ثم طاف بالبيت، ثم جاء حتى ركع عند المقام فرفع رأسه من سجوده، فإذا موضع سجوده مبتلّ من دموع عينيه.

وعن موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، عن أبيه أنه كان يقول في جوف الليل: أمرتني فلم أأتم، وزجرتني فلم أزدجر.

قال يحيى بن الفضل الأبيسي: سمعت من يذكر عن محمد بن المنكدر أنه: بينهما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى فكثر بكاءه حتى فزع له أهله، فسألوه: ما الذي أبكاك؟ فاستعجم عليهم فتماذى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي: ما الذي أبكاك؟ قد روّعت أهلك، فقال له: إني مرت بي آية من كتاب الله عز وجل، قال: ما هي؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آلِهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، قال: فبكى أبو حازم معه واشتد بكاءهم قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئناك لتفرج عنه فزدته، قال فأخبرهم الذي أبكاهما.

لوحة نورانية

١- يروى عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أنه كان يسير في المعسكر فيقول: «ألا رُبَّ مبيضٍ لثيابه مدنسٍ لدينه، ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تغمرهن».

٢- عن زيد بن أسلم قال: دخل عليّ أبو دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل فقيل: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين أما إحداهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية فأحسن حسنة في علانية، لكي تكون هذه بهذه.

قال أحد السلف رضي الله عنه:

أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل وأفضل طرق الجنة سلامة الصدر.

قال الأوزاعي: العافية عشرة أجزاء: تسعة منها صمت وجزء منها هرب من الناس. قال وداعة الأنصاري: قال سمعت عمر بن الخطاب يقول وهو يعظ رجلاً: لا تكلم فيما لا يعنك واعرف عدوك واحذر

صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله ولا تمش مع الفاجر
فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على شرك ولا تشاور في أمرك إلا
الذين يخشون الله عز وجل.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «ما دمت في صلاة فأنت تقرع
باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له».



الخاتمة

ونختم هذه الرسالة اللطيفة والنافعة إن شاء الله تعالى بهذه الآيات من سورة الزمر والتي بينت مصير أولياء الله تعالى ومصير أولياء الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر].

زاد الرَّكْب السَّعيد

(الرسالة الثامنة)

تأليف

الشيخ أبو مصعب

سعيد عماش السعيد



﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]



﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَ ذِي الْقُرْبَىٰ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يٰۤاَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا بَيِّتْنَا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٦٩﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بَصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابُ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٠﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾
لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٦٦ - ٧٣]

المقَدِّمة

الحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل، وأفاض عليهم من نعمه، وكتب على نفسه الرحمة.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، أرسله رحمة للعالمين، فجعل أمته على الواضحة الغراء والمحجة البيضاء، فسلك أصحابه وأتباعه على أثره إلى جنات النعيم، فعلموا أن الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سدى بل خلقهم لأمر عظيم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ .

ولما عَلِمَ الموفقون ما خلقوا له، رفعوا رؤوسهم فإذا عِلْمُ الجنة قد رُفِعَ لهم فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه.

فالسعيد من رافق هذا الركب المبارك السائر إلى الرحمات، والراغب في إدراكه محتاج إلى وصايا قصيرة، لأنه مشغول ونظره إلى الإمام خوفاً أن تبعد القافلة السعيدة، فرأيت أن تكون الوصايا مختصرة وغير مستوعبة كل النصوص الشرعية خوفاً من الإطالة، إنما هي بلاغ لعله يستفيد وينتفع بها وإني سميتها زاد الرّكب السّعيد.

وهذه الوصايا رأيت أن تكون جامعة كذلك، بعض المواقف المؤثرة فالركب السعيد لا يستقبل كل أحد من الناس؛ لأنه ركب نظيف فلا يضم إليه إلا من اتصف بصفات معينة فهو لا يرغب بالأدعياء ولا المتسلقون، ولا الذين يخدعون الناس بالمظاهر البراقة، شروطه علّقها على أول الركب يقرأها من أراد الانتساب له، فإن رغب في ذلك وإلا ذهب لشأنه:

فأول تلك الشروط: أن يكون المنتسب له اهتمام بالعلم فهو مفتاح المعرفة، وثانيها: أن يكون حريصاً على التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وثالثها: أن يكون له نصيب من العبادات وخاصة الصلاة، ورابعها: حريص على تحري الحلال، وخامسها: قد حسنت أخلاقه، وسادسها: اجتهد في اتباع المصطفى ﷺ، وسابعها: أبواب إلى ربه عند التقصير، وثامنها: ذو مراقبة ومحاسبة، وتاسعها: الاستغفار على قلبه ولسانه عِلِمَ تقصيره فَلَهَجَ به، وعاشرها: كيف يصبح ولياً من أولياء الله تعالى؟ فإذا توافرت فيه تلك الشروط وذلك بعد توفيق الله تعالى له، فنرجو له القبول في هذا الركب السعيد الذاهب إلى الجنة، ونحن ليس المبرؤون من التقصير، لكن رأينا أن من أخذ بهذه العشر نرجو له الفلاح والفوز والله المستعان. وقد دُوِّنَتْ هذه العشر في الرسالة التي بين يديك الكريمتين، نسأله الله تعالى التوفيق وأن يجعلنا من أولئك الركب السعيد، وصلى الله وسلم على سيد الأولين والآخرين، والحمد لله رب العالمين.



زادُ الركبِ السعيدِ

- العلم.
- التوحيد.
- الصلاة.
- التقوى.
- الحلال.
- حسن الخلق.
- الاستغفار.
- التوبة.
- الهروب من البدعة .
- أولياء الرحمن

المبحث الأول

العلم

□ تمهيد:

الناس في نظر الإسلام أحد رجلين، إما متعلم يطلب الرُّشد، وإما عالم يطلب المزيد، وليس بعد ذلك من ينظر إليه إلا رعا الخلق فلا تكن منهم.

فإن العلم يدل على الله تعالى من أقرب الطرق، فمن سلك طريقه وصل إلى الله تعالى وإلى جنته، قال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». [رواه مسلم ٧٠٢٨].

فهو مفتاح معرفة الله تعالى والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة وحيبيه في الدنيا، فالعلم النافع الذي بعث الله تعالى به رسله، وأنزل به كتبه، ووفق لفهمه الصالحون، قد جُعل في هذه الدنيا مبسوطاً لمن أراد الله تعالى فيه خيراً وما التوفيق إلا منه نسأله من فضله الكريم.

ومسلكه بوجهين معاً، فالوجه الأول: هو المشي بالأقدام إلى مجالس العلم وتصفح دواوينه، ومحاربه أهواء النفس وفرارها من هذه المجالس المباركة.

والوجه الثاني: يكمن في تحصيل العلم بحفظه ومدارسته ومطالعة حتى يثبت في النفس ويحل محل شيطانها الغاوي، فيكون شجرة مباركة يُحمد الوصول إليها.

وما غُبط الأولون والأخرون في الدنيا بمثل أحد هذين الكثرين.

قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» الحديث.

فالحسد المقصود هاهنا: الغبطة والسرور، وليس إزالة النعمة كما يفهم بعض العامة من هذا الحديث!! أي لا يغبط ولا يسر إلا صاحب العلم والمنفق بوجوه الحق.

إن الإسلام ارتفع بمنازل العلماء وقدر جهودهم، وكرم ثمارهم إلى حد بعيد:

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهي إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلعتهم وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل،

ومصاييح الأبصار في الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكير فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل وتابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله، ج ١/ ٢٣٦»

□ فضل العلم وأهله:

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

الثالث: اقترانها بشهادة ملائكته عليهم السلام.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله تعالى لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

الخامس: إنه وصفهم بكونهم أولي العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم.

السادس: أنه سبحانه وتعالى استشهد بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن: أنه سبحانه وتعالى جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه وتعالى جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإن أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به.

العاشر: أنه سبحانه وتعالى، نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم.

الحادي عشر: أنه سبحانه وتعالى جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال تعالى ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ .

الثاني عشر: أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقاً وجعل هذا ثناء عليهم واستشهاداً بهم قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ .

الثالث عشر: أنه سبحانه وتعالى أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي

إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء عليهم السلام.

الرابع عشر: أنه سبحانه سلّى نبيه ﷺ بإيمان أهل الكتاب به، وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئاً فقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقَتْهُ لِقِرَآءَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ .

الخامس عشر: أنه سبحانه وتعالى مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم .

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورِ الذِّكْرِ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

السادس عشر: أنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم فقال تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ .

السابع عشر: أنه سبحانه وتعالى شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ .

الثامن عشر: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً؛ فكانت فيها

طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

التاسع عشر: قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (الناس محتاجون العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

(وللعلم ست مراتب: أولها: حُسن السؤال، الثاني: حسن الانصات والاستماع، الثالث: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، والسادسة: وهي ثمرته: العمل به ومراعاة حدوده^(١)).

* * *

أنواع العلم

قد ذكر الله تعالى في كتابه العلم تارة في مقام المدح، وهو العلم النافع، وذكر العلم تارة في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع، فأما النوع الأول فيتجلى في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الآية [الزمر: ٩] وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ . وقوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤].

وأما النوع الثاني: فهو كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وكذلك جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وغير نافع، والاستعاذة بالله من العلم الذي لا ينفع وسؤال العلم النافع؛ ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع

ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).
وقال الحسن: العلم علمان: فعلم على اللسان فذاك حجة الله على
ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع.

يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن العلم النافع:

(١) أصل العلم خشية الله.

(٢) ثم يتلوه العلم بأحكام الله عز وجل وما يحبه ويرضاه من العبد.
(٣) وأهل العلم النافع كلما ازدادوا في هذا العلم ازدادوا تواضعاً
وخشية وانكساراً.

وقال بعض السلف: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً
لربه.

(٤) ومن علامات العلم النافع: أن صاحبه لا يدعي العلم ولا يفخر به
على أحد، ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها؛ فإنه
يتكلم فيه غضباً لله لا غضباً لنفسه ولا قصداً لرفعها على أحد.

(٥) أهل العلم النافع يسيئون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف
من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم.

وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سُئل عن علقمة والأسود أيهما أفضل؟
فقال والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفضل بينهم.

(١) أحمد ٤ / ٣٧١ / ٤ / ٢٠٨٨ والنسائي ٨ / ٢٦٠.

□ مواقف وعبر:

عن كُمَيْلِ بن زيادٍ النخعيّ رضي الله عنه قال: أخذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ^(١) بيدي، فأخرجني ناحيةَ الجبّانة ^(٢) فلما أصحر ^(٣)، جعل يتنفس ثم قال: يا كميل بن زياد! القلوبُ أوعيةٌ، فخيرها أوعاها، أحفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة:

فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا، أتباع كلّ ناعق،
يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو
على الإنفاق - وفي رواية: على العمل - والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم
والمال محكوم عليه، ومحبةُ العلم دينٌ يُدان بها، العلم يكسب العالم
الطاعة في حياته، وجميل الأحدثة بعد وفاته، وصناعة المال تزول بزواله .

مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر،
أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

هاه... هاه، إن هاهنا علماً، وأشار بيده على صدره، لو أصبت له
حملةً.



(١) دار السعادة لابن القيم ١/ ١٢٣.

(٢) الجبّانة: المقبرة.

(٣) أصحر: خرج إلى الصحراء.

المبحث الثاني

التوحيد والعقيدة

التوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً.

وفي الشرع: إفراد الله تعالى بالعبادة.

وهو مضمون كلمة: (لا إله إلا الله)

ومعنى كلمة (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله:

فالإله: هو المألوه المعبود المطاع الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً وخوفاً وتعظيماً وذلاً ورجاء وتوكلاً.

ولها ركنان:

(١) النفي (٢) الإثبات

ف لا إله: نفي الإلهية عما سوى الله تعالى من جميع المخلوقات.

و(إلا الله): إثبات الإلهية والعبادة لله وحده دون سواه.

والعقيدة: مأخوذة من مادة: «عقد» التي مدارها على اللزوم والتأكيد، ومنه عقد الحبل، أي شد بعضه ببعض.

فالعقيدة: هي ما يعقد عليه قلب المرء ويدين به ويجزم به من أمور الدين.

وفي الشرع: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وهي أركان الإيمان الستة.

وتقوم العقيدة الإسلامية على أسس وأصول ستة تسمى أركان الإيمان.

فالإيمان لغة: التصديق، وشرعاً: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وأركان الإيمان: هي الإيمان: بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ودليل هذه الأركان في القرآن قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليلها من السنة قوله ﷺ في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

ما معنى الإيمان بالله؟

الإيمان بالله هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه

وأنه الذي يستحق العبادة وحده سبحانه، وأنه المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص وعيب .

فالإيمان بالله وحده يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة.

(١) توحيد الربوبية .

(٢) توحيد الألوهية .

(٣) توحيد الأسماء والصفات .

□ أولاً: توحيد الربوبية:

تعريفه: هو توحيد الله تعالى بأفعاله، وأنه المنفرد سبحانه بالخلق والرزق والملك والأحياء والإماتة قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف.

وهذا التوحيد مركز في الفطر البشرية كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الروم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ». رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٦٩٢٦).

فإقرار المشركين بتوحيد الربوبية لا يدخلهم في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ سورة لقمان، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]

ومع ذلك فقد قاتلهم النبي ﷺ ولم يكتف منهم بذلك، وهذا الخلط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كان قديماً ولا زال مع الأسف حديثاً، فظنوا أن توحيد الربوبية هو المنجي من عذاب الله!! بل توحيد الربوبية هي أفعاله سبحانه وتعالى وهي لا منازع فيها، فلم نسمع أن مخلوقاً ادعى الخلق أو صنع جزء من الخلق؟ ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إلى قوله ﴿زُجِّجَ أَطْطَابُ الْمَطْلُوبِ﴾ الحج.

ولو أنهم كانوا يعقلون لأقروا بتوحيد الألوهية ولأفردوا الله بالعبادة التي هي أفعال العباد، من صلاة، وذبح ونذر، وجعلوها خالصة لله تعالى، فهي مناط التكليف الشرعي.

□ ثانياً توحيد الإلهية:

تعريفه: هو توحيد الله بأفعال العباد التي شرعها لهم بأنواعها من الدعاء- الخوف- الرجاء المحبة والصلاة... الخ .

وتظهر أهمية هذا النوع من التوحيد فيما يلي:

(١) فمن أجله خلقت الجن والإنس، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦).

(٢) أنه الفرقان بين الموحدين والمشرّكين، وعليه يكون الجزاء في الدارين.

(٣) لأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، وكل رسول يقول لقومه، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة الأعراف].

(٤) توحيد الألوهية هو الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأممهم، وقد أنكره الكفار لما دعاهم إليه النبي ﷺ وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

□ ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات:

هو الاعتقاد الجازمة بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن جميع صفات النقص قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فالواجب في صفات الله تعالى إثبات ألفاظها ومعانيها على الوجه اللائق بالله تعالى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وأما كيفية الصفات وحقائقها فلا يعلمها إلا الله تعالى، كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن كيفية الاستواء المذكور في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [٥] قال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) أي السؤال عن الكيفية

بدعة، وجواب الإمام مالك عن كيفية الاستواء ومعناه يصلح أن يكون قاعدة في كل الصفات، وذلك لأن معاني الصفات معلوم لنا، لأن الله تعالى خاطبنا بلسان عربي مبين وأمرنا بتدبر كتابه الكريم، فلو لم يكن لها معنى معلوم لم يكن للتدبر فائدة.

وهذا النوع من التوحيد يبنى على أصلين كما بينه تعالى.

الأولى: تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

الثاني: هو الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ حقيقة لا مجازاً على الوجه اللائق بكماله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

فقد بين تعالى نفي المماثلة عنه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين إثبات الصفات على الحقيقة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

فَعُلِمَ أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢﴾ فنفي أن يكون السميع كالسميع والبصير كالبصير.

وأثبت لنفسه علماً وللإنسان علماً فقال عن نفسه سبحانه وتعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وقال عن الإنسان ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وليس علم الإنسان كعلم الله تعالى، وهذا كثير في الكتاب العزيز.

وفي قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ هناك شبهة عند بعض من يدعي العلم، قال: كيف نصف الله إنه حلیم والإنسان الضعيف أنه حلیم!! وجهل هؤلاء هذه القاعدة أن [القول في الصفات كالقول في الذات] أي أن الاشتراك في المسمى لا يعني الاشتراك في الذات، فصفة حلمه تعالى تناسب قدرته وعظمته، وحلم الإنسان يناسب ضعفه وعجزه وحاجته، وسر على هذه القاعدة في جميع الصفات والأسماء.

وقال بعض أولئك من جهلهم: من الأحسن أن ننفي كل هذه الأسماء والصفات عن الله تعالى!! فوقعوا في شرٍ أشد مما فروا منه، حيث إنهم نفوا أسماء وصفات الخالق الباري الكريم، وتردد بعضهم فأثبت بعضها، ونفاها البعض الآخر كلياً فأصبحوا يعبدون عدماً.

ومن المعلوم أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله. ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسوله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين.

□ أسباب الانحراف عن العقيدة الصحيحة:

١- الجهل بالعقيدة الصحيحة وعدم الحرص على تعلم تفاصيلها، فيقع الناس فيما يخالفها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٢- التعصب لما عليه الآباء والأجداد، وإن كان باطلاً فليس عند هذا الصنف استعداد للتخلي، عما ورثوه وألفوه عن سبقهم ولها الاستعداد لسماع الرأي الآخر وإن كان محققاً.

٣- الغلو في الأولياء والصالحين، ورفعهم فوق منزلتهم وإعطائهم من الصفات والأمور ما لا يكون إلا لله تعالى، ففي نظر هؤلاء المساكين أن الأولياء هم الذين يرزقون الولد ويكشفون الكربات، وهذا باطل محض.

٤) التأثير بالوالدين ومسايرة المجتمع، بالإضافة إلى بعض وسائل الإعلام غير الآمنة على العقيدة، [صحف- مجلات- فضائيات].

٥) فصل الدين عن الحياة، والتشكيك بصلاحية الدين للعمل به في هذا الزمان مما جعل جيلاً بل أجيالاً تزدرى الدين وادعوا ظلماً إنه سبب تخلفهم: «فتركوه وراءهم ظهرياً» حسبي الله ونعم الوكيل.



فضل: لا إله إلا الله

هذه الكلمة أعظم كلمة نطق بها العبد في حياته، وأثرها في الدارين، فهي أساس الملة ورأس الدين، وخلاصة دعوة المرسلين، فنفعها في معرفة معناها والعمل بمقتضاها، ومن كانت آخر كلامه في الدنيا دخل الجنة بخبر المعصوم صلى الله عليه وآله.

وعلى قدر تحقيق العبد لهذه الكلمة يحصل على فضائلها ومنها:

(١) دخول الجنة: كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله:

قال: «ما من عبد قال (لا إله إلا الله) ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»^(١).

(٢) النجاة من النار، كما في حديث عتبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)^(٢).

(٣) الخروج من النار: كما في حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن الله عز وجل يقول [أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان]^(٣).

(٤) أنها سبب الحصول شفاعته الرسول صلى الله عليه وآله: كما في الصحيحين:

(١) البخاري ج ٧، ص ٤٣ مسلم ج ١ ص ٩٥.

(٢) البخاري ج ٢ ص ٥٥، ٥٦ مسلم ج ١ ص ٦١، ٦٢.

(٣) البخاري ج ٨ ص ٢٠١، ٢٠٢ مسلم ج ١ ص ١٧٠.

«أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه».

(٥) أنها سبب لعصمة المال والنفس في الدنيا: كما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(١).

(٦) حصول الأمن في الدنيا والآخرة: كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

مواقف وعبر

قال الأصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، ف قيل: هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه يشير بأصبعه نحو السماء قال: تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير [توحيد خالص].

ومن أقواله:

إني لأغبط رجلاً معه دينه، وما معه من الدنيا شيء وهو راضٍ.

وقال: إذا أقبل العبد بقلبه على الله، أقبل الله بقلوب العباد عليه.

وقال: يكفي من الدعاء، مع الورع يسير العمل.

(١) البخاري (٢٩٤٦)، مسلم (١٣٣).

وقال: إن الرجل ليبكي عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم.

وقال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف. قال: ازهد في الدنيا.

وقال سفيان بن عينة: (قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما جلس إليّ أحد)^(١).

هذه ثمرة الإخلاص لله تعالى والتوحيد.



(١) هو محمد بن واسع بن جابر الأخنس الإمام الرباني حدث عن أنس بن مالك ومطرف بن الشخير ومحمد بن سيرين وغيرهم، وحدث عنه، سفيان الثوري ومعمّر وحماد بن سلمة وحماد ابن زيد وغيرهم قال علي بن المديني: له خمسة عشر حديثاً وقال العجلي ثقة عابد صالح.

المبحث الثالث

الصلاة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١).

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٣) ﴿٤٥﴾.

وقد جاء ذكر الصلاة في الكتاب العزيز: بشكل مستفيض.

إنها ركن متين وبناء منيف من الدعائم الخمس التي بني عليها هذا الدين العظيم.

فعن أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج

(١) النساء: (١٠٣).

(٢) البقرة: (٢٣٨).

(٣) البقرة: (٤٥).

البيت وصوم رمضان»^(١).

والمراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنائه فلا يثبت البنيان بدونها، وبقيّة خصال الإسلام كتتمّة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص من البنيان وهو قائم ولا يزول بنقص ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس فإن الإسلام يزول بفقدها جميعها بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين، والمراد بالشهادتين الإيمان بالله ورسوله، وقد جاء في رواية ذكرها البخاري تعليقاً (بني الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، وذكر بقيّة الحديث).

وأما إقام الصلاة فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام، ففي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة وفي حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة)، وقال عمر رضي الله عنه: (لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة) وكان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر إلا الصلاة.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا) متفق عليه .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ألا أدلكم على ما

(١) في الصحيحين من رواية عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرت الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط» رواه مسلم.

□ كيف لا تكون كذلك ومن ميزتها:

١- أنها افترضت في السماء بخلاف سائر التكاليف لعلّ محاسنها وأهميتها.

٢- أن صاحب الرسالة ﷺ استُدعي لها من الأرض إلى السماء لعظم المهمة.

٣- أن الله يحبها، لهذا افترضها خمسين صلاة في اليوم واللييلة حتى خفف على هذه الأمة فهي: (خمس في العمل خمسون في الأجر).

٤- أنها علامة من علامات المؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

٥- أن تركها أو جحودها يُخرج من الملة، قال رسول الله ﷺ «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه أحمد والترمذي.

٦- أنها لا تسقط بأحلك الظروف حتى في الحروب ولو التحمت الصفوف، ولا في حالات المرض ما دام المكلف مدركاً فتجب عليه الصلاة حسب التفاصيل الواردة في كتب الفقه.

فلتحرص على إعطاء الصلاة حقها من التكميل ظاهراً وباطناً «فإن لها

تأثيراً عجيباً في دفع شرور الدنيا»^{(١)(٢)}، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ولا استجلبت مصالحها بمثل الصلاة، فإنها منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطرودة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاق الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمّة، وهي حافظة للصحة، مفرحة للنفس مذهبة للكسل ممددة للقوى شارحة للصدر مغذية للروح جالبة للبركة مبعدة من الشيطان مقربة من الرحمن، وبالجملّة فإن لها تأثيراً عجيباً في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلي رجلاً بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظّ المصلي منهما أقلّ وعاقبته أسلم، وسرّ ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل، تُفتح عليه الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل، والعافية والصحة والغنيمة والغنى والراحة والنعيم والافراح والمسرات كلها حاضرة لديه ومسارعة إليه .

واعلم يا أخي بأن للعبد بين يدي الله موقفين: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾^(٣)

(١) نقلاً عن رسالة الصلاة الخاشعة للشيخ أحمد بن محمد الحواش.

(٢) انظر رسالتي المطبوعة كذلك من صفات أولياء الرحمن.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧].

فالمتقون يقولون نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة»^(١) ولم يقل أرحنا منها، وقال أيضاً: «جعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٢) فقرّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، ومحض لذته وعظيم سروره إنما يكون في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه. ومما ينبغي أن يعلم أن الصلاة التي تقرّ بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد^(٣):

□ المشهد الأول: الإخلاص:

وهو أن يكون الحامل عليه والداعي إليه: رغبة العبد في الله ومحبته له وطلبه مرضاته والقرب منه والتودد إليه وامتنال أمره واجتناب نهيه .

قال ابن القيم: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه».

□ المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح:

وهو أن يفرغ قلبه ويتفرغ جهده في إقباله فيها على الله وجَمْع قلبه عليها وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهراً وباطناً، فإن الصلاة لها

(١) رواه أحمد (٥ / ٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦).

(٢) أحمد في المسند (٣ / ١٢٨) والنسائي (٧ / ٦١) من حديث أنس.

(٣) كما ذكر ذلك الشيخ أحمد بن محمد الحواش الإمام والخطيب في جامع خميس مشيط جزاه الله خيراً.

ظاهر وباطن، فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة وباطنها الخشوع والمراقبة .

□ المشهد الثالث : مشهد المتابعة والاقتداء :

وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي ﷺ فيصلي كما كان يصلي، ويعرض عما أحدث الناس في الصلاة من السرقة والنقصان، والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء منها ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب : ٢١].

□ المشهد الرابع : مشهد الإحسان :

وبعد مشهد المراقبة وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه وتعالى فوق سماواته مستوياً على عرشه بائناً من خلقه، يشهد قيوماً حياً سميعاً بصيراً حكيماً آمراً ناهياً يحب ويغضب لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك : ١٤] .

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والتوكل والخضوع والذلة له وتقطيع الوسواس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله تعالى.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، وربعها، ثلثها، نصفها»^(١).

□ المشهد الخامس: شهود المنة:

أن يشهد أن المنة لله سبحانه في كونه أقامه في هذا المقام وأهّله ووفّقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته، فلولاً الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك.
قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾.
[الحجرات: ١٧].

قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].
فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائماً بطاعته وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].
وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلما كان العبد أعظم توحيداً كان حظّه من هذا المشهد أتمّ، وفيه من الفوائد أن يحول بين القلب وبين العُجب بالعمل، فإنه تعالى هو المَنَّان الموفّق له الهادي إليه.

(١) أحمد (٤/ ٣١٩) وأبو داود (٧٩٦).

وكذلك من فوائد ذلك أن يضيف الحمد على وليه ومستحقه، فلا يشهد لنفسه حمداً بل يشهده كله لله تعالى.

□ السادس: رؤية التقصير:

وهو أن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصّر وحق لله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي أن يقابله به من الطاعة والعبودية فوق ذلك بكثير وأن عظمت وجلاله سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بهما.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: نُهِنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَرَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، أَلَهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا .

قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» .

قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سِتِّينَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلَهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ

اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: «صَدَقَ» قال: ثم وَلَّى. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي ﷺ: «لئن صدق لَيَدْخُلَنَّ الجنة»^(١).

* * *

(١) رواه البخاري ٦٣ مسلم ١٢، ت ٦١٩ وغيرهم/ كتاب الإيمان.

المبحث الرابع

التقوى

□ تمهيد:

التقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ الآيات الكريمة.

وتقوى الله تعالى خير ما أعده العبد لآخرته.

وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾.

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى:

أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم. الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي).

وقال الله تعالى: ﴿يَبْنَىٰ ءَادَمَ فَذَٰ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تِكُمْ وَرِشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية.

قال القاسمي: لما ذكر اللباس الحسي، نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع). محاسن التأويل ٣ / ١٥٥.

وقال ابن القيم: اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثلث موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير، ذلك يوم التغابن.

هذا وقد ذكرت التقوى في الكتاب العزيز في مواضع كثيرة جداً يصعب حصرها في مثل هذه الرسالة القصيرة والله المستعان.

□ تعريفها:

قال ابن رجب: أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه .

وقال ابن القيم: أما التقوى فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً أمراً ونهياً.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك المعصية على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال النوري: إنما سموا متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن

يقعوا في الحرام فسامهم الله متقين.

وقال ميمون بن مهران: المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه.

فالباعث للتقوى هو الإيمان الخالص، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمده والجاه، وقد تكرر في الكتاب الكريم والسنة المطهرة كثير من أدلتها، ففي السنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إن الدنيا حُلوة خَصِرَه وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» رواه مسلم.

□ مراتب التقوى:

قال ابن القيم: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حميتها من المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

□ من فضائل التقوى:

فلتقوى الله جل وعلا فضائل كثيرة وثمرات عظيمة، ونذكر هنا بعضها عسى أن يصيبنا شيء منها بفضل الله تعالى وتوفيقه:

(١) أنها سبب محبة الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فهنيئاً لمن نال محبة

مولاه.

- (٢) أن التقوى سبب رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف .
- (٣) أنها سبب لعون الله تعالى ونصره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .
- (٤) أنها سبب التوفيق لخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ ﴿٧﴾ .
- (٥) أنها أمان الخائفين: قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .
- (٦) أنها تجعل في القلب النور فيظهر الحق على حقيقته والباطل على حقيقته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٩﴾ .
- (٧) التقوى تعطي المرء قوة ونشاطا في الحق ومحاربة للباطل. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَإِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .
- (٨) التقوى جالبة للأجر العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .
- (٩) التقوى فيها توسيع الأرزاق وفتح لخيرات السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ .
- (١٠) التقوى من أعظم سباب النصر والغلبة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ .

(١١) إنها سبب في إصلاح الأعمال والتجاوز عن السيئات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ الأحزاب.

(١٢) أنها صفة أولياء الله تعالى المنسوين إليه وكفى بهذا شرفاً ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

(١٣) بها يعظم قدر العبد عند الله تعالى بحسب ما حصل منها فهي الميزان العدل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١﴾﴾ الحجرات.

قال الطبري رحمه الله تعالى ١١ / ٣٣٩: قوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ يقول ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم، أشدكم اتقاء له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة .
(١٤) التقوى سبب كل خير في الدنيا والآخرة، وهي لا سواها سبب الفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾﴾ الذاريات

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

وخلاصة هذا المبحث

أهل التقوى هم أولياء الله عز وجل وهم أكرم الناس.
 قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 [الأنفال: ٣٤].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [البجائية: ١٩].
 قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات].
 وسُئل الرسول ﷺ من حديث أبي هريرة: من أكرم الناس؟ قال
 (أتقاهم لله)^(١) قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: إن الفضل والكرم إنما هو
 بتقوى الله لا بغيره من الأنساب إلى القبائل ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب
 وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم
 (٢) كيف تتقي الله عز وجل:

(أ) هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الآبية التي لا
 تقنع بالدون ولا يبيع الأعلى بالأدنى يبيع العاجز المغبون.
 (ب) أن تستشعر في قلبك مراقبة الله عز وجل وتستحي منه حق الحياء.

(١) البخاري (٦/ ٤١٧).

(ج) أن تعلم ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام.

(د) أن تتعلم كيف تغلب هواك وتطيع مولاك.

(هـ) أن تعرف مكائد الشيطان ومصائده، وأن تحذر من وساوسه ودسائسه.

نسأل الله تعالى من فضله أن يجعلنا وإياكم من المتقين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين.



مواقف وعبر

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة: دعا ابنه محمداً فأوصاه بوصية عظيمة بين له فيها أسباب السعادة والراحة والنجاة في الدنيا والآخرة قال له:

يا بني! أرى داعي الموت لا يقلع، ومن مضى منا لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع، وليس أحد عليه بممتنع، وإنني أوصيك يا بني بوصية فاحفظها.

تقوى الله وشكره

عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك الشكر لله، وحسن النية في السر والعلانية، واعلم بأن الشاكر مزا، والتقوى خير زاد^(١).

وكن يا بني كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقى هو السعيد

* * *

(١) دليلك إلى السعادة النفسية ص (٩ - ١٧).

المبحثُ الحَمِيسُ

الحلال

□ تعريفات

الحلال: هو المباح الذي انحلت عنده عقدة الحظر، وأذن الشارع في فعله.

والحرام هو: الأمر الذي نهى الشارع من فعله نهياً جازماً بحيث يتعرض من خالف النهي إلى عقوبة أخروية، وقد يتعرض لعقوبة شرعية في الدنيا أيضاً .

وكان أمر الحلال والحرام كغيره من الأمور التي ضل فيها أهل الجاهلية، فأحلوا الحرام الخبيث وحرّموا الحلال، يستوي في ذلك الوثنيون وأهل الملل الكتابية.

وكان له - أي: أمر الحلال والحرام - طرفين: ففي أقصى اليمين وجدت البرهمية الهندية القاسية، والرهبانية المسيحية العاتية، وغيرها من المذاهب التي تقوم على تعذيب الجسد وتحريم الطيبات من الرزق وزينة الله التي أخرج لعباده، وقد بلغت الرهبانية المسيحية ذروة عتوها في

القرون الوسطى، وبلغ تحريم الطيبات أشده عند هؤلاء الرهبان الذين كانوا يعدون بالألوف حتى جعل بعضهم غسل الرجلين إثماً، ودخول الحمام شيئاً يجلب الأسف والحسرة.

وإلى أقصى اليسار وجد مذهب (مزدك) الذي ظهر في فارس ينادي بالإباحة المطلقة، ويطلق العنان للناس ليأخذوا كل شيء، ويستبيحوا كل شيء حتى الأعراض والحرمات المقدسة بالفطرة عند الناس.

وكان للعرب في الجاهلية كفل من هذا، كالخمر، وقتل البنات وعبادة الأوثان.

فعند ما جاء الإسلام فوجد هذا الانحراف في كل شيء، فكان أول ما صنعه لإصلاح هذا الجانب الخطير من التشريع أن وضع جملة من المبادئ التشريعية جعلها الركائز التي يقوم عليها أمر الحلال والحرام فرد الأمور إلى نصابها فكان الإسلام وسطاً بين الأمم قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) الأصل في الأشياء الإباحة:

كان أول مبدأ قرره الإسلام: أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع هو على الحل والإباحة إلا ما ورد نص صحيح صريح من الشارع بتحريمه.

وقد استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ البقرة: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ سورة الجاثية.

الآيات الكريمة:

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف: ٣٢.

ذكر أهل التفسير:

أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة، ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات، من حرم عليكم التجميل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات والمستلذات من المأكّل والمشارب، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الأنعام: ١٤٥.

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله (لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه) أي آكل يأكله. قيل: معناه لا أجد شيئاً مما حرمت حراماً سوى هذه، وقيل: معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه.

وعن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدرًا، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو وقرأ الآية ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي آكل يأكله. قيل: معناه لا أجد شيئاً مما حرمت حراماً سوى هذه، وقيل: معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

هذا الحديث صحيح متفق على صحته من رواية الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، وفي ألفاظه بعض الزيادات والنقص والمعنى واحد متقارب، وقد روي عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر وعمار وجابر وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم .

فقوله ﷺ «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس» .

معنى ذلك أن الحلال المحض بين لا اشتباه فيه، وكذلك الحرام

المحض، ولكن بين الأمرين أمور تشبهه على كثير من الناس، هل هي من الحلال أم من الحرام؟ وأما الراسخون في العلم فلا يشبهه عليهم ذلك ويعلمون من أي القسمين هي، فأما الحلال المحض فمثل أكل الطيبات وشرب الأشربة الطيبة ولباس ما يحتاج إليه، والحرام المحض مثل أكل الميتة والدم وشرب الخمر ولباس الحرير للرجال ومثل الاكتساب المحرم كالربا والميسر وثمان ما لا يحل بيعه، وأما المشتبه فمثل بعض ما اختلف في حله أو تحريمه، إما من الأعيان كالخيل والبغال والحمير والضب، وشرب ما اختلف في تحريمه من الأنبذة التي يسكر كثيرها، ولّيس، ما اختلف في إباحة لبسه من جلود السباع، ومن المكاسب المختلف فيها كمسائل العينة والتورق.

وحاصل الأمر أن الله تعالى أنزل على نبيه الكتاب وبين فيه للأمة ما تحتاج إليه من حلال وحرام كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] قال «مجاهد وغيره: كل شيء أمروا به ونهوا عنه، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وما قبض رسول الله ﷺ حتى أكمل له ولأئمة الدين وأنزل عليه بعرفه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «تركتم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك».

وقال أبو ذر رضي الله عنه: (توفي رسول الله ﷺ وما طائر يحرك جناحيه في السماء إلا وقد ذكر لنا منه علماً).

وفي الجملة فما ترك الله ورسوله حلالاً إلا مبيناً ولا حراماً إلا مبيناً، لكن بعضه كان أظهر بياناً من بعض، فما ظهر بيانه واشتهر وعلم من الدين بالضرورة من ذلك لم يبق فيه شك ولا يعذر أحد بجهله في بلد يظهر فيها الإسلام، وما كان بيانه دون ذلك فممنه ما يشتهر بين حملة الشريعة خاصة فأجمع العلماء على حله أو حرمة، وقد يخفى على بعض من ليس منهم، ومنه ما لم يشتهر بين جملة الشريعة أيضاً فاختلّفوا في تحليله وتحريمه، وذلك لأسباب: منها أنه قد يكون النص عليه خفياً لم ينقله إلا قليل من الناس فلم يبلغ جميع حملة العلم، ومنها أنه قد ينقل فيه نصان، أحدهما بالتحليل، والآخر بالتحريم، فيبلغ طائفة منهم أحد النصين دون الآخر فيتمسكون بما بلغهم، أو يبلغ النصان معاً من لم يبلغه التاريخ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ والمنسوخ، ومنها ما لم ليس فيه نص صريح، وإنما يؤخذ من عموم أو مفهوم أو قياس، فتختلف أفهام العلماء في هذا كثيراً، ومنها ما يكون فيه أمر أو نهى فتختلف العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب، وفي حمل النهي على التحريم أو التنزيه .

وأسباب الاختلاف أكثر مما ذكرنا، ومع هذا فلا بد في الأمة من عالم يوافق قوله الحق، فيكون هو العالم بهذا الحكم وغيره يكون الأمر مشتبهاً عليه ولا يكون عالماً بهذا، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجوراً غير معمول به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال عليه السلام في المشتبهات «لا يعلمهن كثير من الناس» فدل على أن من الناس من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضى

لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء^(١).

□ نظرات المعاصرين للحلال^(٢):

إن معظم الباحثين العصريين في الإسلام والمتحدثين عنه يكادون ينقسمون إلى فريقين: فريق خطف أبصارهم بريق المدنية الغربية، وراعهم هذا الصنم الكبير فتعبدوا له، فهؤلاء الذين اتخذوا مبادئ الغرب وتقاليده قضية مسلمة لا تعارض ولا تناقض، فإن وافقها الإسلام في شيء هللوا وكبروا، وإن عارضها في شيء وقفوا يحاولون التوفيق والتقريب أو الاعتذار والتبرير، أو التأويل والتحريف، كأن الإسلام مفروض عليه أن يخضع لمدنية الغرب وفلسفته وتقاليده، ذلك ما نلمسه في حديثهم عما حرم الإسلام من مثل التماثيل والفوائد الربوبية والخلوة الأجنبية وتمرد المرأة على أنوثتها، وتحلي الرجل بالذهب والحرير.

كأن الحلال في نظرهم ما أحله الغرب والحرام ما حرمه الغرب، ونسوا أن الإسلام كلمة الله، وكلمة الله هي العليا دائماً فهو يُتَّبَع ولا يُتَّبَع ويعلو ولا يعلو، والخالق لا يخضع لأهواء المخلوقين قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون].

الفريق الثاني: لم يحاول أن يمتحن أدلة مذهبه أو رأيه، ويزنها بأدلة الآخرين وخاصة في الأمور المعاصرة، كالمعاملات المالية والعلاقات

(١) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٦٤.

(٢) بتصرف يسير من رسالة الحلال والحرام للشيخ د. يوسف القرضاوي.

الدولية، فإذا سأل عن شيء كان أقرب شيء إلى لسانه حرام، ونسي هذا الفريق أدب السلف الصالح في هذا حيث لم يكونوا يطلقون الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعاً، وما عدا ذلك قالوا فيه: نكره، ولا نحجب... أو أي عبارة مقاربة.

فبعض الناس مقلداً في كل القضايا والمسائل خطأ أو أصاب المقلد. قال ابن الجوزي: (على غير ثقة فيما قلده فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطى شمعاً يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة)^(١).

فأئمة المذاهب لم يدعوا لأنفسهم العصمة وإنما هم مجتهدون في تعرف الحق، قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبي ﷺ» وقال الإمام الشافعي: (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب).

والحلال والحرام مدون في كل أمة ومعروف من قديم؛ وإن اختلفوا في مقدار المحرمات وفي أمة نوعها وفي أسبابها، وكان الكثير منها مرتبطاً بالمعتقدات البدائية والخرافات والأساطير.

ثم جاءت الأديان السماوية الكبرى بتشريعات ووصايا عن الحلال والحرام وارتفعت بالإنسان عن مستوى الخرافات والأساطير والحياة القبلية إلى مستوى إنساني كريم، ولكنها كانت في بعض ما أحلت وحرمت

(١) تلبس إبليس ص ٨١.

مناسبة لعصرها متطورة بتطور الإنسان وتغير الأحوال والأزمان، فكان في اليهودية مثلاً محرمات معروفة عاقب الله بها بني إسرائيل قال الله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحَدِّثَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فلما جاء الإسلام كانت البشرية قد بلغت أشدها وصلحت أن ينزل الله عليها رسالته الأخيرة فختتم تشريعه للبشر بها كاملة خالدة، هذا تقرأه بعد أن ذكر ما حرم من الأطعمة في سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فدستور الإسلام في الحلال والحرام يتمثل في هاتين الآيتين قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].



□ من فوائد هذا البحث :

- ١- أن الأشياء تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حلال بيّن، وحرام بيّن، ومشتبه^(١).
- ٢- والأمور المشتبه هي محل الخلاف بين الناس وأسباب الاشتباه يرجع إلى أمور منها:
 - قلة العلم: أما واسع العلم فإنه يعرف أشياء لا يعرفها الآخرون فهو على بصيرة.
 - قلة الفهم: قد يكون واسع العلم ولكنه قليل الفهم، والفهم من مواهب الرحمن.
 - التقصير في التدبر: بأن لا يتعب نفسه في البحث، بحجة عدم لزوم ذلك.
 - سوء القصد: بأن يكون أنانياً لا ينصر إلا قصده وقصد طائفته وشيعته وهذا النوع مدمر ضار لنفسه وصاد عن سبيل الرشاد، همه اتباع الهوى وأفعال الآباء والأجداد.
 - حكمة الله تعالى في ذكر وإيجاد المشتبهات: حتى يتبين طالب الحق عن غيره وفي قوله ﷺ «لا يعلمهن كثير من الناس» أنه لا يمكن أن يكون في الشريعة الغراء ما لا يعلمه الناس كلهم.
- ٣- الحث على اتقاء الشبهات، فالمتقى كالسائر على الشوك.
- ٤- خطورة الواقع في الشبهات، حيث تتوق نفسه إلى الحرام.
- ٥- سد الذرائع: أي أن كل ذريعة توصل إلى محرم يجب أن يغلق بابها.
- ٦- الرسول ﷺ حسن التعليم، يضرب المثال بالمحسوس إذا لم يكن

(١) انظر شرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

خيالياً بعيد عن الواقع.

٧- يجب العناية بالقلب أكثر من العناية بعمل الجوارح؛ لأن القلب عليه مدار الأعمال.



خلاصة هذا المبحث

- أكل الحلال مرضاة للرب وطاعة للرسول ﷺ، وإن هذا الصنف أهل رحمته وجنته ونجده في الأمور الدنيوية.

- التعامل في الحلال في كل الأمور - في البيت وفي الشراء والبيع والمعاملات الشخصية - مظنة إجابة الدعوة.

- انتهاج سبيل الحلال في كل الأمور يبعث في النفس الطمأنينة والسرور.

- مسلك الحلال يبعد الريبة والشك عن المرء، فيأمنه الآخرون ويثقون به، وهو محبوب من الخلق.

- قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ، فكان الرسول ﷺ يقول في دعائه : (اللهم إني أسألك قلباً سليماً) فالقلب السليم هو القلب السالم من كل الآفات والمكروهات، وما التوفيق إلا بالله الرحمن الرحيم.

وصلى الله على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المبحث السّلاس

حسن الخلق

الخُلُق لغة: اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها.

واصطلاحاً: قال الماوردي: الأخلاق: غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار.

وقال القزويني رحمه الله: ومعنى حسن الخُلُق سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى وقد يكون فيما بين الناس.

أما ما يتعلق بذات الله عز وجل فهو أن يكون العبد منشراح الصدر بأوامر الله تعالى ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيب النفس به، وينتهي عما حرم عليه راضياً به.

أما في المعاملات بين الناس فهو أن يكون سمحاً لحقوقه لا يطالب غيره بها ويوفي ما يجب لغيره منها.

□ ومن الآيات الكريمة في حسن الخلق:

(١) قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ [الإسراء: ٥٣].

أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة، ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه، وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي أن الشيطان يُفسد ويهيج بين الناس الشر، ويُشعل نار الفتنة بالكلمة السيئة يُفلت بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقطات لسانه لِيُحْدِثَ العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه.

وقال القرطبي رحمه الله حول الآيات السابقة: أمر الله تعالى في هذه الآيات المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب وإلانة القول وخفض الجناح وإطراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً» وفي قوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء وأنه عدو بين العداوة^(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٣- قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

□ الأحاديث الشريفة الواردة في (حُسن الخلق)

[١] عن النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «الْبِرُّ حُسْنُ الخلق، والإِثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

قوله: ﴿الْبِرُّ﴾ أي الذي ذكره الله تعالى في القرآن فقال ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ والبر كلمة تدل على كثرة الخير.

«حسن الخلق»: أي حسن الخلق مع الله، وحسن الخلق مع عباد الله، فأما حسن الخلق مع الله فمعناه أن تتلقى أحكامه الشرعية بالرضا والتسليم، وأن لا يكون في نفسك حرج منها، فإذا أمرك بالصلاة مثلاً: فإنك تقابل هذا بصدر منشرح، وكذلك الأمور القدريّة التي كتبت على الإنسان عليه قبولها على صعوبتها، فمثلاً فقدان المال والولد، عفانا الله تعالى وإياكم من كل مكروه.

أما حسن الخلق مع الناس: فمنه بذل الند في وكف الأذى والصبر على الأذى وطلاقة الوجه.

(والإثم) هو ضد البر لأن الله تعالى قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

(والإثم ما حاك في نفسك) أي تردد وصرت منه في قلق (وكرهت أن يطلع عليه الناس) لأنه محل ذم وعيب، فتجدك متردداً فيه، وتكره أن يطلع الناس عليك^(١).

(١) ذكره الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح الأربعين النووية.

□ ومن الأحاديث الشريفة في ذلك:

- ١- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحوها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).
- ٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»^(٢).
- ٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»^(٣).
- ٤- عن أبي أمامه الباهلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»^(٤).

□ المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في حسن الخلق:

- ١- عن أمّ خالد بنت خالد بن سعيد قالت أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعلى قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: سنّه سنّه. «قال عبد الله (أحد رواة الحديث) وهى بالحبيشة حسنة. قالت فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزجرني أبي. قال رسول الله ﷺ دعهَا «ثم قال رسول الله ﷺ أبلى وأخلقى، ثم أبلى وأخلقى، ثم أبلى وأخلقى». قال عبد الله فبقيت حتى

(١) البخاري (١٩٨٧).

(٢) الترمذي (١١٦١)، أحمد (٢/٢٥٠، ٤٧٢).

(٣) أبو داود (٤٧٩٨).

(٤) أبو داود (٤٨٠٠).

ذَكَرَ. يَعْنِي مِنْ بَقَائِهَا^(١).

(٢) عن الصّعب بن جثامة رضي الله عنه قال: أهديت رسول الله صلّى الله عليه وآله حمراً وحشياً بالأبواء أو بؤدان فردّه عليّ فلما رأى ما في وجهي قال: (إنا لم نرده عليك إلا إنا حُرمة) أي محرمين بالعمرة^(٢).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا قال: «إني لا أقول إلا حقاً»^(٣).

نلاحظ من هذه الأحاديث لين عريكة النبي صلّى الله عليه وآله وتواضعه ومداراته لحالة المخاطب سواء كان صغيراً أو كبيراً، فهي ممارسات عملية ينقلها أصحابه رضي الله عنهم، وليست أقوالاً مجردة تحتاج إلى بيان عن صدقها ومضمونها، بل حياة عملية واقعية وليس تنظيراً.

(٤) وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: (هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصّلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرّاً ووصولاً وقوراً صبوراً شكوراً حلماً رفيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً، يحب في الله ويبغض في الله).

(١) رواه البخاري (٥٩٩٣).

(٢) البخاري ٤ / ١٨٢٥ - ٢٥٧٣.

(٣) الترمذي (١٩٩٠).

□ من فوائد (حُسن الخُلُق)^(١)

- (١) حُسْنُ الْخُلُقِ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُقَرَّبُ الْعَبْدَ إِلَى اللَّهِ.
- (٢) إِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ خُلُقَهُ مَعَ النَّاسِ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَالنَّاسُ.
- (٣) حُسْنُ الْخُلُقِ بِهِ يَأْلَفُ النَّاسَ وَيَأْلَفُهُ النَّاسُ.
- (٤) لَا يُكْرِمُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ حُسْنِ الْخُلُقِ وَلَا يُهِنُّهَا بِمِثْلِ سُوءِهِ.
- (٥) حُسْنُ الْخُلُقِ سَبَبٌ فِي حُبِّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
- (٦) حُسْنُ الْخُلُقِ يُحَوِّلُ الْعَدُوَّ إِلَى الصَّدِيقِ.
- (٧) حُسْنُ الْخُلُقِ سَبَبٌ لِعَفْوِ اللَّهِ وَجَالِبٌ لِعُفْرَانِهِ.
- (٨) يَمْحُو اللَّهُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ السَّيِّئَاتِ.
- (٩) يُدْرِكُ الْمَرْءُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ.
- (١٠) حُسْنُ الْخُلُقِ مِنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ.
- (١١) حُسْنُ الْخُلُقِ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ مِمَّنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
- (١٢) حُسْنُ الْخُلُقِ يُحَرِّمُ جَسَدَ صَاحِبِهِ عَلَى النَّارِ.
- (١٣) حُسْنُ الْخُلُقِ يُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ النَّاسِ.
- (١٤) وَبِالْخُلُقِ الْحَسَنِ يَكْثُرُ الْمُصَافُونَ وَيَقِلُّ الْمُعَادُونَ.

(١) انظر «نصرة النعيم» الجزء (٥) رقم (١٥٨٦).

□ وهنا أمور تدل على حسن الخلق وإن كان بعضها واجب على المسلم، منها:

(أ) بر الوالدين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه) قيل من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»^(١).

قوله (رَغِمَ أنفه) معناه: لصق بالرغام وهو التراب، وهذا من النبي صلّى الله عليه وسلّم دُعاء، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه: صرعه الله لأنفه فأهلكه.

ثانيهما: أن يكون معناه: أذله الله؛ لأن من ألصق أنفه الذي هو أشرف أعضاء الوجه بالتراب، فقد نال الذل إلى الغاية القصوى.

قوله (عند الكبر) فلا شك أن برهما واجب في كل الأحوال، وإنما خصص عند الكبر لشدة حاجتهما ولضعفهما عن القيام بكثير من مصالحهما.

(ب) الحياء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الحياء من الإيمان،

(١) صحيح مسلم (٦٦٧٥)

والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء من النار»^(١).

اعلم حفظك الله بأن أعظم الحياء ينبغي أن يكون من الله تعالى الذي تتقلب في نعمه وإحسانه، ونحن تحت سمعه وبصره، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء.

ويتولد الحياء من: المعرفة بعظمة الله وجلاله وقدرته، فحيث ثبت تعظيم الله في قلب العبد، أورثه الحياء منه والهيبة والخشية، وظهرت للعبد حقيقة نفسه وضعفه، وأنه محتاج لواهب النعم، عاجز عن شكرها لكثرتها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ فالعاقل يشتغل بشكر ربه ويتقرب إليه بالأعمال الصالحة، ويخشى أن يكشف ستره ويخزيه في الأنام.

(ج) حق الجار:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

• شرح المفردات:

- إحسانا: براً وتكريماً بالقول والفعل.

الجار ذي القربى: الجار الملاصق في السكن.

الجار الجنب: البعيد مسكنه.

(١) ت ٢٠٠٩ صححه الألباني ١٦٣٤ صحيح سنن الترمذي.

الصاحب بالجنب: الرفيق الصالح في حضر أو سفر.

ابن السبيل: المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله .

وما ملكت إيمانكم: المملوكون من العبيد.

عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما: قالاً: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» متفق عليه.

هذا الحديث يُبين حق الجوار، ووجوب مراعاة ذلك، والتأكيد على حقه بالوصية يلزم ضرورة إكرامه والتودد والإحسان إليه ورفع الضر عنه وعيادته عند المرض وتهنئته عند المسرة وتعزيته عند المصيبة، وحتى ظن الرسول ﷺ أن يكون الجوار سبباً للإرث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه.

«البوائق» الغوائل والشرور.

فهذا الحديث الشريف فيه تحذير من إيذاء الجيران، وأن كف الشر عنهم من كمال الإيمان وكرم الأخلاق وحسنها.

□ مواقف وعبر:

هذا عبد الله بن المبارك^(١) رحمه الله تعالى يبكي رجلاً لسوء خلقه حيث صحب ابن المبارك رجلاً سيئ الخلق في سفر، فكان يتحمل منه ويداريه، فلما فارقه بكى، فقبل له في ذلك، فقال: (بكيته رحمه له فارقه وخلقه السيئ معه لم يفارقه).

ومن حسن تعامل ابن المبارك رحمه الله تعالى: أنه جاور يهودياً فأحسن إليه ووصله وأطعمه وكساه حتى أسلم اليهودي، وقال إن ديناً أخرج مثل ابن المبارك لهو دين حق وصدق.

قال ابن المبارك بحضور الناس: (أكره العصاة وأنا شر منهم، وأحب الصالحين ولست منهم) وهذا منه رحمه الله مواضع جم. تواضعُ جماً.

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة، تبسم وتلى قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ سورة الصافات.



(١) عبد الله بن المبارك- ترجمته.

المبحث السّابِعُ

الاستغفار

□ تمهيد:

الاستغفار مطهرة للقلب، وممحاة للذنوب، الاستغفار هو طلب العفو والمغفرة من الله تعالى، لينجو العبد من خزي الدنيا والآخرة، فإن الاستغفار يغسل الذنوب كما يغسل الماء البدن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٠]، فهو يُخلص العبد من ذنوبه ويرده إلى أصل فطرته، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، والله عز وجل يغفر الذنوب جميعاً بلا واسطة من أحد تكون بين الخالق والمخلوق.

وقد جاء الاستغفار في القرآن الكريم تارة منفرداً، وتارة مقروناً بالتوبة:

فالمنفرد: مثل قول الله تعالى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

والجمع بين التوبة والاستغفار: مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ

اللَّهُ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ المائدة. وقوله تعالى ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ هود.

قال العلماء رحمهم الله تعالى: فالاستغفار إذا جاء منفرداً، فإنه يعني طلب المغفرة ووقاية شر ما مضى من الذنوب، ويتضمن التوبة وهي الرجوع إلى الله تعالى [بفعل أو امره، وترك نواهيه].

قال ابن القيم: الاستغفار المنفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها^(١).

وقال أيضاً: (عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات وأعمال). اهـ ١ / ٣٠٨.

وقال السعدي رحمه الله تعالى: (الاستغفار: طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتب عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، وقد يجاب (دعاؤه وقد لا يجاب)^(٢)).

وقال شيخ الإسلام: (ومن المعلوم أن الله قد يغفر الذنوب بالتوبة وقد يغفرها بالחסنات أو المصائب، وقد يغفرها بمجرد استغفار العبد وسؤاله أن يغفر له، فهذه مغفرة من عنده)^(٣).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «والله إني لأستغفر الله

(١) مدارج السالكين ١ / ٣٠٧.

(٢) «خلاصة تفسير السعدي» ص (٢٠٢).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (ص ١١٥).

وأَتُوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١)، وفي رواية: (إنه يغان على قلبي وإنني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة).

هذا إرشاد لنا إذا كانت هذه حالة سيد الخلق، فكيف يجب أن تكون حالنا، فالاستغفار فيه إظهار لفقر العبد ونقصه بين يدي الله عز وجل، فتظهر حقيقة عبودية الإنسان لله تعالى بالاعتراف بالنقص والتقصير بطلب الاستغفار منه سبحانه وتعالى، وهذا أرجى لنزول الرحمة، فالقلب المنكسر الذليل النادم المنطرح على عتبة العبودية الخالصة لله أدعى لمنحها آياه.

واعلم رعاك الله أن أفضل أنواع الاستغفار كما قال العلماء رحمهم الله ما جمع بين الثناء على الله تعالى والاعتراف بتقصير العبد، مع حضور القلب، وهذا ما تضمنه حديث (سيد الاستغفار) فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني (سلسلة الصحيحة رقم ١٧٤٧).

قال ابن أبي حمزة في فيض القدير (٤/ ١٢٠):

قد جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ، ما يحق له أن يسمى [سيد الاستغفار] ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية

(١) البخاري كتاب الدعوات (٦٣٠٧) مسلم (٥/ ٥٥٣).

والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعد به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وأضافه النعماء إلى موجدتها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو.

□ الأسباب التي يغفر الله تعالى بها الذنوب:

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « قَالَ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئًا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. [سنن الترمذي ٣٨٨٥]

(١) الدعاء مع الرجاء، فإن الدعاء مأمور به موعود عليه بالإجابة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

(٢) الاستغفار: فلو عظمت الذنوب وبلغت عنان السماء وهو السحاب، ثم استغفر العبد ربه فإن الله يغفرها له، إن شاء تعالى قال عز وجل: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء) فإذا سلم العبد من الشرك فهو تحت مظلة ربه والرحمة موجودة له كما جاء في حديث أبي ذرٍّ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَيْضٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ », قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ « وَإِنْ

زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». ثَلَاثًا
ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ « عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ » قَالَ فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَقُولُ
وَإِنْ رَغَمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ. متفق عليه وهذا لفظ مسلم برقم (٢٨٣)

ويجب على المرء المذنب سرعة الاستغفار والعودة إلى الجادة،
وسرعة الاستغفار دليل إيمان وإخبات فإن الله تعالى ذكر صفات المؤمنين
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥] فالفاء في
قوله تعالى فاستغفروا تدل على الإسراع في الرجوع عن الذنب والندم
والتوبة.

(٣) التوحيد: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ١١٦].

التوحيد هو رأس المال وهو التجارة الرابعة مع الله تعالى وهو دليل
الولاية والمحبة ودليل الطاعة، فإن سَلِمَ توحيد العبد وإخلاصه لربه ظن به
الخير.

فكل الذنوب والخطايا والآثام، تذوب تحت حرارة التوحيد، وقد
وجد على مر العصور والآيام أن صاحب التوحيد الخالص، بعيد عن
الذنوب والخطايا والآثام، إلا ما كان خلصة يغير بها الشيطان على صاحب
هذا الصنف، ولكنه يرجع بالخزي والندامة، فإذا يجب تجديد التوحيد
فمخالفة التوحيد شنيعة ومآلها النار والعياذ بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ نَهَىٰ بِهِ الرَّيحُ فِي مَكَانٍ

سَجِقَ ﴿﴾ فهذه النصوص القرآنية لا تحتاج إلى مفسر ولا إلى إيضاح فالنص أوضح من الشمس في رابعة النهار، وهنا سؤال ما هو الشرك الذي هذا خطره^(١)؟.

□ من ثمرات الاستغفار وفوائده:

(١) تكفير السيئات ورفع الدرجات قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

بل إن الله تعالى ينادي عبده في الثلث الأخير من الليل قائلاً: «من يستغفرني فأغفر له» متفق عليه وعن أبي هريرة رضي الله عنه إن النبي صلی الله علیه وسلم قال: «إن الله عز وجل يرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه فيقول: باستغفار ولدك لك» رواه أحمد.

(٢) أنه سبب لدفع العذاب والمصائب ورفع البلياء: كما أن المعاصي والذنوب سبب لوقوع العذاب ونزوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣].

أما كون الاستغفار سبباً لرفع البلياء إذا نزلت بالعبد؛ فقد قال الله تعالى في شأن نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

(٣) أنه سبب لجلب الرزق وسعته والإمداد بالأموال والبنين: قال تعالى عن

(١) الرجوع إلى المبحث الثاني في هذه الرسالة.

نوح أنه قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾

نوح ١٠-١٢

(٤) أنه سبب لحصول القوة في البدن كما قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ

وَلَا تُلَوُّا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ هود: ٥٢

(٥) أنه يجلب رضى الله تعالى ومحبهه، وكفى بها نعمه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(٦) أنه سبب في تفريج الهموم وكشف الغمه:

لقوله ﷺ: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أحمد.

(٧) أنه سبب لجلاء القلب وتجديد إيمانه: فالذنوب لها آثار سيئة على القلب والاستغفار يمحو الذنب وأثره، فإذا ألم العبد بذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، وهذه النكت هي الران الذي ذكره الله تعالى في سورة المطففين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

□ أوقات يستحب فيها الاستغفار:

الاستغفار والتوبة مشروعان في كل وقت وحين، وهذا من فضل الله تعالى على الناس حيث جعل الباب مفتوحاً كما جاء في الحديث: «إن للتوبة باباً لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه ابن ماجه وحسنه الألباني، وكذلك الحديث: «إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه مسلم.

□ إلا أن هناك أوقات أرجى من أوقات، ومنها:

(١) عقب الذنب: وهو من أكد المواضع التي يستحب فيها الاستغفار ويشرع بل ويجب، وهو هنا اعتراف من العبد بالذنب وأمرة على التوبة يسأل ربه أن يمحو أثره، وقد قال آدم عليه السلام وزوجه حينما عصيا الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ الأعراف.

وكذلك موسى عليه السلام في سورة القصص، ويونس عليه السلام في سورة الأنبياء.

(٢) بعد الطاعات: التي يفعلها العبد فإن الله غني كريم .

وكان عليه السلام إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام». رواه مسلم

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشعورهم بتقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، ومن ذلك ما يقوم به العبد المسلم بعد الصلوات من الأذكار المعروفة).

٣- وقت السحر:

قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ آل عمران، وقال تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات].

٤- عند القيام من الليل للتهجد: فعن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم

إذا قام من الليل يتهجّد قال: «... فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» متفق عليه. وكذلك يستحب الاستغفار عند الخسوف والكسوف فقد قال ﷺ: «إذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره» متفق عليه.



شعار الأنبياء والصالحين

لقد كان الأنبياء والصالحون أسرع الناس إلى ما يأمر به الله تعالى ومن ذلك الاستغفار، فهي أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام لما خالفا أمر الله تعالى وأزلهما الشيطان ووقعا في الخطأ، بادرا بالاستغفار والتوبة والندم فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف] ونوح حين سأل الله أن ينجي ابنه عدّ هذا السؤال ذنباً يوجب الاستغفار: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ سورة هود.

وإبراهيم عليه السلام. يقول راجياً مغفرة مولاه ومعدداً إنعامه عليه قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ الشعراء: [٧٨-٨٢].

وها هو موسى ﷺ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ سورة القصص.

ويونس عليه السلام ينادي ربه وهو في الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء.

وداود عليه السلام يقول الله في شأنه: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتْنَةٌ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ [ص: ٢٤].

وسليمان عليه السلام يدعو فيقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ ص ٣٥.

وها هو محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في البخاري يقول عن نفسه: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وها هو أفضل الأمة بعد نبيها عليه السلام أبو بكر يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدلّه على دعاء يرجو به الله تعالى فيعلمه رسول الله أن يقول: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» متفق عليه.

وعمر رضي الله عنه يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له، فيقول: «يا رسول الله استغفر لي» متفق عليه.

وهذا كان هدي الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك طريق التابعين، العودة إلى الله ورجاء رحمته وغفرانه، فإذا كانت هذه حالة المقربين من الأنبياء والمرسلين والصالحين فجدير بنا نحن المقصرين سرعة العود لعل الله تعالى يشملنا برحمته وغفرانه، وأن يتجاوز عن سيئاتنا .

وصلى الله على سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



المبحث الثامن

التوبة

□ تمهيد:

إن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وعن السيئات إلى الحسنات، رجوع من طريق الشيطان، إلى طريق الرحمن، إحساس بالندم على الفعل القبيح، تألم في النفس، حنين إلى الرحمن، هروب من الوحشة إلى الأُنس بالله تعالى، تذلل وخضوع للمعبود، محبة وتعظيم، وقوف بين يديه موقف الفقير الخائف المنكسر لعل الله يقبله فيجبر كسره، ويغشاه برحمته إن شاء فهو كريم .

قال الله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ هود.

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ .

والآيات في التوبة كثيرة:

ومن أعظم البشارات للتائبين قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٠]. فهذا التبديل في حق من ندم على فعله، وجعله نصب عينيه فأصبح وجلاً في نفسه كلما ذكره ازداد خوفاً وتأسفاً وحياءاً من الله، وسارع إلى الأعمال الصالحة لعلها تكون هذه بتلك، فصاحب النفس اللوامة ما يزال يتجرع مرارة الفعلة من تقصيره في جنب الله، فلعل ذلك الذنب يكون سبباً في أعمال صالحة ماحية لتلك القاذورات التي اقترفها وأعانه شيطانه ثم تخلي عنه وتركه بلا سلاح، إلا من رحمة الله تعالى فإذا عاد إليه فإنه سبحانه واسع المغفرة قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۝﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

• في الحديث الشريف:

عن الأغر بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»^(١).

□ وجوب المسارعة إلى التوبة:

التوبة واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها ولا التسويف بها، وذلك لعدة أمور:

أحدها: لأن العبد لا يدري ماذا يحصل له بالتأخير، فلعله أن يفجأ الموت فلا يستطيع التوبة.

(١) رواه مسلم ٢٧٠٢.

الثاني: ولأن تأخير التوبة يوجب قسوة القلب وبعده عن الله تعالى وضعف إيمانه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب صقل قلبه. وإن عاد زيد فيها حتى تعلوا قلبه وهو الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

الثالث: الإصرار على المعصية يوجب إلفها والتعلق بها، فإن النفس إذا اعتادت على شيء صعب عليها فراقه، وسيطر الهوى وحبها على قلبه وجوارحه، وتبلد إحساسه وماتت همته وغيرته، فتصغر المعصية في عينه وإن كانت كبيرة، ويصبح الأمر مألوفاً لديه، نعوذ بالله من الخذلان.

ولهذا فإن الله تعالى علق قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فدلت هذه الآية الكريمة (على أن المتقين قد تقع منهم المعصية أحياناً، لكنهم لا يصرون عليها، بل يذكرون الله تعالى عقب وقوعها، ويتألمون لتقصيرهم فيلجأون إلى الله فيستغفرونه ويتوبون إليه منها، فيفضل عليهم بالتوبة إذا علم صدقهم فهو علام الغيوب).

□ شروط التوبة:

والتوبة التي أمر الله بها هي التوبة النصوح التي تشمل على شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالى:

بأن يكون الدافع له هو الإخلاص، لا يحمله على التوبة عجزاً أو مرءات للناس، بل يندم على الإسراف، ويتذلل بين يدي الملك العلام الكريم تعالى شأنه.

ثانياً الندم:

يعني أن يندم الإنسان ويتأسف على ما وقع منه من الذنب، يتمنى أنه لم يحصل منه، ويراه أمراً كبيراً يرغب في الهروب منه ولا يحب ذكره.

الثالث: الإقلاع عن المعصية:

فإن كانت المعصية بفعل محرم تركه في الحال، وإن كانت المعصية بترك واجب فعله في الحال، فالإنسان الذي يدعي التوبة وقلبه منطوي على فعل المعصية فإن توبته لا تصح، بل هو كذاب، يخدع نفسه ويتمنى وليس بمدرک شيء.

الرابع: العزم على عدم العودة:

فإن تاب وترك الذنب ولكن في قلبه حنين ونفسه تطلبه فإذا جاءت فرصه عاد إلى ذنبه؛ فإن التوبة لا تصح منه: فالمقصود هو الندم وعدم العود إلى تلك الفعل المذمومة في الشرع أبداً مستعيناً بربه ومولاه.

الشرط الخامس: إن تكون وقت قبول التوبة:

أن تكون قبل انتهاء القبول ووقت القبول نوعان: عام لكل الناس، وخاص لكل شخص بنفسه:

فالعام: هو طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها لم تنفع التوبة وطلوعها من علامات القيامة الكبرى.

أما الخاص: فهو عند حضور الأجل، فمتى حضر أجل الإنسان وعاین الموت لم تنفعه التوبة ولم تقبل منه؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨].

الشرط السادس: رد الحقوق إلى أهلها:

إذا كانت المعصية فيما يتعلق بحقوق الخلق لم تصح التوبة حتى يتخلص من تلك الحقوق، فعن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات أخيه فطرحته عليه».

وحقوق الناس على بعضهم البعض إما أن تكون أكل أموال الناس بالباطل ظلماً، أو التطاول على الأعراض بالغيبة والنميمة والاستهزاء والاحتقار، وكل أمور مستقبحة يجب أن يترفع عنها التقى المراقب لله تعالى، يرجو السلامة والنجاة بنفسه.

وقبل الختام أرى لا بد من التعرف على علامات صحة التوبة، لعلها فينا فنزداد اندفاعاً وتفتح لنا باب الرجاء والأمل .

(١) من علامات صحة التوبة: رقة القلب وانكساره، قلب يتأثر، قلب حساس وإن غطته سحابة الغفلة، فإنه ينبض، يرغب بالعودة إلى سبيل الرشاد، يحتاج إلى مساعدة فهنيئاً لمن أخذ بيده ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ .

(٢) غزارة الدمع تحسراً على التفريط: فانطلقت بماء منهمر من منبع صغير لكن الجود من الموجود كما يقال في الأمثال، وفي الأثر عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». اعتراف بالذنب: وقعت لا يمكن إنكارها، كبوة حصان لكنها مؤلمة.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وفي الختام: قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التوبة.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ آل عمران.

قبول التوبة ممن قتل مائة

□ مواقف وعبر:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض؟ فذللّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة، فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فذللّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، فإنها بها أناساً يعبدون الله عز وجل، فاعبد الله تعالى معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى الله عز وجل، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاوسوا^(١) فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقَبَضَتْهُ

(١) في «مسلم»: «فقاوسوه».

ملائكة الرحمة». قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء^(١) بصدرة. (م/١٠٣ - ١٠٤).



(١) أي نهض وتقدم ليقرب من الأرض الصالحة، ويجوز تقديم الألف على الهمزة وعكسه. و(الحسن) هو البصري التابعي الجليل الشهير، وقوله هذا قد جاء مرفوعاً عند مسلم في بعض طرقه بلفظ: «فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فناء بصدرة، ثم مات فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها، وزاد في رواية: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي».

المبحث التاسع

الحذر من البدعة

□ تعريف البدعة:

البدعة لغة: الاختراع على غير مثال سابق، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة] أي مخترعها.

واصطلاحاً: ما أحدث من الدين من غير دليل شرعي من الاعتقادات والعبادات المحدثّة في الدين.

وقيل: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى، وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة.

خطر البدعة: إن البدع والمحدثات في الدين لها خطورة عظيمة وآثار سيئة على الفرد والمجتمع بل وعلى الدين كله أصوله وفروعه، وهي معول هدم في الدين وتطاول على مقام النبوة مصدر التلقي والتشريع، قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»^(١).

(١) البخاري (٥ / ٣٠١).

• فائدة هامة: البدعة الحقيقية وإضافية:

قال الشاطبي: ما ملخصه: إن البدعة الحقيقية هي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم لا في الجملة ولا في التفصيل، ولذلك سميت بدعة لأنها شيء مخترع على غير مثال سابق، ومثالها التقرب إلى الله تعالى بالرهبانية وترك الزواج مع وجود الداعية له.

أما البدعة الإضافية، كما يؤخذ من كلام الشاطبي رحمة الله تعالى فهي التي لها شائبتان أحدهما: لها من الأدلة متعلق، فلا تكون من تلك الجهة بدعة، والأخرى: ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، فلما كان العمل الذي له شائبتان لم يتخلص لأحد الطرفين وضعنا له هذه التسمية وهي (البدعة الإضافية)، مثالها الصلاة والسلام عقب الأذان مع رفع الصوت بهما، وجعلهما بمنزلة ألفاظ الأذان أو التأذين لصلاة العيدين أو الكسوف فالأذان أصله مشروع لكن في هذا الموضعين بدعة.

□ خطورة البدع:

(١) إنها قول على الله بغير علم.

(٢) إنها شرع في الدين بما لم يأذن به الله تعالى.

(٣) أن المبتدع ينصب نفسه مستدركاً على الشريعة والله تعالى قد أكمل دينه وأتم نعمه على عباده قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

(٤) وقوع المبتدع في الفتنة بسبب مخالفته السنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(٥) انعكاس مفاهيم المبتدعة حيث تلتبس عليهم الأمور بسبب الشبه، فيرون البدعة سنة والسنة بدعة.

(٦) المبتدع يحمل وزره ووزر كل من تبعه، قال رسول الله ﷺ «من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

(٧) البدعة بريد الكفر.

(٨) سوء العاقبة للمبتدع ما لم يتب إلى الله تعالى ويرجع.

(٩) البدعة تؤدي إلى تفريق كلمة الأمة وتشتيت شملها وتمزيق صفوفها، وذلك لدخول الرغبات والأهواء، وهذا الحال قد ذمه الله تبارك وتعالى حيث قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام.

(١٠) أنها تكون سببا في حرمان أهلها من الشرب من حوض النبي ﷺ، كما في حديث سهل بن سعد الأنصاري وغيره عند البخاري «أنا فرطكم على الحوض».

(١) البخاري ١ / ٦٦ م ٧ / ٦٦.

□ أسباب البدع:

- (١) الجهل بالكتاب والسنة ومنهج السلف.
- (٢) اتباع الهوى، والرغبات وحب الظهور.
- (٣) التعلق بالشبهات.
- (٤) الاعتماد على العقل المجرد والاستحسان من غير دليل شرعي.
- (٥) تقليد شيوخ الضلال الذي يؤدي بصاحبه إلى التعصب لقوله وبدعته فيرد الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة.

□ حكم البدعة وأنواعها:

من تأمل الكتاب والسنة وجد أن البدع في الدين محرمة ومردودة على أصحابها، ومن المعلوم أن النهي عن البدع قد ورد على وجه واحد في قول النبي ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»^(١).

وقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٢).

فدل الحديثان على أن كل محدث في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة مردودة. ومعنى ذلك: أن البدع في العبادات والاعتقادات محرمة، ولكن التحريم يتفاوت بحسب نوع البدعة.

فمنها: ما هو كفر صريح، كالطواف بالقبور تقريباً إلى أصحابها،

(١) البخاري/ (٢٤٩١٣)، مسلم (٢/ ٥٩٢٣).

(٢) ج ٥ / ٣٠١ م ١٣٤٣١٣.

وتقديم الذبائح والنذور لها ودعاء أصحابها والاستعانة بهم.

ومنها: ما هو فسق اعتقادي كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة في أقوالهم واعتقاداتهم المخالفة للأدلة الشرعية، وقد ردّ أهل السنة والجماعة على هذه الفرق قديماً وحديثاً والحمد لله وبينوا الحق المبين، ومن أراد التفصيل في ذلك فعليه الرجوع إلى كتاب شرح الطحاوية، والتدمرية، وكتاب التوحيد وغيرها من كتب العقيدة الصحيحة.

ومن أنواع البدع كذلك ما هو من وسائل الشرك، كالبناء على القبور والصلاة والدعاء والذبح والنذر لها.

ومن أنواعها كذلك: ما هو معصية، كبدعة التبتل (عدم الزواج) وصيام الدهر والقيام في الشمس .

ومن الواجب التنبيه على الفرق بين الابتداع في الدين وبين الاكتشافات العلمية التي جعلها بعضهم من البدع ومنها ركوب السيارة والكهرباء وغيرها، وهي أمور مباحة كما جاء في الأثر «أنتم أعلم بشئون دنياكم».

ومن المعلوم أن هناك خلط بين الابتداع في الدين وبين الاكتشافات العلمية فبعض الناس ظن أن ركوب السيارات واستخدام الكهرباء وغيرها من البدع!! وهذا فهم سيء وصاحب هذا الفهم يخلط الأوراق لكي يبرر لنفسه الابتداع وأنه جائز، وهذا فهم سيء ووسيلة خبيثة لهدم أركان الدين وتناول على الشريعة وعلى رسولها الأمين ﷺ .

المبحث العاشر

دفاع الله عن أوليائه^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إن الله تعالى قال: من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قال ابن حجر رحمّه الله: وقد وقع في بعض طرقه أن النبي صلّى الله عليه وآله حدث به عن جبريل عن الله عز وجل وذلك في حديث أنس.

قوله: «من عادي لي ولياً» المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وقد استشكل وجود أحد يعاديه، حيث من شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، لكن قال ابن حجر رحمه الله: قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر

(١) انظر رسالتي المطبوعة «من صفات أولياء الرحمن».

الصدق، والمبتدع في بغضه للسني، والفاسق المجاهر يبغض الولي
لإنكاره عليه وملازمته لنهيهِ عن شهوته.

«فقد آذنته» أي: أعلمته والإيذان الإعلام.

«بالحرب» في رواية «بحرب» وفي حديث ميمونة: «فقد استحل
محاربتني» وفي رواية معاذ: «فقد بارز الله بالمحاربة» وفي حديث أبي
أمامة وأنس: «قد بارزني» قال ابن حجر رحمه الله: «في هذا تهديد شديد
لأن من حاربه الله أهلكه...» ونقل أقوالاً أخرى منها: «لما كان ولي الله
من تولى الله بالطاعة والتقوى، تولاه الله بالحفظ والنصرة».

«وما تقرب لي عبي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه» يدخل تحت
هذا اللفظ جميع فرائض الأعيان والكفاية كصلاة الجنازة مثلاً، وظاهره
الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته، وفي دخول ما أوجبه المكلف على
نفسه كالنذر نظر للتقييد بقوله: «افترضت عليه» إلا أن أخذ من جهة المعنى
الأعم، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله.

«وما زال» وفي رواية: «وما يزال».

«يتقرب» التقرب طلب القرب، وقرب العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه،
ثم إحسانه.

ووقع في حديث أبي أمامة: «يتحبب إليّ» بدل: «يتقرب».

«بالنوافل حتى أحبه» وفي رواية «أحبه» قال ابن حجر رحمه الله:
«ظاهره أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنوافل».

وقد استشكل بما تقدم:

أولاً: أن الفرائض أحب العبادات المتقرب بها إلى الله فكيف لا تنتج المحبة؟

والجواب: أن المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها، ولا قيمة لنافلة إلا بعد أداء الفرض، ويؤيده أن في رواية أبي أمامة «ابن آدم إنك لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك».

وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى... إلى أن قال ابن حجر رحمه الله: فقد جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب كالهدية والتحفة بخلاف ما يؤدي ما عليه من إخراج أو يقضى ما عليه من دين».

وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض، كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم: «انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته...» الحديث بمعناه فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخلّ بها.

«فكنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وفي رواية عائشة رضي الله عنها: «عينه التي يبصر بها». وكما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] فظهر توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه

عليه، ويعصمه عن مواجهة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله... إلى أن قال: وقال بعضهم: لا تتحرك له جارحة إلا في الله ولله، فهي كلها تعمل بالحق للحق، فوافق سمع المخلوق لمراد الخالق وكذلك سائر الأعضاء.

«وإن سألتني» زاد في رواية عبد الواحد: «عبدني».

قوله: «أعطيته» أي: ما سألت «ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّهُ» والمعنى أعذته مما يخاف، وفي الحديث عظم قدر الصلاة، فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وربّه، ولا شيء أقرّ لعين العبد منها، ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح.

«وما ترددت في شيء أنا فاعله...» الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة^(١)، وهو أشرف حديث روي في الأولياء، وقد ردّ هذا الكلام طائفة وقالوا: أن الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد كمن لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب.

والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحد أعلم بالله من رسوله ولا

أنصح لأمته منه، ولا أفصح ولا أحسن بياناً منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوأهم أدباً، بل يجب تأديبه وتغزيه، ويجب أن يسان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم هذا باطل، فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه ويكره من وجه، وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح «حَقَّتْ النار بالشهوات، وحَقَّتْ الجنة بالمكارة» وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦].

ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في هذا الحديث فإنه قال: «لا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه». فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوباً للحق محباً له، يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة بحيث يحب ما يحبه محبوبه ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه،

والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريد به ولا بدّ منه، فالرب يريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مراداً للحق من وجه مكروهاً له من وجه، وهذا حقيقة التردد وهو: أن يكون الشيء الواحد مراداً من وجه مكروهاً من وجه وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين، كما ترجح إرادة الموت، ولكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته... هذا ما نص عليه شيخ الإسلام رحمه الله .

□ بعض ما خُصَّ به الأولياء

- ١- كلام الله ورؤيته يوم القيامة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] .
- ٢- الود والمحبة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦] .
- ٣- مكانة عالية في الدارين: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١] .
- ٤- كرامة وعزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقين: ٨] .
- ٥- معية خاصة دون الخلق: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨] .
- ٦- آمنهم من الخوف والحزن: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨] .

- ٧- يدافع عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].
- ٨- الفضل والأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].
- ٩- أمر ملائكته بتبئيتهم: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].
- ١٠- استغفار حملة العرش: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].
- ١١- يعطيهم نوراً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].
- ١٢- الهداية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].
- ١٣- الشفاعة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [يونس: ٩] يعني: قول لا إله إلا الله.
- ١٤- البشرى: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].
- ١٥- إصلاح الأعمال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].
- وهناك فضائل وخصائص تفضل بها الله تعالى على أوليائه لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين.

أهم المصادر والمراجع

أولاً رسالة: دعوة إبراهيم الخليل ﷺ :

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- جامع البيان في تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري .
- ٣- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء ابن كثير .
- ٤- تفسير أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .
- ٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي .
- ٦- فتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني .
- ٧- بدائع التفسير للإمام ابن قيم الجوزية بعناية يسري السيد .
- ٨- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي .
- ٩- صحيح الإمام البخاري مع الفتح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري .
- ١٠- صحيح الإمام مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري .
- ١١- كتب السنن .
- ١٢- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية كتاب بالإيمان المجلد (٧) .
- ١٣- شرح العقيدة الطحاوية - المكتب الإسلامي .
- ١٤- كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ .
- ١٥- تيسير العزيز الحميد للعلامة سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

- ١٦- القول المفيد شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ .
- ١٧- السيف القاطع للنزاع لمحمد الموزق الفلاتي، تعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري.
- ١٨- بدائع الفوائد لابن القيم.
- ١٩- تهذيب لسان العرب لابن منظور.
- ٢٠- أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية.
- ٢١- صحيح قصص الأنبياء لأبي الفداء ابن كثير تحقيق سليم الهلالي.
- ٢٢- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله للشيخ الدكتور ربيع المدخلي.
- ٢٣- دعوات الأنبياء للشيخ محمد الداودي.
- ٢٤- اقتضاء الصراط المستقيم/ لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. ناصر العقل.
- ٢٥- الجامع الفريد/ يحتوي على كتب ورسائل أئمة الدعوة/ توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة.
- ثانياً رسالة: آباء وأبناء في القرآن الكريم:
- ٢٦- تفسر القرآن العظيم لأبي الفداء ابن كثير.
- ٢٧- تفسير الإمام الطبري رحمه الله تعالى.
- ٢٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي رحمه الله تعالى.
- ٢٩- بدائع التفسير للإمام ابن القيم الجوزية تحقيق يسري السيد محمد.
- ٣٠- فتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني.
- ٣١- أضواء البيان للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى.

- ٣٢- المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني .
- ٣٣- صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى .
- ٣٤- صحيح الإمام مسلم .
- ٣٥- كتب السنن الستة .
- ٣٦- صحيح قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق سليم الهلالي .
- ٣٧- الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر طبعة (١٩٨٣) .
- ٣٨- تنوير العباد بطرق التعامل مع الأولاد (د. حامد المطيري) .
- ٣٩- دعوات الأنبياء للشيخ محمد الداودي .
- ٤٠- إبراهيم عليه السلام أباً (د. فضل إلهي) .
- ٤١- مراهقة بلا أزمة (د. أكرم رضا) .
- ثالثاً رسالة: نظرات في سورة الكهف:
- ٤٢- القرآن الكريم
- ٤٣- تيسير الكريم الرحمن تفسير كلام المنان للسعدي رحمه الله .
- ٤٤- تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى .
- ٤٥- أضواء البيان للشنقيطي .
- ٤٦- التفسير القيم لابن القيم .
- ٤٧- تفسير القرطبي رحمه الله تعالى .
- ٤٨- فتح القدير للشوكاني .
- ٤٩- صحيح الإمام البخاري .
- ٥٠- صحيح الإمام مسلم .
- ٥١- كتاب السنن ومسند الإمام أحمد .

- ٥٢- «أهل الكهف» لمحمد تيسير ظبيان رَحِمَهُ اللهُ ، دار الاعتصام ١٩٧٨ م .
- ٥٣- معجزة القرآن إعداد أحمد زين الدين ، الناشر : مكتبة التراث الإسلامي .
- ٥٤- دروس وفوائد من القرآن وعلومه ، زين بن محمد الرماني .
- ٥٥- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية .
- ٥٦- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الرويشد .
- رابعاً رسالة : الحنان في سيرة سيد الأنام :**
- ٥٧- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض .
- ٥٨- الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف . لمحمد العاقولي .
- ٥٩- أخلاق النبي ﷺ لطفه عبد الرؤوف سعد وغيره - مكتبة الصفا .
- ٦٠- الحبيب محمد ﷺ يتحدث عن نفسه / محمد صديق المنشاوي (دار الفضيلة) .
- ٦١- صفة ضحك وبكاء النبي ﷺ ومزاحه مع أصحابه / أحمد مصطفى الطهطاوي .
- ٦٢- الانتصار للنبي المختار ﷺ / سعد بن شايم الحضيري .
- ٦٣- حب النبي ﷺ وعلاماته / د . فضل إلهي .
- ٦٤- هدي محمد ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه / د . أحمد بن عثمان المزيد .
- ٦٥- الشمائل المحمدية / محمد بن جميل زينو .
- ٦٦- بحوث ودراسات في السيرة النبوية / د . الأمين بن محمد الجكني .
- ٦٧- هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب / للشيخ أبي بكر الجزائري .
- ٦٨- السيرة النبوية والغزوات / تأليف الشيخ محمد علي مشعل .

خامساً رسالة: خطاب الكريم للبشير النذير:

- ٦٩- الكتاب العزيز الكريم .
- ٧٠- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير/ تحقيق محمد الرفاعي دار لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م .
- ٧١- أضواء البيان الجزء (١٠) لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي طبعة (١٩٨٣م) .
- ٧٢- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية جمع وتحقيق يسري السيد محمد - دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
- ٧٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن السعدي - الجزء السابع - طبع ونشر الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد في المملكة ١٤٠٤هـ .
- ٧٤- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي - المجلد ١٩ - ٢٠ - الناشر دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م .
- ٧٥- جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - مجلد .
- ٧٦- المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني .
- ٧٧- التفسير القيم للإمام ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، ١٩٧٨م
- ٧٨- فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري المجلد ٩ - نشر وتوزيع دار البحوث العلمية بالمملكة .
- ٧٩- عجائب القرآن للرازي - دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٨٤م .
- ٨٠- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية - عالم الكتب .

- ٨١- دراسات في علوم القرآن - د. محمد بكر إسماعيل ، دار المنار
الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
- ٨٢- القرآن الكريم تاريخه وآدابه - إبراهيم على عمر - مكتبة الفلاح ١٩٨٤ م.
- سادساً رسالة: الدعوة في الرفق والحزم:
- ٨٣- القرآن الكريم.
- ٨٤- كتب السنن.
- ٨٥- الحكمة في الدعوة/ الشيخ سعيد بن علي القحطاني الطبعة الثانية ١٩٩٢
- ٨٦- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل/ الشيخ
ربيع بن هادي المدخلي/ ١٩٨٦ م.
- ٨٧- كلنادعاة/ الشيخ عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي - دار الطرفين ١٤٢٦ هـ.
- ٨٨- مقومات الداعية الناجح، الشيخ سعيد القحطاني الطبعة الأولى سنة
١٩٩٤
- ٨٩- الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ / إسماعيل بن كثير/
الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ.
- ٩٠- الدعوة إلى الإسلام مضامينها وميادينها، عبد الكريم الخطيب/
دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٢ م.
- ٩١- أصول الدعوة/ عبد الكريم زيدان/ المثار الإسلامية ١٩٨١ م.
- ٩٢- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ/
بإشراف الشيخ (د. صالح بن عبد الله بن حميد).

سابعاً رسالة: من صفات أولياء الرحمن:

- ٩٣- الكتاب العزيز
- ٩٤- تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ [حُسن التحرير للشيخ محمد النجدي].
- ٩٥- تفسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير للشيخ نسيب الرفاعي.
- ٩٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي رَحِمَهُ اللهُ.
- ٩٧- تفسير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
- ٩٨ - بدائع التفسير للإمام ابن قيم الجوزية تحقيق يسري السيد محمد.
- ٩٩ - الطحاوية، التدمرية.
- ١٠٠ - صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ.
- ١٠١ - صحيح الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ.
- ١٠٢- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.
- ١٠٣- الصراع بين الحق والباطل لسعد صادق محمد رَحِمَهُ اللهُ.
- ١٠٤ - الجواب الكافي لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.
- ١٠٥ - جبال الذنوب وسيل الغفران لمحمد يونس عبد الستار.
- ١٠٦ - الذنوب وأثرها السيئ للشيخ إبراهيم الحازمي.
- ١٠٧- جواهر صفة الصفوة لأحمد سالم.
- ١٠٨- قرّة عيون الموحدين في الصلاة الخاشعة. لأحمد بن محمد الحواش.

فهرس الموضوعات

- مقدمة (نقل الخطى مع بدور الهدى) ٥
- ترجمة المؤلف ٧
- شيوخه ٨
- الأماكن التي عمل فيها ١١

(١) «دعوة إبراهيم عليه السلام»

□ ص ١٥ : ص ١٠٤ □

- مقدمة الطبعة الأولى ١٥
- مقدمة الطبعة الثانية ١٩
- إبراهيم عليه السلام ٢١
- مناقبه عليه السلام ٢٢
- لماذا النزاع؟ ٢٦
- حوار إبراهيم مع أبيه في القرآن الكريم ٢٧
- حوار إبراهيم مع أبيه وقومه ٣٢
- المعجزات ٣٦
- قومه يسعون في الكيد له ٤٢
- إبراهيم عليه السلام يغضب لله ٤٣
- الفرار بالدين فهو أعلى ما يملك ٤٥

- البيت العتيق ٤٧
- الولاء والبراء ٥٠
- ابتلاءات: ٥٦
- الموقف الأول ٥٦
- الموقف الثاني ٥٦
- الموقف الثالث ٥٧
- أدعية إبراهيم الخليل عليه السلام ٥٩
- الهبات التي حصل عليها والمكافآت من ربه ٦٦
- مواقف تربوية في حياة الخليل عليه السلام ٦٨
- الموقف الأول: طلبه الذرية الصالحة التي تحمل همّ هذا الدين ٦٨
- الموقف الثاني: الخوف من الشرك ٧٠
- الموقف الثالث: أهمية الصلاة في منهج الخليل عليه السلام ٧٢
- الموقف الرابع: غبطة الخليل عليه السلام بهذه الملة ٧٤
- الموقف الخامس: الخليل عليه السلام يدعو الله أن يكون معلمهم منهم ٧٥
- الموقف السادس: وصية الخليل عليه السلام لذريته ٧٧
- الموقف السابع: أهمية البيئة الصالحة ٧٨
- الموقف الثامن: أكل الحلال ودوره البارز ٧٩
- المحور التاسع: الأمن ودوره في الحياة ٨١
- الموقف العاشر: الخليل عليه السلام سن قانونا للبشرية ٨٣
- الموقف الحادي عشر: المحبة ونشر الدعوة ٨٦
- أدب الابن مع أبيه ٨٧
- ومما يستفاد من المواقف السابقة ٨٩
- الجبار ينتصر لخليله عليه السلام ٩٠
- الوصية باتباع الخليل عليه السلام ٩١
- دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد ٩٣

- هل التوحيد يستحق كل هذا ؟ ٩٦
- خطورة الشرك ٩٩
- ما ينافي التوحيد ١٠٤



(٢) «آباء وأبناء في القرآن الكريم»

□ ص ١١٧ : ص ١٢٦ □

- المقدمة ١١٧
- (١) نوح عليه السلام وابنه ١٢١
 - ومن أعظم ما يستفاد من هذه القصة: ١٣٠
- (٢) إبراهيم عليه السلام ١٣١
 - المحور الأول: طلبه المزيد من فضل الله ومن الذرية الصالحة التي تحمل هم هذا الدين إلى يوم القيامة. ١٣٢
 - المحور الرئيسي الثاني: الخوف من الشرك: ١٣٣
 - المحور الثالث، أهمية الصلاة في منهج الخليل عليه السلام. ١٣٤
 - المحور الرابع غبطة الخليل عليه السلام بهذه الملة له ولذريته ١٣٦
 - المحور الخامس، الخليل عليه السلام يدعو الله أن يكون معلمهم منهم: ١٣٧
 - المحور السادس: وصية الخليل عليه السلام لذريته: ١٣٨
 - المحور السابع أهمية البيئة الصالحة: ١٣٩
 - المحور الثامن أكل الحلال ودوره البارز: ١٤٠
 - المحور التاسع، الأمن ودوره في الحياة: ١٤١
 - المحور العاشر: الخليل عليه السلام يسن قانونا للبشرية في أهمية المشاورة... ١٤٢

- المحور الحادي عشر: المحبة ونشر الدعوة: ١٤٥
- أدب الابن مع أبيه ١٤٦
- ومما يستفاد من المواقف السابقة: ١٤٨
- (٣)، (٤) يعقوب ويوسف عليهما السلام ١٤٩
- تصوير للموقف من جانب آخر: ١٥٠
- مواقف تربوية: ١٥١
- فوائد في قصة يوسف: ١٥٣
- (٥) موسى عليه السلام وأمه ١٥٥
- مواقف وعبر: ١٥٦
- (٦)، (٧) داود وسليمان عليهما السلام ١٥٧
- داود عليه السلام ١٥٧
- مواقف وعبر ١٥٨
- (٨) زكريا عليه السلام ١٥٩
- ومما يستفاد من قصة زكريا عليه السلام بعد تلك الأدلة: ١٦١
- (٩) مريم وعيسى عليهما السلام ١٦٣
- من المواقف التربوية التي يمكن أن نستفيد منها ١٦٤
- (١٠) لقمان عليه السلام ١٦٦
- مواقف تربوية من قصة لقمان عليه السلام ١٧١
- درر من وصية لقمان: ١٧١
- (١١) من المواقف التربوية في حياة الرسول ﷺ ١٧٣
- ومن وصايا الرسول ﷺ: ١٧٣
- نصائح عامة ١٧٥

(٣) «نظرات في سورة الكهف»

□ ص ١٨٧ : ص ٢٧٠ □

- تقديم وتقرير ١٨٧
- مقدمة الطبعة الثانية ١٨٩
- مقدمة الطبعة الأولى ١٩١
- توطئة ١٩٧
- منهج المؤلف ١٩٩
- مصدر فضائلها ٢٠٠
- أسباب النزول ٢٠٢
- مكان الكهف ٢٠٤
- خلاصة قصة أصحاب الكهف ٢٠٦
- تفسير سورة الكهف ٢٠٩
- تفسير الآيات من ١ - ٥ ٢١١
- تفسير الآيات من ٦ - ٨ ٢١٥
- تفسير الآيات من ٩ - ١٢ ٢١٨
- تفسير الآيات من ١٣ - ١٥ ٢٢١
- تفسير الآيات من ١٦ - ١٨ ٢٢٣
- تفسير الآيات من ١٩ - ٢١ ٢٢٧
- تفسير الآيات من ٢٢ - ٢٦ ٢٣١
- تفسير الآيات من ٢٧ - ٣١ ٢٣٤
- تفسير الآيات من ٣٢ - ٣٦ ٢٣٨
- تفسير الآيات من ٣٧ - ٤١ ٢٤٠
- تفسير الآيات من ٤٢ - ٤٤ ٢٤٢

- تفسير الآيات من ٤٥ - ٤٩ ٢٤٤
- تفسير الآيات من ٥٠ - ٥٢ ٢٤٧
- تفسير الآيات من ٥٣ - ٥٦ ٢٥٠
- تفسير الآيات من ٥٧ - ٥٩ ٢٥٢
- تفسير الآيات من ٦٠ - ٧٠ ٢٥٤
- تفسير الآيات من ٧١ - ٧٧ ٢٥٨
- تفسير الآيات من ٧٨ - ٨٢ ٢٦١
- تفسير الآيات من ٨٣ - ٨٨ ٢٦٣
- تفسير الآيات من ٨٩ - ٩٨ ٢٦٥
- تفسير الآيات من ٩٩ - ١٠٢ ٣٦٨
- تفسير الآيات من ١٠٣ - ١٠٦ ٣٦٩
- تفسير الآيات من ١٠٧ - ١١٠ ٢٧٠



(٤) «الحنان»

□ ص ٢٧٥ : ص ٣٢٣ □

- مقدمة ٢٧٥
- الحنان ٢٧٨
- تعريف الحنان لغة واصطلاحاً ٢٧٨
- آيات ورد فيها لفظ الحنان ٢٧٩
- آثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في معنى (الحنان) ٢٧٩
- هل الحنان اسم من أسماء الله ﷻ ٢٧٩
- محمد سيد الأنام ﷺ ٢٨١
- بعض أوصافه ﷺ كما وصفها أصحابه ٢٨١

- أمه ﷺ ٢٨٤
- ميلاده ﷺ : ٢٨٤
- مرضعته ﷺ ٢٨٥
- وفاة أمه ﷺ وكفالة جده ثم عمه ٢٨٧
- مكانته ﷺ عند الآخرين ٢٨٩
- الرسول ﷺ رحمة للعالمين ٢٩١
- امتنان الله تعالى بمبعثه ﷺ على المؤمنين ٢٩٤
- أحاديث شريفة تبين رحمته ﷺ ٢٩٨
- شفقتة ﷺ على الأمة ٢٩٩
- رحمته ﷺ بأصحابه ٣٠١
- رحمته ﷺ بالنساء ٣٠٥
- رحمته ﷺ بالضعفاء ٣٠٧
- رحمته ﷺ بالصغار ٣٠٩
- رحمته ﷺ بالحيوان ٣١١
- رحمته ﷺ بالجمادات ٣١٣
- حقه ﷺ على أمته ٣١٥
- وفاة رسول الله ﷺ ٣١٧
- شفاعته ﷺ ٣٢٠
- من فوائد معرفة «الحنان» ٣٢٣



(٥) «خطاب الكريم للبشير النذير»

□ ص ٣٢٧ : ص ٤٤٩ □

٣٢٧	مقدمة الطبعة الثانية	□
٣٢٩	مقدمة الطبعة الأولى	□
٣٣٢	مع الكتاب العزيز	□
٣٣٥	المكي والمدني	□
٣٤١	الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن	□
٣٤٢	مع البشير النذير	□
٣٤٥	وقفات مع الخطاب الموجه له ﷺ	□
٣٤٩	أنواع الخطاب	□
٣٥٣	مع الآيات الكريمة	□
٣٥٥	سورة النبأ (١)	□
٣٥٨	سورة النازعات (٢)	□
٣٦٢	سورة عبس (٣)	□
٣٦٧	سورة التكويد الشريفة (٤)	□
٣٧٠	سورة الانفطار الكريمة (٥)	□
٣٧٣	سورة المطففين الكريمة (٦)	□
٣٧٦	سورة الانشقاق الكريمة (٧)	□
٣٧٩	سورة البروج الكريمة (٨)	□
٣٨٢	سورة الطارق الكريمة (٩)	□
٣٨٤	سورة الأعلى الكريمة (١٠)	□
٣٨٨	سورة الغاشية الكريمة (١١)	□
٣٩٠	سورة الفجر الكريمة (١٢)	□
٣٩٤	سورة البلد الكريمة (١٣)	□

- ❑ سورة الشمس الكريمة (١٤) ٣٩٧
- ❑ سورة الليل الكريمة (١٥) ٣٩٩
- ❑ سورة الضحى الكريمة (١٦) ٤٠١
- ❑ سورة الانشراح الكريمة (١٧) ٤٠٥
- ❑ سورة التين الكريمة (١٨) ٤٠٨
- ❑ سورة العلق الكريمة (١٩) ٤١٠
- ❑ سورة القدر (٢٠) ٤١٥
- ❑ سورة البينة الكريمة (٢١) ٤١٧
- ❑ سورة الزلزلة الكريمة (٢٢) ٤١٩
- ❑ سورة العاديات الكريمة (٢٣) ٤٢١
- ❑ سورة القارعة الكريمة (٢٤) ٤٢٢
- ❑ سورة التكاثر الكريمة (٢٥) ٤٢٤
- ❑ سورة العصر الكريمة (٢٦) ٤٢٦
- ❑ سورة الهمزة الكريمة (٢٧) ٤٢٧
- ❑ سورة الفيل الكريمة (٢٨) ٤٢٩
- ❑ سورة قريش الكريمة (٢٩) ٤٣٢
- ❑ سورة الماعون الكريمة (٣٠) ٤٣٣
- ❑ سورة الكوثر الكريمة (٣١) ٤٣٥
- ❑ سورة الكافرون الكريمة (٣٢) ٤٣٧
- ❑ سورة النصر الكريمة (٣٣) ٤٣٩
- ❑ سورة المسد الكريمة (٣٤) ٤٤٢
- ❑ سورة الإخلاص الكريمة (٣٥) ٤٤٤
- ❑ سورة الفلق الكريمة (٣٦) ٤٤٧
- ❑ سورة الناس الكريمة (٣٧) ٤٤٩

(٦) «الدعوة فيها الرفق»

□ ص ٤٥٧ : ص ٥١٣ □

- المقدمة ٤٥٧
- معنى الدعوة ٤٥٩
- موضوع الدعوة «ما يدعو إليه الداعية»: ٤٦١
- أدلة وجوب الدعوة ٤٦٣
- فضل الدعوة إلى الله ٤٦٥
- الرفق وأهميته ٤٦٦
- أمثلة تطبيقية في الرفق ٤٦٨
- ما يستفاد من أحكام ٤٧٠
- فوائد الرفق ٤٧٧
- الحزم وأهميته ٤٧٨
- أمثلة تطبيقية في الحزم ٤٧٨
- ما يستفاد من أحكام ٤٨٠
- فوائد الحزم ٤٨٤
- من أساليب الأنبياء والرسل في الدعوة ٤٨٥
- هل الدعوة مهمة وضرورية؟ ٤٨٩
- وسائل الدعوة ٤٩٣
- يا أهل العقول الزاكية ٤٩٥
- وظيفة الداعية ٥٠٠
- منهج الدعاة السائرين ٥٠٢
- كيف ندعو؟ ٥٠٥
- أين ندعو؟ ٥٠٧
- التعريف قبل التكليف ٥٠٩

- ❑ المرأة الداعية كيف تنجح؟ ٥١١
- ❑ كيف تجمع القلوب؟ (الخلاصة) ٥١٣



(٧) «من صفات أولياء الرحمن»

❑ ص ٥٢١ : ص ٥٧٨ ❑

- ❑ المقدمة ٥٢١
- ❑ توطئة ٥٢٤
- ❑ أدعياء الولاية ٥٣٠
- ❑ بعض ما خُصَّ به الأولياء ٥٣١
- ❑ دفاع الله عن أوليائه ٥٣٣
- ❑ إيمان وعقيدة راسخة ٥٣٨
- ❑ زهد الدنيا ... وحب الآخرة ٥٤١
- ❑ أعمال صالحة ... وجوائز ربانية ٥٤٣
- ❑ عشر آيات ... ثم الجنة ٥٤٥
- ❑ صفات عباد الرحمن ٥٤٨
- ❑ الإحسان في العمل ٥٥٥
- ❑ قلوب وجلة من خشية الله ٥٥٧
- ❑ الجوهرة الثمينة ٥٥٩
- ❑ سبب العداوة ٥٦٥
- ❑ من أحوال المقرّبين وأقوالهم ٥٧٢
- ❑ لوحة نورانية ٥٧٦
- ❑ الخاتمة ٥٧٨



٨- زاد الرّكب السّعيد

□ ص ٥٧٩ : ص ٦٨٠ □

- المقَدِّمة ٥٨١
- زاد الرّكب السّعيد ٥٨٣
- المبحث الأول: العلم ٥٨٥
- تمهيد: ٥٨٥
- فضل العلم وأهله ٥٨٧
- أنواع العلم ٥٩١
- مواقف وعبر: ٥٩٣
- المبحث الثاني: التوحيد والعقيدة ٥٩٥
- أولاً: توحيد الربوبية: ٥٩٧
- ثانياً توحيد الإلهية: ٥٩٨
- ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات ٥٩٩
- أسباب الانحراف عن العقيدة الصحيحة: ٦٠١
- فضل: لا إله إلا الله ٦٠٣
- مواقف وعبر ٦٠٤
- المبحث الثالث: الصلاة ٦٠٧
- كيف لا تكون كذلك ومن ميزتها: ٦٠٩
- المشهد الأول: الإخلاص: ٦١١
- المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح: ٦١١
- المشهد الثالث: مشهد المتابعة والافتداء: ٦١٢
- المشهد الرابع: مشهد الإحسان: ٦١٢
- المشهد الخامس: شهود المنة: ٦١٣

- السادس: رؤية التقصير: ٦١٤
- المبحث الرابع: التقوى ٦١٧
- تمهيد: ٦١٧
- تعريفها: ٦١٨
- مراتب التقوى: ٦١٩
- من فضائل التقوى ٦١٩
- خلاصة هذا المبحث ٦٢٢
- مواقف وعبر ٦٢٤
- المبحث الخامس: الحلال ٦٢٥
- تعريفات ٦٢٥
- نظرات المعاصرين للحلال ٦٣١
- من فوائد هذا البحث: ٦٣٤
- خلاصة هذا المبحث ٦٣٦
- المبحث السادس: حسن الخُلُق ٦٣٧
- ومن الآيات الكريمة في حسن الخلق: ٦٣٧
- الأحاديث الشريفة الواردة في (حُسن الخُلُق) ٦٣٩
- ومن الأحاديث الشريفة في ذلك: ٦٤٠
- المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في حسن الخلق ٦٤٠
- من فوائد (حُسن الخُلُق) ٦٤٢
- مواقف وعبر: ٦٤٦
- المبحث السابع: الاستغفار ٦٤٧
- تمهيد: ٦٤٧
- الأسباب التي يغفر الله تعالى بها الذنوب: ٦٥٠
- من ثمرات الاستغفار وفوائده ٦٥٢

- أوقات يستحب فيها الاستغفار ٦٥٣
- إلا أن هناك أوقات أرجى من أوقات، ومنها ٦٥٤
- شعار الأنبياء والصالحين ٦٥٦
- المبحث الثامن: التوبة ٦٥٩
- تمهيد ٦٥٩
- وجوب المسارعة إلى التوبة ٦٦٠
- شروط التوبة: ٦٦٢
- قبول التوبة ممن قتل مائة ٦٦٥
- المبحث التاسع: الحذر من البدعة ٦٦٧
- تعريف البدعة: ٦٦٧
- خطورة البدع: ٦٦٨
- أسباب البدع: ٦٧٠
- حكم البدعة وأنواعها ٦٧٠
- المبحث العاشر: دفاع الله عن أوليائه ٦٧٣
- بعض ما خُصَّ به الأولياء ٦٧٨
- أهم المصادر والمراجع ٦٨١
- فهرس الموضوعات ٦٨٩